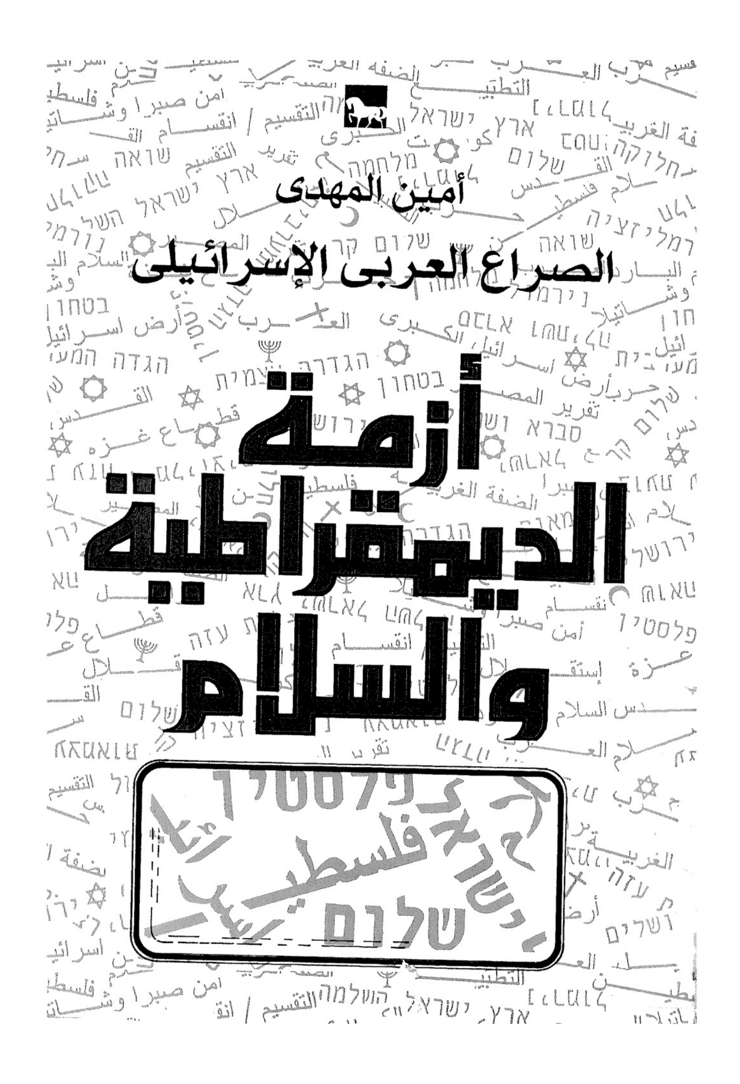


أمين المهدى

الصراع العربى الإسرائيلى

أزمة الديمقراطية والسلام

الـــصـــراع

العـــــــربي

الاسرائيـلي

أزمة الديموقراطية والسلام

أمين المهدى

الصـــــراع
العـــــربي
الاسرائيـلي

أزمة الديموقراطية والسلام

الدار العربية للنشر
القاهرة

الـــصـــراع
الـــعـــربـــى
الإســـرائيلى
أزمة الديمقراطية والسلام

تأليف
أمين المهدى

الطبعة الأولى
يناير (كانون ثانى) ١٩٩٩

الناشر:
الدار العربية للنشر - القاهرة
ت ٣٤٨١٠٦٨ - فاكس ٣٣٥٤٦٣٤

التصحيح اللغوى
سمر ابراهيم

الغلاف:
آسحاق حنا

الجمع الفيلمى:
فاتن سيف
دار الثقافة الجديدة

رقم الإيداع ٩٩/٣٣٣٤

الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-5090-38-5

▫ مقدمة ومدخل ▫

صادف العام ١٩٩٧ عدة مناسبات تنتظم داخل تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي؛ مرور مائة عام على المؤتمر الصهيوني الأول في كازينو بمدينة بازل السويسرية في ٢٩ أغسطس (اب) ١٨٩٧؛ ٨٠ سنة على تصريح بلفور فى ٢ نوفمير (تشرين ثانى) ١٩١٧؛ ٦٠ سنة على تقرير لجنة (بيل) الملكية في ٧ يوليو (تموز) ١٩٣٧؛ قرار التقسيم الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٧؛ ٣٠ سنة على الكارثة الحضارية والاستراتيجية في سنة ٦٧؛ ٢٠ سنة على مبادرة السادات بزيارة القدس.

وصادف العام ١٩٩٨ مرور ٥٠ سنة على إعلان استقلال دولة إسرائيل مساء يوم الجمعة ١٤ مايو (آيار) ٤٨، وإعلان العرب للحرب الاولى على إسرائيل في فجر يوم السبت ١٥ مايو (آيار)؛ ٢٠ سنة على عقد معاهدة كامب ديفيد فى ١٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨.

ويشهد العام ٩٩ مرور ٦٠ سنة على مؤتمر لندن والكتاب الأبيض الثاني في ٧ فبراير (شباط) ٣٩؛ ٥٠ سنة على الهزيمة العسكرية الأولى في سلسلة الهزائم العربية، والاعتراف الضمني من العرب بإسرائيل في اتفاقيات الهدنة؛ ٢٠ سنة على توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في ٢٦ مارس (اذار) ١٩٧٩.

والمغزى الأول المباشر لكل تلك المناسبات هو طول زمن هذا الصراع، الذي بدأ قبل بداية القرن العشرين، وها هو القرن قد شارف على الأفول ؛ والصراع لم يشهد نهايته؛ بينما شهد القرن العشرون بداية ونهاية العديد من النزاعات الكونية والدولية والإقليمية.

والمغزى الثاني المباشر لذلك أن فيزياء الزمن لا تفعل فعلها بصورة كافية في هذا الصراع، في الوقت الذي تقوم فيه أيدلوچيات الذنوب والكراهية بدورها خير قيام لدى اليهود والعرب على حد سواء؛ فذنب العداء للسامية لدى اليهود مازال يقظاً، وذكريات حادثة الضابط درايفوس ومعسكرات داخاو واوشفيتز يلوح أنها أقوى من النسيان، وذنب دير ياسين وكفر قاسم وقبية وبحر البقر وقانا لدى العرب تحول إلى رغبة في الثأر لا تتقادم مع الزمن.

وهكذا نحن أمام لاجئين أضحوا غاصبين، وضحايا غدوا جلادين، وفي النهاية ضحايا لهم ضحايا.

ويبدو الصراع منذ بدايته، وكأن كل الأطراف كان لديهم الأمل المخادع في الشر، أو كأنهم فتحوا صندوق «بندورا»؛ فانطلقت منه شرور الحرب والعنصرية والطغيان.

غير أن طول هذا الزمن يوفر لنا معطيات مقارنة ونقد لمسار الصراع ونتائجه/ وباعتبار أن إسرائيل كانت ومازالت نقيضاً موضوعياً للمجموع العربي؛ وذلك لأن الصراع في حقيقته لم يكن صراعاً جغرافياً أو حدودياً كما يصرح المتحدث الرسمي العربي، ولكنه كان امتحان وجود، واختبار صلاحية للحياة، وصراعاً حضارياً بكل ما تعنيه الكلمة، وهناك سبب آخر جوهري يزيد الحاجة إلى تلك المقارنة النقدية، وهو أنه لم تتوفر أبداً على الجانب العربي القراءة الاخرى للصراع، وكان الرأي الآخر على الدوام إما محاصراً، وإما مغيباً بالكامل.

وثمة ماهو أكثر فداحة ودرامية من كل ذلك، وهو هزيمة العرب الاستراتيجية والحضارية، ولم يعد لهم مجتمعين أرصدة من أي نوع لتغيير مسار ونتائج الصراع، ذلك آن السلام كخيار استراتيجي، كما أعلن في مؤتمر القمة بالقاهرة سنة ٩٦؛ لم يكن سوى مؤشر على نفاذ الأرصدة المؤثرة، أكثر منه اختيار؛ فالدول العربية غير قادرة على الحرب، ولا تملك مشروع سلام، ولا حتى خطاب أو ثقافة للسلام، إنه نفاذ الأرصدة فحسب، وإذا تساءل البعض عن عمليات حزب الله الذى يشارك حماس والجهاد في كونهم أرصدة تكتيكية يذهب أغلبها إلى

قوة اقليمية غير عربية هي إيران، كما أن العقل الديني الإسلامي كان في طليعة المعسكر المهزوم بامتياز، إذ أن مراحل الصراع كلها كانت بالتداول بين الفكر الديني والفكر القومي العربي، وهذه الأرصدة هي أرصدة سلبية سواء في الحساب الختامي على مستوى الصراع، أو على مستوى المستقبل المجتمعي في أماكن تواجدها.

كل ما سبق يعني أن لحظة تجرع الدواء المر قد حانت، ويفرض توجيه الاسئلة الحرجة التي تأجل توجيهها مراراً، وتجعل اليقظة المؤلمة حتمية لا مهرب منها، وبهدف معرفة ما هو متكرر وشبه ثابت من مُعاملات وقوانين في هذا الصراع، واكتشاف الرابطة ما بين هذا الصراع وقضايا الحداثة والديموقراطية والحريات، لاستخراج ذهنية جديدة، وأدوات كامنة لإدارة هذا الصراع حتى يبلغ ضفاف السلام والتعاون.

لقد دفع المواطن العربي تحديداً كل الفواتير المؤلمة لهذا الصراع، وهنا تبدأ أول الأسئلة الحرجة، هل كان الصراع العربي الإسرائيلي هو السبب في كل ذلك التردي والألم والتخلف؟ كما يقول الرأي الواحد وظله الرأي السائد، أم أن هذا الصراع نفسه كان من النتائج لأسباب ومقدمات أعمق من ذلك وأبعد غوراً؟

وفي اعتقادي أن أول الإجابات على أول الأسئلة لا يقل التباساً وإحراجاً؛ فالنظم العسكرية الريفية أو العشائرية التي تحكم العالم العربي لم تصل إلى الحكم إلا بعد اللجوء إلى الحسم العسكري سنة ٤٨، والهزيمة التي نتجت عن تلك الحرب، وبنفس الدبابات.

وفي تصوري أنه كما حدث في تجارب شعوب أخرى متعددة، تصرخ القوى الفاشية بالحرب، كي تتصدر الشارع السياسي، الذي يصبح حال انطلاق صرخات الحرب، قد سيطر عليه الغوغاء، ويصبح أسيراً للغرائز السياسية، وبعدها تركب تلك القوى حصان الهزيمة وغرائز الانتقام إلى السلطة، وهنا ينتهي دور العقل، ويبدأ دور البروباجاندا والغوغائية، إنها صفقة الشيطان، لذة الشر في مقابل الحياة.

لقد تزامن رفع حدة الصراع، وصعود ثنائية الحرب والهزيمة مع سيطرة الاستبداد السياسي، وأصبحت المنطقة بعدها تعج بالطغاة، وهو ما يبث أول بذور الشك في أن إسرائيل لم تكن سوى قميص عثمان.

وكان شعار إزالة إسرائيل هو الوجه الآخر لشعار إسرائيل الكبرى، وهكذا تصدر ذلك التحالف الموضوعي الغير مباشر مسرح الشرق الأوسط وهو التحالف بين قوي العداء للديمقراطية علي الجانب العربي وقوي التوسع العنصرية علي الجانب الإسرائيلى وهكذا تم تحويل إسرائيل إلى طوطم وتابو، ضمن سياق التأسيس لوعي زائف، وثقافة سياسية معادية للتغيير والحرية والحقيقة.

وليغفر لي القارئ اتخاذي السياسات التي حكمت مصر لخمسين عاماً تقريباً مراراً كمثال بين صفحات هذا الكتاب، والأسباب التي لا تخفي كثيرة، وتقدم -علي ما أظن- العذر الكافي.

فيما بين سنة ١٩ وسنة ٥٢ أعادت مصر تجربة الدولة الحديثة الأولى في عصر محمد علي، وسعيد، وإسماعيل، وكان أهم سمات التجربتين هو الارتباط بالتقدم والحضارة الغربية المعاصرة، والاتجاه إلى الليبرالية السياسية والاقتصادية، ودعم الدولة/ الأمة، ونمو المجتمع المدني والفكر العلماني(*)، وصعود دور المدينة، والذي تواكب مع تطور قضية الاستقلال الوطني.

ولأنه لم يكن مشروع الفاشية وأنصار الماضي؛ فقد كانت حرب ٤٨ هي الفرصة السانحة للأمل المخادع في الشر، أو في قميص عثمان، وهكذا تغيرت مياه نهر النيل نتيجة انقلاب سنة ٥٢، وإقامة جمهورية يوليو العسكرية طوال ٤٦ سنة ويزيد، والآن يمكن القول إن النتائج كانت ابنة المقدمات تماماً، ويكشفها لنا المقياس النقدي المقارن مع إسرائيل.

وفي تقرير عن التنمية في العالم ١٩٩٧ الصادر عن البنك الدولي تحت عنوان الدولة في عالم متغير» المطبوع في مؤسسة الأهرام بالقاهرة. يرد فيه

(*) المقصود بالعلمانية فصل الدين عن الدولة، دون فصله عن المجتمع.

الآتي:

السنة	البيان	إسرائيل	مصر
--	المساحة	٢١ ألف كم٢	١,٠٠١٠٠٠ مليون كم
٩٥	عدد السكان	٥,٥ مليون	٥٧,٨ مليون
٩٥	قوة العمل	٢ مليون	٢١ مليون
٩٥	إجمالي الإنتاج المحلي	٩١,٩٦٥ مليار $	٤٧,٣٤٩ مليار $
٩٥	الصادرات	١٩,٠٤٦ مليار $	٣,٤٣٥ مليار $
٩٥	الواردات	٢٩,٥٧٩ مليار $	١١,٧٤٩ مليار $
٩٠ - ٩٥	نسبة النمو في الصادرات	١٠,٠٪	- ٠,١ ٪
٩٠ - ٩٥	نسبو النمو في الواردات	١٢,٣٪	- ٣,٩ ٪
٩٤	نسبة المساعدات إلى إجمالي الناتج المحلي	١,٦٪	٦,٤ ٪
٩٥	أمية الكبار	صفر	٤٩ ٪

وإذا وضعنا في الاعتبار أن مصر لديها بترول وقناة السويس، وعائدات عمل المصريين في الخارج، ووفرة نسبية في المياه، ومساحات ضخمة قابلة للزراعة، وإمكانيات سياحية لا تقارن، وكل ذلك لا يتوفر في إسرائيل مقابل له، أو أن المقابل لا يقارن، وحينئذ تأخذ المقارنة بعداً أعمق غوراً، بل ان الاستمرار في المقارنة يزيد الحرج وكان د. يوسف والى وزير الزراعة المصري قد اعلن في مجلس الشعب في نهاية سنة ٩٨: أن إسرائيل أصبحت تفوق مصر في إنتاج القطن طويل التيلة!.

والواقع في باقي العالم العربي لا يقل سوءاً، وقد اعلنت منظمة برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة في تقريرها السنوي عن الثروة البشرية والتنمية، والذي أعلن في ٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٨: ان الوضع سيء بشكل عام في

الشرق الأوسط والمغرب العربي، باستثناء إسرائيل.

وحتى لا تبدو المقارنة مع إسرائيل استثناء؛ فإن المقارنة مع دول متقدمة أخرى أكثر تبايناً؛ فالدول العربية مجتمعة (بترولية وغير بترولية)، وعدد السكان فيها ٣٠٠ مليون تقريباً تحصل في سنة ٩٨ على ناتج إجمالي محلي هو ٤٩٠ مليار دولار تقريباً، في حين تحصل دولة بلچيكا (عشرة مليون نسمة) على ناتج إجمالي محلي هو ٤١٠ مليار دولار عن نفس الفترة !!، إنه الفارق الثابت بين العرب والتقدم.

وقد يخطر بالبال أن رواية الرأي الواحد صحيحة عن باقي العوامل الحضارية، خاصه عن المقولة المراوغة عن تمتعنا كعرب وكمسلمين بالتقدم الروحي، وهنا لابد أن نتخير مقياساً نقدياً مقارناً كي نضع تلك المقولات تحت الاختبار.

لاشك أن إسرائيل دولة عنصرية، فالقانون لا يفرق نظرياً بين فرد وآخر، ولكنه يفرق بين الجماعات (يهود وآخرين ثم تطورت إلى يهود وعرب وآخرين)، وهي البلد الوحيد في العالم التي يبيح فيها حكم قضائي التعذيب لبشر تحت الاحتلال أثناء التحقيق، وفيها نوع من التمييز ضد اليهود الشرقيين وعرب ٤٨.

ولكن أوضاع اليهود الشرقيين وعرب ٤٨ والأقليات فيها لديها فرصة النضال المدني السلمي، والآن يوجد في إسرائيل عدة نواب للوزراء من العرب، ونائب رئيس الكنيست عربي شيوعي هو النائب «صلاح سليم»، وهناك عربي عضو في المحكمة العليا، وسفير إسرائيل في فنلندا عربي ويحق للعرب والأقليات رفض التجنيد، ورفض الخدمة في الشرطة، وقبول أو رفض الخدمة المدنية، وانتهى الحكم العسكري للمناطق العربية في سنة ١٩٦٦.

وإذا أضفنا إلى ذلك الحق المطلق للمواطن والجماعات الإسرائيلية في إنشاء الأحزاب، والنقابات، والجمعيات، والنوادي، وكل مؤسسات المجتمع المدني، وإصدار الصحف، والترشيح، والانتخاب، وتدور فيها انتخابات على كل المستويات، «غير مطعون فيها»، كما أن حق الإضراب مكفول لكل المهن.

وهي الدولة الوحيدة بالقياس إلى العالم العربي التى يتم فيها انتخاب رئيس الحكومة، ويمكن التحقيق معه، ومحاكمته أمام الشرطة والقضاء العادي والكنيست، ويمكن عزله وإسقاط حكومته، وقد شهدت إسرائيل خلال العشرين عاماً الأخيرة سبعة حكومات منتخبة؛ والحكومة القادمة في مايو (آيار) ٩٩ هي الحكومة الثامنة خلال نفس المدة.

وميزانية البحث العلمي في إسرائيل أضعاف مجموع ميزانيات البحث العلمي في العالم العربي، والجامعات والأكاديميات مستقلة تماماً عن السلطات التنفيذية.

وقادة إسرائيل منذ إعلانها في غالبيتهم الساحقة من العلمانيين، والفكر الإسرائيلي عامة يتعامل مع اليهودية كقومية وليس كدين.

وكم يكون الأمر مخجلاً إذا تطرقنا في المقارنة إلى تلك الجوانب في العالم العربي، ويكفي تذكر حال حقوق الإنسان والمرأة والطفل والمعاقين وحال الاقليات، والمفكرين العلمانيين في كل العالم العربي دون استثناء.

ويطرح الاستنتاج المرير نفسه: هل هناك روحانيات خارج الحرية؟

إن استقرار النظم المستبدة في العالم العربي وبأشخاص بعينهم، ولفترات طويلة بأكثر مما يحدث في أي مكان آخر في العالم، في منطقة تموج بالإرهاب والفقر، وتمور بالصراعات والتوترات السياسية والاثنية والعسكرية، وضع غير طبيعي ومنافٍ للمنطق والتاريخ، وينبئ بنوع التغيير القادم، إنه الفوضى بالطبع.

إن المثابرة على تصنيع ثقافة رديئة رسمية ترفض التغيير ومؤسسة للطغيان، وتصنيع مثقف رسمي قبيح أو كلب حراسة(*) أيدلوچى غير قادر على الاستفهام وتوجيه الأسئلة، وعاجز عن الحوار، مقاتل لا يهدأ ضد الحقيقة، وضد الحرية والديمقراطية، ويثابر على قراءة متعسفة أحادية الجانب، دون رؤية نقدية من أى نوع، وأهم أمثلتها الصراع العربي الإسرائيلي. إنه المثقف الذي لم يدافع أبداً عن المجتمع، ولا عن الفرد، وعن دوره الأساسي في التقدم والرقي،

(*) التعبير مأخوذ من عنوان واحد لكتابين لمفكرين فرنسيين هما: بول نيزان وسيرج حليمي- والكتابان عبارة عن نقد حاد للمثقفين الفرنسيين.

باسم الطبقية ذات الطرح القومي الغوغائي حيناً، وباسم التفسير المُتْرب والمراوغ للنص الديني حيناً آخر، وباسم الوطنية الشعبوية الغرائزية مراراً، وفي كل الأحوال كان يدافع عن سلطة الأمر الواقع لاغير.

قام ذلك المثقف بتحويل انقلاب قامت به المصفحات في يوليو ٥٢ إلى ثورة!، وقام بتسمية صراع على السلطة في ١٥ مايو (آيار) ١٩٧١ بثورة التصحيح، إنها اللغة التي فقدت معانيها فذهبت تتستر علي أخطاء الفكر وفضائحيته.

وهو نفسه المثقف الذي حول ذكرى حرب أكتوبر (تشرين أول) ٧٣ من حرب وطنية شريفة ومشروعة، وذات نتائج لها وعليها؛ إلى مناسبة للنفاق الأخلاقي والسياسي، ولأغراض غير خافية.

لقد كان ذلك بمثابة سمل عيون المجتمع وإغلاق الأذان والأفواه، حتى أصبحت الأوطان العربية هي أوطان مفترضة ليس إلا.

- إن العالم العربي محكوم بأنظمة تمرست فقط بفن البقاء والاستمرار في السلطة، وصنعت مجالاً شبه كهرومغناطيسي رتب جزئيات المجتمعات العربية بروابط بيروقراطية فاسدة معادية للشعب، وولاء سياسي ضيق، ونظم أمنية فظة و إخطبوطية، وأجهزة دعاية ساذجة متضخمة، وخطاب ديني رسمي، وهذا يفسر لماذا أصبحت السلطات العربية بدون بدائل سياسية، سوى صنيعتها، وهو الإرهاب الديني (الفكري والمسلح)، أي أن نظم الطغاة العرب أصبحت أهم مهامها الآن هي الوقوف أمام النتائج المباشرة والمتفاقمة لطريقة حكمها.

إنه ثعبان الشرق السام المراوغ وقد ابتلع ذنبه، ولم يعد من الممكن تمييز الرأس من الذنب، وذهب يدور ويزحف في ظل التعتيم بخطورة.

وهكذا تفرق العرب بين دول محاصرة بالكامل، وبين دول نصف أو شبه محاصرة، بينما تصنف كل المجتمعات العربية دون استثناء في خانة الانقطاع المعرفي والديموقراطي والحضاري بل الإنساني أيضا عن باقي البشر.

إن ذلك يجيب عن السؤال الحرج الثاني وهو: هل هناك صيغة حضارية من أى نوع تربط العالم العربي ببعضه البعض؟ وهل هناك صيغة إنسانية من أى نوع تربط ما يسمى بالعالم الإسلامي ببعضه البعض؟

وفي اعتقادي أن الرابطة لم تكن سوى مظلات شمولية تستر تقسيم

المجتمع إلى جماعة للطاعة السياسية وجماعة للطاعة الإيمانية، بهدف تفكيك الشارع السياسى، وتقويض نظام الدولة لصالح نظام سلطوى رث، وكان الشارع السياسى ونظام الدولة الأمة في مصر هما أهم منجزات المصريين في القرن العشرين، وكانت الضحية الأولى لتلك الصيغ الشمولية الفرد وسيلة المجتمع الوحيدة للإبداع وللوصول إلى الحقيقة.

إن المجتمعات العربية تعاني من البطالة بمتوسط لا يقل عن ٢٠٪، وانهيار مشروعاتي ذريع، امتد إلى فشل الإنشاء بكل أشكاله(*)، وامتد ذلك إلى الدورة الحيوية للمجتمع فأصبحت الحوادث في بلد مثل مصر(**)، والناتجة عن سوء الإدارة والانخفاض الفادح في الكفاءة، وروح اللامبالاة العامة بالاضافة إلى العنف الرسمى و المجتمعي الظاهر منه والكامن، أصبح كل ذلك أشبه بالافتراس الذاتيCannibalism، وهو مايحدد سببه علماء الإحياء في ضيق المساحة الحيوية أو قلة الموارد الحيوية، مما يسبب أن يفترس النوع الواحد نفسه.

إن الأسئلة الحرجة لابد أن تمتد لتشمل كل أوجه حياة العرب بعد فشل المشروع العربي؛ أمام تفوق وانتصار المشروع الصهيوني.

إن الطغيان وجمهوريات الخوف والعداء للحريات والحداثة والمساواة وانخفاض مستوى النخب الحاكمة إلى مادون الحد الأدنى، كان كل ذلك هو الهزيمة الاصلية والأولى للمواطن العربى. كان ذلك جزء من قراءة أخرى. وهدف هذا الكتاب هو محاولة تقديم قراءة أخرى لهذا الصراع.

أشكر كل من ساعدنى وساهم معى فى إخراج هذا الكتاب إلي القارئ، ومنهم الأصدقاء الذين أبدوا الرأى بوجهيه: الاتفاق والاختلاف.

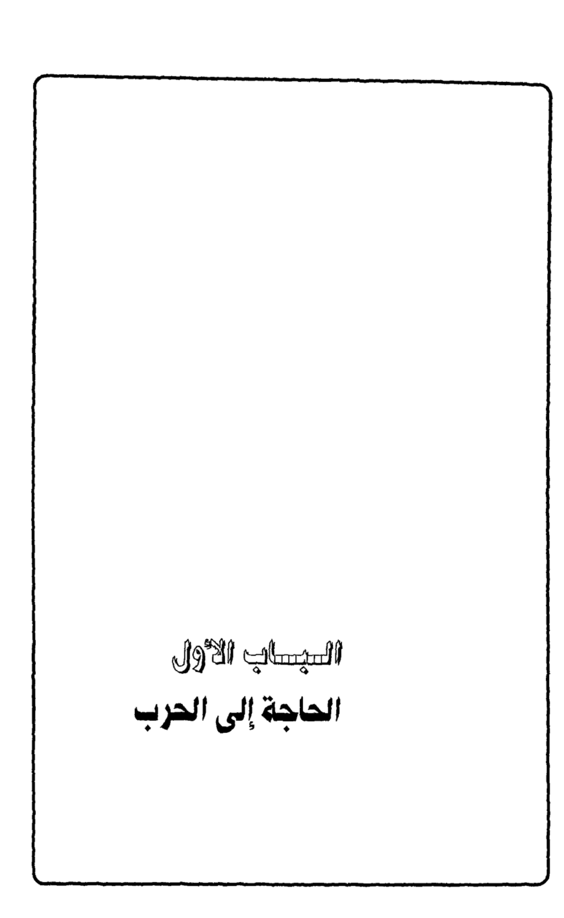
وأخيرا أقرر أن ذلك الكتاب هو دعوة للحوار بشرط أن ينحصر فيما بين دفتيه، وأضيف أنني قد تعلمت الكثير خلال كتابته.

امين المهدي

القاهرة

(*) أصبح انهيار المباني في مصر، وإيقاف إسكان مدن كاملة بسبب فساد الإنشاء ظاهرة في مصر.

(**) سقط ٧٥ ضحية وكثير من الجرحى فى حوادث المرور في محافظة الجيزة وحدها، وخلال الأسبوع الأخير من يناير (كانون ثاني) فقط. وهو رقم يتجاوز أى مقياس في العالم في اعتقادي.



الباب الأول

الحاجة إلى الحرب

الفصل الأول

إحياء الرأى الآخر .. فرز كوبنهاجن

«كما هو متوقع» ثارت الزوبعة حول إعلان كوبنهاجن (التحالف الدولى من أجل السلام فى ٣٠ يناير (كانون ثانى ١٩٩٧)*، وحولته إلى ما يشبه كرة الثلج التى ما فتئت تتدحرج فى كل اتجاه، وتكبر سريعاً، وتطرح، أو بمعنى أدق تعيد طرح العديد من القضايا القديمة، ومعها مركباتها على هيئة إشكاليات جديدة، نتجت بدورها عن تأجيلها مراراً بلا حل، ولا أعتقد أننى أبالغ إذا ذكرت أن بعضها يعود إلى نقطة الصفر فى الصراع العربى الإسرائيلى، وبعضها الآخر ينتمى إلى منطقة ما قبل البديهيات فى أدبيات الحريات والسياسة والأخلاق والثقافة، هذا إذا إتخذنا «الإعلان» على محمله الحقيقى، وهو كونه واقعة سياسية وفكرية حاولت أن تبلور الرأى الآخر فى قضيتى السلام والحوار بين العرب والإسرائيليين، وبالتالى أحدثت فرزاً جسد أيضاً، مفاهيم الرأى الواحد (أو السائد)، الذى أدار الصراع العربى الإسرائيلى لخمسة عقود تقريباً.

ولم تلبث كرة الثلج تلك أن سكنت ثم ذابت وتبخرت، مؤجلة ما أثارت من قضايا إلى زوبعة أخرى، وكرة ثلج أخرى، تاركة المجال لمسلسل الانهيار العربى سيّداً للمشهد بكاملة، إلى أن يقضى الله امراً كان مفعولاً.

---

* كان الإعلان نتيجة مبادرة قام بها هربرت بونديك رئيس تحرير سابق لجريدة بولتيكا الدنماركية بالمشاركة مع وزارة الخارجية الدنماركية لتأسيس تجمع من النشطين من أجل السلام للعمل على إرساء سلام شامل في الشرق الأوسط، وشارك في الإعلان أطراف دولية ووفود من الأردن وإسرائيل ومصر وفلسطين، وكان الوفد المصري مشكلاً من لطفي الخولي، د. مراد وهبه، صلاح بسيوني، على الشلقاني، د. عبد المنعم سعيد، أحمد شوقي، د. رضا محرم، د. حسن الحيوان، رمسيس مرزوق.

على أن ذلك لايجب أن يمنعنا من معالجة ذلك الموضوع والمشاركة فيه، ومن التاكيد على ضرورة أن يبقى باب الحوار مفتوحاً حول تلك القضايا والإشكاليات، وحول ما يستجد غيرها. كعمل لايجب أن يعبأ بحجم الأمل أو بحجم اليأس، ذلك لأن الرأى الآخر هو قراءة أخرى، وخيار آخر فى حيز المشهد، ولو فى الخلفية، مانعاً للسقوط فى اليأس الكامل، ومهما كلف ذلك من تعرض للتخوين والتكفير، أو حتى للروائح الكريهة «للردح» و «التجريس»، التى أثبتت أن العشوائيات والتريبف قد طالا ماهو أكثر من المدن والسياسات. فذلك كله، وأكثر منه أقل تكلفة وأكثر حكمة تعلمها إيانا رأس الذئب الطائر فى الجزائر والعراق وليبيا والسودان، وأحسب أننا فى مصر لسنا بعيدين عن ذلك.

وإذا كان موضوع هذه الدراسة أوسع بكثير من مجرد مناقشة واقعة كوبنهاجن، فإن ذلك لايحول بينى وبين محاولة التعرض لها بالتقييم والنقد فى مكان آخر من هذه الدراسة، كتكأة لتقديم تصور لإطار عمل يهدف إلى تحقيق السلام الحقيقى، والذى هو بالضرورة السلام الشعبى الديموقراطى.

وعلى نفس المنوال، فإننى اتخذت من فرز كوبنهاجن مدخلاً لمناقشة مفاهيم الحرب والسلام على الجانب العربى فى الصراع عامة، وعلى الجانب المصرى خاصة، لأسباب ليست خافية. وتكمن أهمية هذا الفرز وتوقيته ودلالاته من وجهة نظرى فى عدة اعتبارات:

أولاً: أن تأثير الحرب والسلام فى مصائر الشعوب بالغ الأثر/باعتبارهما اختيار وجود، وأسباب تغيير فى بنية المجتمع، ومكونات علاقاته الداخلية والخارجية، وفى أولوياته وغاياته. وإذا كانت الحرب هى مجال تثبيت قيم المجتمع العامة، وتحديد أولوياته بصرامة، ووسيلة صنع إجماع وترابط يتسم بالتمترس على حساب كل الاعتبارات الأخرى، فإن السلام هو فرصة تغيير قيم هذا المجتمع، وصناعة تنوع خارج الإجماعات العامة، وتبلور فكر نقدى، وأنساق معرفية جديدة، سواء فى حالة السلام الناتج عن انتصار، أو الناتج عن هزيمة. هذا طبعاً فى حالة الحرب والسلام بالمعنى الواضح غير الملتبس.

ثانية: بالنظر إلى نتائج الصراع العربى الإسرائيلى فى مرحلته الأولى (من سنة ١٨٩٧ إلى ١٩٤٩) وفى مرحلته الثانية (من سنة١٩٤٩ إلى ١٩٩٦)، نجد انه لا مناص من المواجهة عاجلاً أو آجلاً مع الحقيقة الكارثة، وهى هزيمة العرب، ليس فقط استراتيجياً – أى فى مجمل نقاط الصراع، وإنماحضارياً بما يعنيه ذلك من قدرة على صياغة غايات إنسانية للمجتمع، فما بالنا بتحقيقها، ولا يستثنى من ذلك هزيمة الثقافة والقيم والنخب. ونظرة سريعة إلى تغير الشعارات من «تدمير اسرائيل»[1]، و«إقامة دولة فلسطينية ديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني»[2] إلى «إزالة آثار العدوان»، ثم «الانسحاب من الأراضى العربية (المحتلة) بالوسائل السلمية» ومارافق تلك التحولات من تفاوت زمنى ونوعى بين الأطراف العربية، فى عملية التفاوض وتوقيع الاتفاقيات بينها وبين إسرائيل، لهو دليل لايخالجه ذرة شك على ازدياد تفتت وضعف الموقف العربى، ناهيك عما رافق ذلك من ازدياد سيطرة ثقافات الإكراه، والتدهور فى قضايا الديموقراطية، وحقوق التعبير، وحقوق الإنسان والمرأة والأقليات، وتناقص معدل التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية فى طول العالم العربى وعرضه، بالمقارنة مع ما حدث على الجانب الإسرائيلى داخل نفس المدة الزمنية. كل ذلك يجعل الحقيقة قاسية وملحة. ولست داعية يأس، لأن شرف الاعتراف بالهزيمة هو البداية الصحيحة للمرحلة الثالثة من الصراع والتى بدأت بالفعل بعد نجاح نتنياهو، ومعه الائتلاف العنصرى من اليمين الدينى والقومى فى انتخابات مايو سنة ١٩٩٦، وهى مرحلة صراع السلام، أو مرحلة ما بعد الهزيمة أو مرحلة بعث الصهيونية الجديدة.

إن شرف الاعتراف بالهزيمة، وتجرع الدواء المر هو البداية الصحيحة لتكوين رؤية نقدية شجاعة وعقلانية للمراحل التى مضت من الصراع، وبدون اعتراف دقيق وواضح بالهزيمة، ولو على مستوى النخب السياسية والثقافية المعارضة التى تهدف إلى التغيير، بدون ذلك سيستمر الخطاب الدعائى والسياسى الزائف الذى يتجاوز ويسئ إلى القدرة السياسية والاستراتيجية الحقيقية، وهو فى نفس الوقت استمرار لثنائية الحرب والهزيمة، وذلك ما سينتج عنه خسارات قادمة.

ولابد هنا من التوضيح أن شرف الاعتراف بالهزيمة ونقد الذات لايعنى التسليم لعنصرية اليمين الدينى والقومى فى إسرائيل، ولايعنى أبداً إسقاط حق الفلسطينيين فى تقرير المصير، وإنشاء دولتهم، وعودة اللاجئين، وحق باقى الأطراف العربية فى استعادة الأراضى المحتلة، ولكن الهدف هو إسقاط ثنائية الحرب والهزيمة، ومعها الخطاب الدعائي والسياسى الرسمى الزائف، وإحلال مفاهيم وأساليب كفاحية جديدة، وإفساح المجال للصراع السلمى المدنى.

لقد كانت ألمانيا واليابان بدون جيوش، وبدون شروط، يوم أن وقعت معاهدات استسلام كامل، حتى إن الجنرال ماك ارثر القائد الأمريكى الذى قاد الهجوم على الأراضي اليابانية شارك فى وضع الدستور اليابانى، وقبل ذلك اعترفت الدولتان بالهزيمة لنفسيهما ولغيرهما وبعده أيضا، وكان ذلك هو بداية تغيير قيم ومفاهيم وأدوات، وكان ذلك هو أيضاً بداية النصر لتلك الشعوب.

كما كان الاعتراف بالهزيمة فى قبرص فى منتصف السبعينيات من هذا القرن هو نهاية الحكم العسكرى فى اليونان، وهاهى عضو لائق فى الاتحاد الاوروبى.

وكان الاعتراف بالهزيمة فى معركة جزر الفوكلاند هو نهاية الحكم العسكرى فى الأرجنتين، وفى اعتقادى أن الأمور ساءت لدينا بأكثر مما حدث لليابان وألمانيا واليونان والأرجنتين فى حروبهم وهزائمهم، هذا إذا حسبنا تلك الأمور بمعيار الفكر الحر والعلمى، وبمقياس الزمن، وما نملكه من إمكانيات التغيير والدخول إلى العصر.

إن الهزيمة هى الكلمة الناقصة فى الحوار بين الأطراف العربية.

ثالثاً/ إلحاقاً لما سبق نستنتج أن الحكومات العربية عندما اختارت السلام كخيار «استراتيجى» فى مؤتمر القمة فى القاهرة فى سنه ١٩٩٦، فليس معنى ذلك أن لديها مشروع سلام أو حتى خطاب سلام، وبالتالى فالسلام لم يكن اختياراً، وإنما هو نتيجة استحالة قرار الحرب فى المدى المنظور، أى أنه كان تقريراً لواقع الحال، وذلك ساهم فى التباس وغموض مفاهيم الحرب والسلام على حد سواء/ وهذا جزء من مأزق الرأى الواحد أو الرسمى، وظله الرأى السائد. وليس توقف العملية السلمية بإرادة حكومة

نتنياهو قبل مؤتمر القمة العربى وبعده، سوى دليل مباشر على ذلك.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن المشروع الآخر « للمنطقة» وهو مشروع الشرق أوسطية هو مشروع إسرائيلى أيضاً من ابتكار بيريز؛ فالمعنى المباشر لذلك هو أن قرار السلام، وقرار إيقاف السلام؛ ولحين إشعار آخر؛ تقررهما إسرائيل من طرف واحد.

رابعاً: إن الحوار حول قضايا الحرب والسلام يكشف بجلاء الصلة الوثيقة بينها وبين قضايا وإشكاليات الحداثة والديموقراطية والتنمية والعولمة، ناهيك عن ما بعد الحداثة، وما بعد الدولة، وما بعد الرأسمالية، وكل المابعديات الأخرى. وإذا كانت لدينا أدلة قوية على أن الرأى الواحد فى قضايا الحرب والسلام هو نفس الرأى الواحد فى القضايا الأخرى؛ فإن معنى ذلك أن الآراء الأخرى، فى كل تلك القضايا، لديها الفرصة فى تخير نقاط الضعف التى يمكن عن طريقها إحداث تطور فى تلك القضايا؛ ذلك لأن إحراز تطور فى اتجاه الديموقراطية، على سبيل المثال، ينعكس إيجاباً بالضرورة على مسارحقوق الإنسان والمرأة، ومسار السلام، وكل المسارات الأخرى، كما أن الانتكاس فى مسار قضية من تلك القضايا ينعكس سلباً على كل القضايا الأخرى.

خامساً: حدث فرز كوبنهاجن نتيجة اختيارات حرة تجاه قضية الحوار مع الساحة الإسرائيلية، كما أن الأطراف حصلت على نفس الفرصة فى التعبير – لايقلل من ذلك التباس مواقف البعض – وهى واقعة نادرة فى مصر منذ سنة ١٩٥٤، وأحسب أنها كذلك فى أغلب العالم العربى.

سادساً: إنه لأول مرة تلوح الفرصة أمام الرأى الآخر فى الصراع العربى الإسرائيلى، كى يلملم صفوفه المتناثرة فى أنحاء العالم العربى، وكى يشكل تياراً يمكن أن يؤدى دوراً مهماً فى آفاق السلام العربى الإسرائيلى، هذا إذا أدرك أصحاب الرأى الآخر ضرورة الخروج من الإطار الضيق لإعلان كوبنهاجن إلى الساحة الرحبة للفكر المخالف فى تاريخ الصراع وثقل أدبياته منذ بداية الصراع.

سابعاً: جسد الفرز محنة الرأى الآخر فى الصراع، وفى نفس الوقت أبرز أزمة الرأى الواحد وظله الرأى السائد، وفى اعتقادى أن الحالتين على حد سواء تعكسان

أزمة أكبر هى أزمة العقل العربى المعاصر، ومحنته الحضارية، وأكثر من ذلك أنها تعكس التخلف المجتمعي والإنسانى للعالم العربى، والذى يزداد بمرور الوقت.

على أنه تبقى ملاحظتان، لكى لاننزلق إلى أحلام اليقظة، لابد أن نبين أن هذا الفرز بين معسكرين أو بين مجموعتين من المفاهيم؛ إنما يتم على مستوى المثقفين والنخب السياسية المحدودة، وكل حديث لأى من الطرفين عن أن الجماهير تقف من خلفه هو محض إدعاء؛ إذ أن الممارسة السياسية والفكرية الحرة خرجت من الشارع المصرى منذ سنة ٥٤ - كما سبق وذكرت- ولم تعد إليه بعد، ولا يقلل ذلك من قيمة الموضوع كقضية فكرية فى الأساس، كما أن فروق العدد بين المعسكرين فى أى مرحلة لا أهمية كبيرة لها؛ إذ أن فكر التغيير لايقاس بعدد من حمل مسئوليته، وإنما يقاس بجدته وجسارته وأثاره.

□□□

الفصل الثاني
محنه الرأى الآخر

بدأت محنة الرأى الآخر فى مصر والمتعلق بإدارة الصراع مع إسرائيل منذ بداية الصراع، لكن الرأى الآخر كان يجد الوسائل للتعبير عن نفسه خلال التجربة الليبرالية المصرية قبل يوليو سنة ٥٢، سواء كان التعبير فى المؤسسات السياسية أو في وسائل التعبير الصحفية على وجه الخصوص، أو في مؤسسات المجتمع المدنى، مثل الجمعيات والروابط وخلافه، غير أنه بترسخ الحكم العسكرى بعد انقلاب يوليو سنة ٥٢، وبتزايد حدة الصراع، ووقوع الهزائم بالتالى؛ أخذ التعبير عن الرأى الآخر يزداد صعوبة، وبدأ فى التلاشى حتى الاختفاء التام فى الفترة من سنة ٥٤ وحتى سنة ٧٣؛ ويمكن القول أنه يوجد تناسب عكسى ما بين تعبير الرأى الآخر عن نفسه، وما بين ثنائية الاستبداد والهزائم، ويمكن أن نجد هذا التناسب العكسى أيضاً فى كل قضايا التنمية، والحريات، والعلاقات العربية والدولية.

ولاشك أن انسداد فرصة التعبير أمام الرأى الآخر فى الصراع مع إسرائيل، وفى كل القضايا الأخرى تدلل على قصور وتشوه بنائى حاد فى الجوانب السياسية والاجتماعية فى مصر، والأخطر من ذلك فى المعرفة والثقافة العربية.

وإذا سلمنا أن الضيق بالرأى الآخر فى الصراع باعتباره قضية داخلية له امتداداته الداخلية التى تشمل الموقف من الأقليات العرقية والمذهبية والدينية والسياسية، وتشمل كما سبق أن أسلفنا قيم الحرية والحداثة، وأن ذلك أحد جوانب أزمة الرأى الواحد الرسمى وظله الرأى السائد؛ فإن الامتدادات الخارجية تشمل الفشل فى إدارة الصراع

مع إسرائيل، وأيضاً الفشل فى التصور العقلانى لدور الأطراف المؤثرة الخارجية «البعيدة» ، مثل الولايات المتحدة، وأوروبا، والاتحاد السوفيتى (سابقاً)؛ بل تصور دور الأطراف المؤثرة الإقليمية، والأطراف العربية المنخرطة فى الصراع.

وإذا سلمنا أيضاً أن الآخر «يشرع» فى الوجود بمجرد بدء الذات فى الوجود، ومن نفس لحظة البدء، فيجب أن نسلم أن «الصيرورة» بالمعنى الوجودى تشمل الذات والآخر، وتعنى أن الاعتراف بالآخر، لايعنى نفى الصراع أو نفى التناقض معه، والاعتراف بالهولوكوست أو الشواح (المحرقة النازية) الذى حدث لليهود وإدانته لايعنى تجاهل الظلم والعنصرية الصهيونية ضد الفلسطينيين، وإدانته، والكفاح ضده.

إذا سلمنا بكل ما سبق؛ فإن علينا أن نسلم أن نفى الآخر الداخلى عن طريق نفى كل أنواع التعددية، أو الآخر الخارجى، سواء كان إسرائيل أو الغرب، هو فى حقيقته جنوح إلى تصور عدمى للذات، وفقر فى الروح والإدراك، يدفع إلى الشك فى العلاقة مع كل آخر، سواء كان الفلسطينى أو العربى. وتلك فى اعتقادى هى تراجيديا «الأنا» أو «النحن» العربية، وانقيادها للهلاوس، وقابليتها للفصام، والعزلة، ومن ثم الهزيمةوالدمار.

ولاتوجد أدلة «أنصع» من الحالة النازية والسوفيتية فى الماضى القريب – والقياس مع الفارق– وتقدم لنا الصهيونية حالة مشابهة، وإن كانت محدودة النتائج فى نفى الآخر الفلسطينى، وإنتاجها لأكذوبة «وطن بلاشعب وشعب بلا وطن» ، والتى سرعان ما انهارت أمام الانتفاضة الفلسطينية فى الحاضر الآنى، وعلاقة ذلك بتزايد تعبير قوى السلام الإسرائيلية.

وما يعنينا هنا هو الرأى الآخر الذى مازال يشكل ظلال ونتوءات فى واقع الصراع الحالى، وهو مايبدأ فى اعتقادى منذ نهاية المرحلة الأولى فى الصراع، أى منذ قرار التقسيم فى ٢٩ (تشرين ثانى) سنة ١٩٤٧ وحتى نهاية المرحلة الثانية، وبداية المرحلة الثالثة فى مايو (ايار) سنة ١٩٩٦.

ولادة الرأى الآخر:

تشكل الرأى الآخر الذى ينادى بالحل السياسى، وبالحوار مع القوى الإسرائيلية فيما بين الحرب العالمية الثانية وحتى الهزيمة العسكرية الأولى للعرب سنة ١٩٤٩، مروراً بالهزيمة الدبلوماسية والسياسية فى ساحة الجمعية العامة للأمم المتحدة، والتى تمثلت فى صدور قرار التقسيم. وكان أنصار السلام والحوار يطالبون بقبول قرار التقسيم، وعدم اللجوء للحل العسكرى، بل لقد نادى بعضهم بإنهاء الصراع، من أجل التعاون فى تطوير الشرق الأوسط، وتصاعدت تلك الأصوات بعد تلك الهزائم.

وكانت التيارات الرئيسية التى نادت بتلك المطالب تنقسم إلى ثلاث قوى رئيسية:

أولاً: الرأسمالية المصرية وعبر عنها إسماعيل صدقى وأحمد عبود باشا (سأتعرض لموقفه فى مكان آخر من تلك الدراسة) واتحاد الصناعات، وكان إسماعيل باشا صدقى رئيساً للحكومة أثناء انعقاد أول مؤتمر للجامعة العربية خاص بالقضية الفلسطينية فى بلودان بسوريا فى يونيو (حزيران) سنة ١٩٤٦، وكان الوفد المصرى برئاسة د. محمد حسين هيكل، وعضوية النقراشى، وحافظ رمضان، ومكرم عبيد. وقرر المؤتمر العمل السياسى بالتعاون مع بريطانيا من أجل عروبة فلسطين، واتخذت قرارات سرية بدعم المقاومة الفلسطينية بالسلاح والمتطوعين، والتلويح بإلغاء الامتيازات البترولية لكل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وبعد صدور قرار التقسيم طالب إسماعيل صدقى بقبول القرار، والاعتماد على العمل السياسى، وكرر ذلك فى الجلسة الحاسمة يوم ١٢ مايو (ايار) سنة ١٩٤٨ فى اللجنة السرية بمجلس الشيوخ برئاسة محمود الوكيل باشا، ورفض دخول الحرب، وخرج غاضباً من تلك الجلسة، بعد أن هاجمه فؤاد سراج الدين[٣].

وفى يوم دخول الحرب صباح يوم السبت ١٥ مايو (ايار) سنة ١٩٤٨ صدرت جريدة أخبار اليوم، وهى تحمل على صفحاتها مقابلة أجراها مصطفى أمين مع إسماعيل صدقى يحذر فيها من سوء العواقب، نتيجة اللجوء إلى الحرب، ويحذر من عدم الاستعداد الجدى للحرب.

وبجوار الرؤية السياسية الثاقبة عبرت مواقف إسماعيل صدقى عن شجاعة وقدرة على المواجهة.

وبالرغم من أن محمد حسينن هيكل يوضح أن موقف إسماعيل صدقى نابع من حاجته إلى دعم اليهود له في مفاوضاته مع الإنجليز[٤]!! وبالرغم من الكتابات الرسمية والقومية وغيرها من كتابات الرأى الواحد والأوحد والتى أثارت التراب حول موقف إسماعيل صدقى، وتفسيره بمنطق المؤامرة الشهير، والحديث عن علاقات سرية مع اليهود، إلا أن تاريخ إسماعيل صدقى الاقتصادى فيه التفسير المنطقى الكافى، فقد أسس الرجل بنك التسليف الزراعى فى مواجهة بنك الأراضى اليهودى فى أوائل الثلاثينيات وأنقذ الأراضى الزراعية المصرية المرهونة لبنك الأراضى، وهو أحد ثلاثة أسسوا بنك مصر، وهو مؤسس اتحاد الصناعات المصرية، وقام بإنشاء كورنيش الإسكندرية الذى قدم خدمة ضخمة للتجارة والسياحة فى المدينة الثانية فى مصر، وبالتالى كان موقفه فى الصراع العربى الإسرائيلى نابع من خوفه على المشروع الاقتصادى المصرى، وربما كان ذلك هو السبب فى أنه صرح يوماً ما فى تعليقه على فكرة التعاون مع الأقطار العربية: «إنه يفضل أن يكون آخر الدول المتقدمة عن أن يكون أول الدول المتخلفة»[٥]

أما عن علاقته مع دوائر الرأسمالية اليهودية فى مصر، فهى لاتخرج عن السياق المنطقى لرجل أخذ على عاتقه العمل على إحداث تطور رأسمالى فى مصر، وكان من نتائج ذلك أن من أهم رؤوس الأموال التى شاركت فى تأسيس بنك مصر قامت بها عائلات رأسمالية يهودية مصرية، مثل موصيرى وشيكوريل.[٦] وسوارس.*

ومما يجدر ذكره أن إسماعيل باشا صدقى توفى سنة ١٩٥٠ ولم يترك وراءه ما يمكن أن نسميه ثروة بحال، إنه نفس الرجل الذى بدأ حياته السياسية بعضوية التنظيم السرى لثورة ١٩ تحت قيادة عبد الرحمن باشا فهمى، وليس معنى ذلك أن صفحته السياسية كانت بيضاء على الدوام؛ فهو من عطل دستور ٢٣ على سبيل المثال؛ ولكننا نتناول هنا ماله علاقة بموضوع الدراسة.

* نشرة بنك مصر بمناسبة مرور ٥٠ سنة على تأسيسه.

ثانياً: عدة قوى سياسية تنتمى فى أغلبها إلى الطبقة الوسطى وإلى النخب السياسية والثقافية الليبرالية تركز بعضها فى تيارات من حزب الوفد والطليعة الوفدية، وحزب الأحرار الدستوريين، والحزب السعدى، وشخصيات عامة مثل: د. طه حسين، وسيزانبراوى، د. محمد حسين هيكل باشا الذى كانت له اتصالات وحوارات عدة مع الإسرائيليين فى القاهرة وجنيف وعلى رأسهم الياهوساسون وكان موظفاً كبيراً فى الخارجية الإسرائيلية، وأهم المقابلات له فى أواخر سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٤٨ وكان هيكل باشا رئيساً لمجلس الشيوخ آنذاك.[٧]

وكانت تلك القوى هى عماد التيار الذى حذر من الفاشية بعد هزيمة سنة ٤٩، وطالبوا بالتركيز على الاستقلال ودعم الديموقراطية، بل إن منهم مَن دعا إلى إنهاء حالة الحرب، لصناعة مستقبل جديد للمنطقة مثل سلامه موسى.

وينتمى إلى هذا القسم أيضاً محمود فهمى النقراشي، وكان من الرافضين لدخول الحرب، وأعلن ذلك فى اللجنة السياسية لمجلس جامعة الدول العربية التى عقدت فى عاليه بلبنان من ٧ إلى ١٥ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ١٩٤٧، وأفهم زملاءه بصراحة «أن ظروف مصر (خلافها مع بريطانيا حول تعديل المعاهدة) لاتسمح لها بالتدخل العسكرى فى النزاع، ولكنها لن تتأخر عن القيام بسائر واجباتها»[٨]، وظل هذا هو رأى النقراشي عندما كان رئيسا للحكومة، وكان دافعه يتلخص فى: «أن المفاوضات مع الإنجليز تعتمد على قدرة الجيش المصرى على شغل الفراغ بعد الاستقلال، الذى ينشأ عن جلاء الإنجليز، وتلك الحجة سوف تنهار إذا حدث – لاسمح الله (نص كلامه) – أن واجه مشكلة فى فلسطين، كما أن أوضاع الجيش المصرى لم تمكنه من تسليح نفسه، بالإضافة إلى أن خطوط الإمداد تمر بالمعسكرات الإنجليزية وهذا وضع خطير»[٩]. على أن الأسباب التى دعته إلى الموافقة على دخول الحرب بعد تلك الجلسة السرية فى مجلس الشيوخ فى ١٢ مايو (ايار) سنة ١٩٤٨، تظل غامضة، وربما كان ضغط الملك، أو خداع المعلومات الغير دقيقة التى دعم بها الفريق حيدر وزير الحربية واللواء عطا الله اتخاذ قرار الحرب.[١٠]

غير أن النقراشى حمل معه لعنة الرأى الآخر حتى بعد اغتياله بأيدى الإرهاب الفاشى الإخوانى في ٢٨ ديسمبر (كانون أول) سنة ٤٨، حيث ادعوا تغطية لاغتياله ممالأته لليهود بقبوله الهدنة الأولى، ثم اتفاقيات الهدنة، وتجددت تبريرات الإرهاب على لسان مأمون الهضيبى خلال دفاعه عن جرائم الجهاز الخاص للإخوان المسلمين: «إن النقراشى كان عميلاً للإنجليز»[١١]

ثالثاً: تيارات الحركة الشيوعية، ومنها الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى «حدتو» بقيادة هنرى كورييل الارستقراطى اليهودى، ولا ينقص من ذلك أنه كان نفس موقف الاتحاد السوفيتى، حيث إن الموقف هو ما يصنع التاريخ، على حين أن الأسباب تصنع الظلال، وكان لذلك التيار تأثير واسع خاصة بعد هزيمة سنة ٤٩. غير أنه فقد هذا التأثير بعد عزل «حدتو» عن الشيوعية العالمية بسبب تأييدها لانقلاب يوليو (تموز) سنة ٥٢، وبالتالى فقدت تأثيرها على القوى اليسارية والشيوعية فى إسرائيل.[١٢]

نشأة حركات السلام فى مصر:

بعد الهزيمة العسكرية الأولى فى سنة ٤٩ أفرزت التيارات السابقة إطارين للعمل هما:

أولاً: حركة أنصار السلام المصرية: وهى عبارة عن جبهة وطنية شكلت حركة «حدتو» لجنتها التحضيرية فى يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٥١ كفرع لمجلس السلام العالمى، الذى تأسس بناء على نداء استكهولم الذى وجهه فردريك كورى من أجل السلام العالمى.

وكان قد تم تجميع ١٢ ألف توقيع فى مصر على هذا النداء، وتم جمع المزيد عند تأسيس الحركة، وكان السكرتير العام للحركة هو المحامى يوسف حلمى من الحزب الوطنى، وكان فى نفس الوقت رئيس تحرير مجلتها «الكاتب» التى كانت توزع آنذاك ١٢ ألف نسخة، وكان من أعضاء اللجنة التحضيرية كامل باشا البندارى، سيزا نبراوى، عزيز باشا فهمى، د. محمد مندور، إبراهيم طلعت (الطليعة الوفدية)، حفنى محمود باشا عن حزب الأحرار الدستوريين، إحسان عبد القدوس (رئيس تحرير روز

اليوسف)، خالد محمد خالد (المفكر الإسلامى)، الشيخ جابر التميمى عن الإخوان المسلمين،[١٣] ومثل حركة حدتو فى حركة السلام كمال عبد الحليم الذى لعب دوراً هاماً فى التأسيس، ومثل يوسف المدرك اتحاد العمال.

وساعد على تأسيس هذه الحركة المناخ الذى صنعته حكومه الوفد فى سنة ١٩٥٠ عندما حاولت استيعاب ماحدث من هزائم، ولجأت إلى خفض حدة الصراع والتمسك باتفاقيات الهدنة، والانتظام فى اجتماعات لجان الهدنة، وإعادة قضية الاستقلال إلى الصدارة/

وعقد مؤتمر لحركات أنصار الإسلام فى روما فى سبتمبر (ايلول) سنة ٥١، وفى فيينا فى نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٥١، وشاركت وفود من مصر وسوريا ولبنان والعراق والجزائر والمغرب وتونس وإيران، بالإضافة إلى إسرائيل التى تشكلت فيها لجنة فرعية لمجلس السلام، بعضوية إميل حبيبى، وهارون كوهين، ومناحم دورمان[١٤].

وكان قد تحدد للمؤتمر الثالث تاريخ يناير (كانون ثانى) سنة ٥٢ فى القاهرة وتمت دعوة اللجنة الإسرائيلية، إلا أن حريق القاهرة فى ٢٦ يناير (كانون ثانى) سنة ٥٢ وإعلان الأحكام العرفية، منع انعقاد المؤتمر. ومع صعود الفاشية تم القبض على يوسف حلمى وقادة حركة السلام، وحظرت الحركة برمتها، وأغلقت مجلتها«الكاتب».

وقد خرج يوسف حلمى من السجن فى سنة ٥٤ وشرع مرة أخرى فى العمل من أجل السلام، غير أن مياه النهر كانت قد تغيرت، ورغم ذلك وجه رسالة من أجل السلام إلى مؤتمر باندونج، وحضر مؤتمر هلسنكى للسلام وحيدا، بسبب عدم السماح للوفد بالسفر من القاهرة، وكان يعتقد أن قرار التقسيم هو أساس مهم لتسوية القضية، وعودة اللاجئين، وإقامة دولة فلسطينية ديموقراطية، وحق إسرائيل فى الوجود، وكان يرى أن إسرائيل ليست المعتدى الوحيد، وأن الدول العربية غزت إسرائيل سنة ٤٨ بصورة غير عادلة، وفى ١٠ نوفمبر (تشرين ثان) سنة ٥٥ وجه نداء إلى الرئيس عبد الناصر، ونداء إلى الشعب الإسرائيلى، دعا فيها إلى مؤتمر دولى للسلام فى الشرق

الأوسط، وتوفى يوسف حلمى فى أوائل الستينيات. وكان يوسف حلمى شخصية فريدة وثرية، كان حافظاً لأغانى سيد درويش، وكانت له علاقة قوية باليسار، رغم أنه كان منتمياً لحزب أبعد مايكون عن اليسار وهو الحزب الوطنى. وقيل إنه عندما أفرج عبد الناصر عن الإخوان المسلمين، واتهمته جهات عدة باعتقال الكثير من السياسيين قال عبد الناصر فى سنة ٥٤: «إنه لايوجد فى السجون سوى عملاء دولة أجنبية»، وأرسل له يوسف حلمى آنذاك برقية قال له فيها «نعم نحن عملاء لدولة أجنبية لاتعرفها أنت اسمها مصر».

وقال عنه صلاح جاهين.[١٥]

الأستاذ يوسف حلمى ..!

أهلا عمى*

....

ثانيا: مجموعة روما: تسببت الحرب والهزيمة، على حد سواء، فى تقدم القوى الفاشية إلى صدارة الشارع السياسى فى مصر، مثلما تقدمت النازية إلى الصدارة فى ألمانيا، نتيجة الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى، ونتيجة اتفاقيات السلام المهينة- والقياس مع الفارق- وتسبب ذلك فى تصاعد نبرة العداء ضد اليهود، ونتج عن ذلك هجرة العديد منهم إلى باريس خاصة، بعد تفجيرات الإخوان المسلمين ومصر الفتاة فى الممتلكات اليهودية والأجنبية أيضاً، وكان أول من هاجر من قادة الحركة الشيوعية هو يوسف حزان سنة ٤٩، ثم هنرى كورييل الذى طُرد من مصر فى سنة ٥٠، وقام هؤلاء بتشكيل ما سمى بمجموعة روما التى قامت بالوساطة والحوار مع اليسار الإسرائيلى، مثل المابام وماكى واحدوت هاعفودا[١٦]، ويمكن اعتبار مجموعة روما فى باريس هى أحد امتدادات «حدتو» أو أحد مناطقها حتى سنة ٥٨، وبعد عدوان ٥٦ تشكلت اللجنة المصرية الإسرائيلية للسلام برعاية جماعة روما، ولكن لم ينتج عنها تأثير يذكر، ذلك أن المناخ العام لم يكن يسمح بأى نوع من النشاط السياسى والفكرى الحر، كما أن جمهورية يوليو العسكرية كانت قد تدعمت أركانها وتمرست بوسائل احتواء كل نشاط سياسى وفكرى «مدنى». وانحصر نشاط حركات السلام بعد ذلك

* باقى القصيدة فى الهامش.

فى بعض الوساطات الرسمية السرية بين عبد الناصر عن طريق بعض مبعوثيه، وبين شخصيات إسرائيلية، وكانت دوافعها هى استقصاء الآراء أكثر منها تحقيق هدف السلام، وكانت مجموعة روما قد أعلنت عن حل نفسها فى مايو (ايار) سنة ١٩٥٨.

وعندما تجددت الاتصالات بعد كارثة يونيو (حزيران) سنة ٦٧ بطلب من عبد الناصر بواسطة خالد محيى الدين، مع يورى أفنيرى فى بلغاريا، فشلت تماماً، نتيجة لتغير قواعد اللعبة جذرياً.[١٧]

وقام هنرى كورييل بعد ذلك بتأسيس لجان للتضامن مع الشعب الجزائرى قبل الاستقلال فى فرنسا واوروبا وإسرائيل، ومما يجدر ذكره أن السفارة الجزائرية فى القاهرة هى منزله فى الأصل، بعد أن تنازل عنه للحكومة الجزائرية بعد الاستقلال، واغتيل فى باريس ١٩٨٧ فى ظروف غامضة بإطلاق الرصاص عليه أمام باب منزله، ولكن السبب يكمن بالتأكيد فى نشاطه السياسى.

تلاشى الدعوة إلى السلام:

بعد التفكك الذى اعترى إطار حركة السلام، ومجموعة روما، ووفاة يوسف حلمى؛ أصبحت فكرة السلام والحوار أقرب إلى المغامرة المحفوفة بالمخاطر. ويدلل على ذلك ماحدث لفكرى أباظة رئيس تحرير جريدة المصور عندما كتب مقالا بعنوان «الحاله جيم» سنة ١٩٦١ وطالب فيه بتحييد الدول العربية وإنشاء رابطة أوسطية تشمل إسرائيل وفلسطين (يلاحظ أنه سبق فكرة شيمون بيريز بـ ٣٢ سنة) غير أن ذلك المقال تسبب فيما يشبه الموت المدنى لفكرى أباظة، ومنع من الكتابة لأربعة شهور بل إنه منع من دخول دار الهلال، حيث مقر مجلة المصور، إلى أن كتب بعد ذلك اعتذاراً فى جريدة الأهرام، موجها إلى عبد الناصر، تحت عنوان لايخلو من إلغاز «الصراع بين ضميرى وقلمى» وكان بمثابة الذهاب إلى «كانوسا»، وكان أيضاً بمثابة العبرة لمن يعتبر.

وقد صدر الرأى الآخر فى بعض الأحيان ممن هم فى موقع السلطة، ومن هؤلاء الرئيس التونسى الحبيب بورقيبه الذى أعلن فى شهر نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٦٤ أن

قبول قرار التقسيم يمكن أن يحرج إسرائيل، ويصلح كبداية لتسوية سلمية للصراع، ثم ذهب إلى مدينة أريحا فى الضفة الغربية يوم ٣ مارس (اذار) سنة ٦٥ ، وطالب بالتفاوض مع إسرائيل، وكان فى زيارة رسمية للقاهرة قبلها بيوم واحد، ولكن الهجوم الرسمى والدعائى على الرئيس بورقيبه ونوعية الاتهامات العامة والشخصية، بما فيها تجريح الشرف الشخصى، وتدبير «مسيرات جماهيرية» فى أكثر من بلد عربى أمام سفارات تونس، أثبت أنه لاتوجد حصانة من أى نوع، لمن يحمل الرأى الآخر، مهما كان موقعه.

وكان ذلك إيذاناً بمرحلة الاختفاء الكامل، أو البيات الشتوى الطويل للرأى الآخر، والإغلاق التام للأعين والآذان والأفواه، وسيادة مرحلة «الحيطان لها ودان»، التى هيأت الساحة لوقوع الكارثة الاستراتيجية والحضارية فى سنة ١٩٦٧ .

الصحوة الثانية للرأى الآخر:

بعد حرب أكتوبر إثر اتفاقيات فصل القوات، ومؤتمر جنيف؛ تصاعدت من جديد أصوات أنصار السلام، بدأت بهمس خافت ثم ازدادت وضوحاً بمرور الوقت، وتسامح نظام الحكم مع هذه الأصوات، وسمح لها بالتعبير فى بعض وسائل الإعلام «القومية»، وكان من الواضح أن السادات قد اتجه إلى الحل «المنفرد» -كما سمى آنذاك- فى النصف الثانى من السبعينيات، ومن الواضح أيضاً أنه تسامح مع أصوات النقد الموجه إلى الفترة الناصرية، واستعمل كل تلك الأصوات فى التمهيد لاتفاقيات السلام، ومع التجاهل التام لأصوات الدعوة إلى الديموقراطية التى تبناها أنصار السلام وغيرهم من القوى الديموقراطية، وكان البعض يرى أن الحل السلمى هو مدخل إلى الديموقراطية الكاملة؛ غير أنه، كما هو معروف، قطع أشواطاً فى الطريق إلى الحل السلمى أسرع وأبعد بكثير عن الخطوات فى اتجاه التعددية، والتى انتهت إلى نوع من التعددية الغير ديموقراطية، التى مازالت تحكم الحياة السياسية فى مصر إلى الآن، وحتى أشعار آخر.

وفى هذا السياق كتب إحسان عبد القدرس مجموعة قصص فى سلسلة فى جريدة أخبار اليوم الأسبوعية، أذكر أن إحداها فد تضمنت قيام أحد الضباط «الأحرار» بعمل تجارى مشترك، مع مصرية مهاجرة إلى أوروبا تبين بعد ذلك أنها يهودية، لكنه استمر فى الشراكة معها. وفى نفس الفترة كتب عبد الله الطوخى وعبد الستار الطويلة فى نفس الاتجاه فى مجلات مؤسسة روز اليوسف.

و كان صدور كتاب «بعد أن تسكت المدافع» لمحمد سيد أحمد علامة بارزة على طريق الدعوة إلى الحل السلمى، وتعرض للكثير من النقد، والأكثر من التجريح، وكانت له صلات قديمة بمجموعة روما فى باريس بحكم انتمائه السابق إلى حركة حدتو.

وفى مقابلة مع جريدة القبس الكويتية خلال سنة ٧٥؛ تحدث نجيب محفوظ بصراحة عن حل سلمى تفاوضى.

وكان د. لويس عوض خلال نفس الفترة دائم الحديث عن ثقافة جديدة تؤسس للسلام والديموقراطية فى جلساته بأتيليه القاهرة.

وعلى نفس المنوال كان توفيق الحكيم ود. حسين فوزى الذى قام بزيارة إسرائيل سنة ٨٠ وألقى هناك مجموعة من المحاضرات عن دور الثقافة فى صناعة السلام.

وكان من الواضح أن المرحلة الجديدة، أو الصحوة الثانية للرأى الآخر حمل لواءها نفس الفرسان القدامى، أى الأجيال الأكبر سنا. حيث كانت الحركة الطلابية واليسار الجديد، بالإضافة إلى جماعات الإسلام السياسى العائدة بقوة؛ كانوا جميعهم يطالبون بالحرب، والرجوع عن طريق الحل السياسى.

وكان ذلك دليلاً واضحاً على الخصام ما بين الثقافة الحرة قبل انقلاب يوليو سنة ٥٢، التى وضعت الديموقراطية أعلى سلم الأولويات، ووجدت فى السلام المدخل الممكن إليها وإلى التنمية؛ وبين ثقافة الرأى الواحد ذى النزعة العسكرية الذى ساد بعد تأسيس جمهورية يوليو العسكرية.

الواقع الحالى للرأى الآخر فى الساحة العربية:

كشف الرأى الآخر العربى فى الصراع مع إسرائيل عن إمكانيات كامنة تبدت فى القدرة على العودة بحيوية وتقديم التضحيات بكل أنواعها، بعد أن تحمل الهجوم بكل أنواعه وبكل الوسائل، بما فيها الاغتيال الدموى والمدنى على حد سواء، وتعمد طريقه بالدم عندما اغتيل سعيد حمامى فى لندن سنة ٧٧، وعصام سرطاوى فى ٢١ إبريل (نيسان) سنة ٨٣ فى لشبونه، أثناء انعقاد مؤتمر الاشتراكية الدولية. كما أن أنصار السلام كشفوا عن وجودهم فى كل العالم العربى تقريباً فى مناسبات عدة خلال عامى ٩٥ . ٩٦ وخاصة على صفحات جريدة الحياة اللندنية والأهرام القاهرية ومنها: – واقعة فصل أدونيس وهشام الدجانى ود. هانى الراهب من اتحاد الكتاب السوريين. الأول بسبب كلمة ألقاها فى مؤتمر ثقافى فى غرناطة باسبانيا سنة ٩٣ عن دور للثقافة العبرية فى ثقافة المنطقة، والثانى عبر فى عديد من كتاباته فى جريدة الحياة عن الوهم فى الصراع العربى الإسرائيلى، وضرورة الحوار مع أنصار السلام فى إسرائيل، وثالثهم كشف الزيف فى المفاهيم العربية عن إسرائيل فى مقالة شهيرة بمجلة العربى الكويتية فى مارس (اذار) سنة ٩٥. وتضامن معهم بالاستقالة من الاتحاد كل من سعد الله ونوس والروائي حنامينه، د. كمال أبوديب الناقد الأدبى، والعديد من الكتاب والمفكرين فى سوريا.

ورافق تلك الواقعة مساجلات حادة على صفحات جريدة الحياة فى أوائل سنة ٩٥ بين المعسكرين، كشفت عن حجم مؤثر لأنصار الحوار ومنها:

● السجال الذى دار بين المخرجة السينمائية الإسرائيلية سيمون بيتون، وبين الكاتب حازم صاغية على صفحات جريدة الحياة، حول زيارة الكاتب المسرحى على سالم ووفد من الكتاب والفنانين العرب إلى إسرائيل، وكان من بينهم المخرج السينمائى التونسى رضا الباهى، وكان ذلك فى أوائل سنة ٩٥ أيضاً، والطريف أنها كانت معترضة على الزيارة.

● المساجلة بين نجيب محفوظ والشاعر نزار قبانى فى مجلة روز اليوسف حول قصيدة

«المهرولون» فى نهاية سنة ٩٥.

● مجموعة الحوارات التى أجراها عبد القادر الجنابى على صفحات جريدة الحياة مع كتاب وشعراء إسرائيليين خلال سنة ٩٥، سنة ٩٦ ومنهم الشاعر ناتان زاخ، والشاعر رونى سوميخ، والروائى شمعون بلاص، وهم من اليهود العراقيى الأصل.

● مقالات متعددة لكتاب إسرائيليين على صفحات جريدة الحياة أذكر منهم: الروائيان: أليف بيت يهوشواع، وعاموس عوز و الكتاب: إيهود يعارى، وعمانوئيل سيفان، وارى كارمون.

● سلسلة ضخمة من المقالات والمساجلات التى دارت حول الحوار وآفاق السلام والتطبيع، على صفحات جريدة الحياة والأهرام، برز فيها من أنصار الحوار أسماء:

حازم صاغية، محمد سيد أحمد، د. سعد الدين إبراهيم، د. أدوارد سعيد، لطفى الخولى. د. عبد المنعم سعيد، د. محمد السيد السعيد، ربعى المدهون، صالح بشير، د.أسامة الغزالى حرب، د. محمد الرميحى، هشام الدجانى.

وبصرف النظر عن التنوع والاختلاف فى الشروط والتحفظات، فقد كشفت تلك الكتابات عن اتساع جبهة حملة الرأى الآخر.

● وفى حلقة بارزة من تلك السلسلة دارت مجموعة ضخمة من الحوارات مختلفة الحدة فى صفحة الحوار القومى فى جريدة الأهرام والتى يشرف عليها لطفى الخولى، ودار قسم كبير منها حول مقالات لكتاب إسرائيليين أولهم د. يوسى اميتاى (متخصص فى تاريخ اليسار المصرى، وأحد مؤسسى القائمة اليهودية العربية للسلام، وهو مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلى فى القاهرة حالياً) وكتب خلال النصف الأخير من سنه ٩٥، وزئيف ماعوز (رئيس مركز جافى للدراسات الاستراتيجية) فى ٢٧ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٩٦، وشلومو بن عامى (أكاديمى وعضو الكنيست وأحد قيادات حزب العمل وهو من اليهود العرب) فى ٢٨ ديسمبر (كانون اول) سنة ٩٦.

وهكذا يمكن القول دون مبالغة إن الرأى الآخر فى الصراع العربى الإسرائيلى قد تمكن برغم كل شيء من أن يعبر عن نفسه، وقد أصبحت له قسمات، وأدبيات

نجحت فى تقديم رؤية نقدية، ولفتت الأنظار إلى وسائل أخرى فى إدارة الصراع، وأهم من كل ذلك، أنها عبرت عن طاقة غضب من نتائج إدارة الصراع بواسطة الرأى الواحد، وظله الرأى السائد، لكن يجدر القول إنه لم يقدم برنامج عمل واضح، ولم يبلور نسقاً معرفياً مرافقاً لرؤاه، ولم يرسخ علاقة موضوعية مع تراث وأدبيات إنصار السلام، منذ بدايات الصراع.

□□□

الفصل الثالث

أزمة الراى الواحد

ينتمى إلى معسكر الرأى الواحد كل من وافق على إدارة الصراع العربى الإسرائيلى بالطريقة التى تم بها؛ أى حصر الصراع فى حدود الحسم العسكرى، ويرى أنه لاسبيل لقبول إسرائيل فى المنطقة، وأيضا الرافضون للحوار، وللعملية السلمية بدءا من كامب ديڤيد وحتى اتفاق الخليل، وسواء فى ذلك دعاة الرفض الكامل أو الرفض بشروط مثالية تتجاهل نتائج الصراع وتعتقد أن الوضع الراهن هو وضع مؤقت أو هدنة، وأنه يجب العمل على أن تستنفر الأمة العربية أو الإسلامية أو كلاهما معاً، وأن يتضامن العرب وأن «يحشدوا طاقاتهم»، إلى أن يأتى المستبد العادل (لم يأت حتى الآن سوى مستبدين) يفعل المحال. ويعدل الحال، وساعتها سيكون لكل حادث حديث.

وقد اعتمدت فى رصد هذا المعسكر على استخلاص المشترك فى مجموعة تعليقات ومقالات فى جريدة الحياة والأهرام، وبيان استنكار من المثقفين العرب قيل إن عددهم ٢٥٠ (الأهالى القاهرية فى ٢٩ يناير (كانون ثانى)، ٥، ١٩، ٢٦ فبراير (شباط) سنة ٩٧) وكانت البيانات والتعليقات والمقالات تتناول إعلان كوبنهاجن بالمضامين والمشتركات التى سبق ذكرها. وقد برز من هذا المعسكر:

صلاح الدين حافظ، سعد الدين وهبه، فهمى هويدى، د. محمد جابر الأنصارى، د. سيد ياسين، عبد الإله بلقزيز، محمد خالد الأزعر، أحمد أصفهانى، د. عبد العظيم أنيس ، د. حسن نافعة،خالد الحروب، إبراهيم غرايبة.

وأبرز العوامل المشتركة التى وردت فى كتاباتهم هى:

أولاً: الحق التاريخى للعرب الذى يفرض حلا تاريخيا حاسما للصراع، وهذا العامل يتدرج بدءاً من رحيل الإسرائيليين الكامل (لا أحد يقول إلى أين؟) وينتهى إلى الانسحاب الكامل غير المشروط من كل الأراضى العربية والفلسطينية، طبقاً لقرار التقسيم (هذا لمن قبل منهم قرار التقسيم) مع نزع سلاح إسرائيل النووى، وإلغاء كافة المعاهدات المقيدة للأطراف العربية.

ثانياً: الخلل الفادح فى موازين القوى لصالح إسرائيل يجعل الحوار والتفاوض حول الحل السلمى فى غير صالح العرب، وبالتالى يجب إيقاف الحوار والتفاوض.

ثالثاً: إسرائيل أقرب إلى أن تكون منظمة، وأبعد عن أن تكون مجتمعاً، وبالتالى فالقوى السياسية الانتخابية، وعلى رأسها الليكود والعمل ذات هدف واحد، وغير مختلفة فيما بينها، وما يقال عن قوى السلام هو من قبيل توزيع الأدوار.

رابعاً: أن الحوار بين قوى السلام على الجانبين هو تطبيع، وهو غاية إسرائيل القصوى، ووسيلتها فى ابتلاع المنطقة، وهو الخندق الأخير للعرب، وأن أغلى حلقة فى سلسلة التطبيع، هى التطبيع مع المثقفين.

خامساً: وظيفة المثقف هى حراسة «ذاكرة الأمة» والدفاع عن مصالحها القومية.

سادساً: العدوان والمجازر الإسرائيلية وآخرها قانا وسوق الخليل تجعل بجوار الحق التاريخى ثأراً تاريخياً لايبرد.

سابعاً: أن الخروج على المفاهيم السابقة هو خروج على الصف الوطنى، والإجماع القومى، وثوابت الأمة، وأساسيات المجتمع، واختراق لجدار الإرادة العربية، وتفريط في الحقوق التاريخية، ووقوع فى الغواية الصهيونية، وخضوع لمصالح شخصية سرية، والعقوبة المؤقتة هى النبذ من الجماهير و «جموع» المثقفين فى حدها الأدنى، والتخوين والتكفير فى حدها الأقصى.

وللوهلة الأولى يبدو أننا أمام أيدلوجية متماسكة، ذات بعد تاريخى، وبرنامج عمل، وقوى تضع البرنامج موضع التنفيذ، وفوق كل ذلك لها دفاعاتها الزجرية للمخالفين، ويزيد من أهميتها أن أغلب تلك العوامل هى نتاج العقل الرسمى فى أغلب مراحل الصراع، ولانبالغ إذا ذكرنا أنها المفاهيم السائدة عن الصراع حتى الآن، والتى عبرت عن نفسها أدق تعبير فى لاءات الخرطوم الثلاث الشهيرة، وشعار «ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة».

غير أن كل ذلك يتداعى عند توجيه أول سؤال نقدى، وحتى لانكون فى موضع التجنى علينا أن نناقش تلك العوامل:

أولا: الحق التاريخى بين الفولكلور والواقع:

فكرة الحق التاريخى هى فكرة صحيحة، اعتماداً على التاريخ الموثق، والقريب، ولكنها مشروعية فى حالة نظرية وخام، أى أنها على هذه الصورة تظل فى منطقة التجريد، وهى إما أن تتحول إلى حقيقة تفصيلية فى الواقع عبر مهام عقلية كفاحية، وإما أن تتحول إلى منطقة الفولكلور والمشاعر الجماعية غير المنتجة، المفعمة بالشجن والحنين والبكائيات، وذات المظاهر الطوطمية، وخير مثال على الحالة الأولى دولة «جنوب افريقيا»، وخير مثال على الحالة الثانية هى حالة الهنود الحمر فى الولايات المتحدة وكندا. والراصد للوضع العربى يمكن أن يستشف الاتجاه الذى نسير إليه.

كما أنه لايجب أن ننسى أن الصهيونية أسست مشروعيتها على الحق التاريخى أيضاً، ولكن اعتماداً على تاريخ ضبابى غير موثق. وأقرب إلى الأسطورة والفكر الدينى، ولكنها انتهت إلى الواقع وبوسائل عقلية، أى أنهم بدءوا من الأسطورة وانتهوا إلى الواقع، فى حين بدأنا نحن من الواقع وانتهينا إلى الفكر الأسطورى.

ثانيا: الإجابة على أسئلة غير مطروحة:

الخلل فى موازين القوى لصالح إسرائيل هو إجابة على سؤال غير مطروح أصلاً، إذ أن السؤال الأصلى هو: من هو المسئول عن هذا الخلل؟ وأعتقد أنه تكرار لبديهية؛ أن الخلل نتج عن إدارة الصراع بنفس هذه المفاهيم لخمسة عقود، وبالتالى فهذا

المفهوم يحاول عبثاً فصل الأسباب عن النتائج. كما أن مصطلح ميزان القوى يتم استعماله فى معناه المبتسر السطحى، باعتبار أن ميزان القوى هو مفهوم عسكرى؛ فى حين أن ميزان القوى هو مفهوم استراتيجى اقتصادى وعسكرى وعلمى وثقافى، ويتضمن جانباً من الأوضاع الاقليمية والدولية.

ثالثاً: إسرائيل «المنظمة» وفكرة توزيع الأدوار:

وهذا المفهوم هو أكثر العوامل كشفاً لنظرية المؤامرة كطريقة تفكير نتجت عن غياب الإنساق المعرفية فى الصراع، فضلاً عن المصادر المعرفية، وهذه نتيجة منطقية لمرحله التعبئة كاستهلاك محلى، وبالتالى كانت الحاجة إلى العدو فى ذاته؛ بل يلفه الغموض وليس التركيز عليه لما يشكله من خطر.

ونظرة أولية إلى تركيب المجتمع الإسرائيلى، والذى هو فى الأصل مجتمع مهاجرين فى أغلبه، وفيه ما يقرب من مليون فلسطينى بينهم: مسيحيون ودروز وسريان وسامريون وشيعة وسنة وبوسنيون (منحت إسرائيل الجنسية إلى ألف بوسنى مسلم أثناء أحداث البوسنة) وشركس وأرمن وأعراق من كل نوع. سلاف وأفارقه واريون وآسيويون، ويهود عرب وشرقيون ويهود اشكيناز. وينقسم اليهود بدورهم إلى قرائين وإصلاحيين وأرثوذوكس، بالإضافة إلى مسيحيين صهاينة من طائفة المورمون، وهم مستوطنون من أمريكا ومن أتباع جولد سميث. ناهيك عن التقسيم السياسى بين يمين ويسار وبين متدينين وعلمانيين، وكل ذلك التعدد والتنوع المفتوح والشفاف لابد أن ينتج عنه بالضرورة تعدد ثقافى وسياسى فسيفسائى، ويؤدى بالضرورة فى أحوال كثيرة إلى الازدواج الثقافى، بالتالى لايمكن أن نتخيل بعد ذلك أن تجمعهم صيغة واحدة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، وفى مجتمع محكوم بصيغة ليبرالية سياسية ، فضلا عن توزيع الأدوار، ومع اعتراف جهات إسرائيلية عدة بفشل صيغة Melting pot أو بوتقة الصهر كاستراتيجية ثقافية للدولة العبرية.(١٨)

وإذا كان ثمة توحد جمع كل تلك الفسيفساء فهو إنشاء الدولة ونجاح المشروع الصهيونى!، وإذا كان ثمة عامل توحد أكبر وصار أكثر فاعلية بحكم طول الزمن، فهو

الخطر الذى اصطنعته الفاشية العربية فى شكل مثالى على حين أنه كان مجرد خطر إذاعى.

كما أن هذه الفكرة عن إسرائيل المنظمة والمعسكر ليست منقطعة الصلة عن السياسات العربية الرسمية، ولا عن الفكر الفاشي،(١٩) بل هى امتداد تبريرى للتصور الفاشي للمجتمعات العربية، باعتبارها معسكرات تجميع أو طابور أنفار أو رعايا فى أفضل التصورات، كما أن هذه الفكرة تؤكد حصر الصراع داخل المنظور العسكرى والأمنى.

رابعاً: التطبيع .. قدس أقداس الوعى الزائف:

وردت عبارة علاقات عادية أو طبيعية Normalrelation فى الفقرة الأخيرة من الوثيقة الثانية من اتفاقيات كامب ديفيد الموقعة فى ١٧ سبتمبر (ايلول) سنة ٧٨. كما وردت فى الملحق الثالث وفى البروتوكول بشأن علاقات مصر وإسرائيل فى معاهدة السلام الموقعة فى ٢٦ مارس (اذار) سنة ٧٩. وكان المقصود هو إنهاء حالة المقاطعة، التى انتهت بقرار رسمى بقانون فى فبراير (شباط) ١٩٨٠، وكانت المقاطعة يحكمها القانون ٥٠٦ الصادر فى سنة ١٩٥٥ وتشمل كل أوجه العلاقات ، وبشكل جامع مانع.

بعد ذلك ترددت تلك الكلمة «تطبيع» المسكوكة على شكل اتهام سريع وحاسم، وفى نفس الوقت ملتبس وغامض، وليس له معنى محدد، ومنقطع الصلة بالعبارة الأصلية من حيث مناسبات استعماله وانتقائيته الشديدة، فليس لها تطبيق محدد، ولا تصنيف يحدد ما تنطبق وما لاتنطبق عليه. وهى بالقطع لم تطبق على السياسيين، والدبلوماسيين، والعسكريين ولا على رجال الأعمال والبنوك، وعندما كان الرئيس السادات يعتبر زيارة إسرائيل رصيدا سياسياً؛ سافر معه وبعده عدد من الصحفيين ورؤساء التحرير، ورجال الثقافة والفن، ولم توجه لأحد منهم الكلمة/ الاتهام.

وعندما تغير الموقف، واعتبر الرئيس مبارك زيارة إسرائيل ورقة سياسية؛ امتنعوا عن زيارة إسرائيل، وبدأ شيوع الكلمة / الاتهام ، ولكن أيضاً بنسبية شديدة، فهى لم توجه

إلى صلاح منتصر (زار اسرائيل سنة ٩٦، سنة ٩٧ وأعلن هذا) ولا إلى عبد الستار الطويلة (أعلن أنه زار إسرائيل مايزيد عن عشرين مرة فى نقابة الصحفيين) وقبلهم مكرم محمد أحمد (نقيب الصحفيين الحالى) وعادل حمودة وغيرهم. لكنها أطلقت على على سالم والمطرب مدحت صالح والمخرج السينمائي حسام الدين مصطفى، وأعتقد أن السبب هو أن أفراد المجموعة الأخيرة ليسوا من الصحفيين، وبالتالى ليست لهم أنياب صحفية ترد الصاع صاعين، وبالتالى فهم أهداف سهلة.

وفى شهر أكتوبر (تشرين اول) سنة ٩٧ تم توجيه إنذار بالتحقيق من نقابة الصحفيين لأول مرة في موضوع التطبيع إلى لطفى الخولى ود. عبد المنعم سعيد، وها نحن فى أول ابريل (نيسان) سنة ٩٨ ولم يتم التحقيق معهما، مما جعلهما يلجئان إلى القضاء فى تطور وسجال جديد شمل جبهة واسعة من صراع المفاهيم حول حق النقابة فى صياغة الرأى السياسى، وحدود تصرف النقابة، وإعادة تعريف للمهنة، ولم يخل السجال من العيوب «التقليدية» مثل التجريح والتجريس، كى يثبت كل ذلك مرة أخرى أن الأزمة هى أزمة عقل وفكر ونخبة، قبل أن تكون خلافاً حول الموقف من الحواروالسلام.

وإذا تناولنا الجوانب الأخرى من قضية «التطبيع» أو بمعنى أدق العلاقات بين مصر وإسرائيل سنجد الآتى:

●عدد الليالى السياحية الإسرائيلية فى مصر خلال عام ٩٦ فقط هو ١,٥ مليون ليلة تقريباً، وعدد السياح الإسرائيليين ٣٢١ ألف سائح، وتأتى إسرائيل الدولة الرابعة سياحيا فى مصر قبل فرنسا، وقبل أى بلد عربى.[٢٠]

●عدد الشباب المصرى الذى يعمل فى إسرائيل سنوياً يتراوح بين ١٠ آلاف إلى ٢٠ ألف (لابد من توضيح أن كل الأرقام فى هذه الفقرة تقديرية وليست مؤكدة)، وهم يعملون بشكل موسمى؛ أى أنهم يتغيرون باستمرار. وقد أفادت مذكرة تلقتها وزارة الخارجية المصرية من شعبة شركات العمالة المصرية فى الخارج، والتابعة لاتحاد الغرف

التجارية أن عدد الشباب الذين توجهوا للعمل فى إسرائيل سنة ٩٥ فقط، وصل إلى ١٤ ألف شاب.(٢١)

ومعنى ذلك أن عدد من خاض تجربة العمل فى إسرائيل خلال ٨ أعوام يتراوح ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف تقريباً، دخل جزء كبير منهم عبر الأردن، أو عن طريق وكالات تشغيل.

● عدد الزيجات المختلطة ما بين شاب مصرى وفتيات إسرائيليات ١٠٣٩ حالة فى نهاية ٩٦.(٢٢)

● إسرائيل مستورد رئيسى للبترول المصرى وهو يمثل ٣٠٪ من مجموع استهلاكها البترولي، وتشارك فى العديد من المشاريع فى مصر وأهمها حصة ٢٠٪ من مجمع البتروكيماويات فى الإسكندرية بتكلفة كلية ١,٢ مليار دولار وتتنافس كل من مصر وقطر على توريد الغاز الطبيعي إلى إسرائيل.

● تخرج ٦٠٠ باحث مصرى وتدربوا فى إسرائيل فى المجالات الزراعية والكيمياء الحيوية حتى نهاية سنة ٩٦.

● تستورد مصر الفواكه والملابس والأدوات الصحية والسيراميك والمبيدات والبذور والتكنولوجيا والمعلومات فى مجالات الزراعة والثروة الحيوانية والصناعات الزراعية.

● يوجد اتفاق تجارى واقتصادى ينظم العلاقات بين مصر وإسرائيل بدا سريانه فى مايو (ايار) سنة ٨١ ويقضى بتطبيق شروط الدولة الأولى بالرعاية(٢٣) وليس من المهم هنا تحديد حجم تلك المعاملات واقتصادياتها، فهى بالتأكيد، ونتيجة ضعف الاقتصاد المصرى لصالح إسرائيل بحساب الميزان التجارى وليست كبيرة، ولكننا هنا نتحدث عن الجانب السياسى والقانونى، مع العلم أننا لو أضفنا البترول المصرى إلى التعاملات الاقتصادية بين البلدين، فستتجاوز القيمة كل معاملات مصر الاقتصادية العربية.

● من اللافت للانتباه أن صادرات مصر إلى إسرائيل بما فيها من صادرات البترول زادت في سنة ٩٦، ٩٧ عن كل السنوات السابقة وهى فترة حكم نتنياهو، وبلغت

في السنتين على التوالى ١١١٦,٨٤ ، ١٠٦٨,١ مليون دولار* كما قفزت الواردات على التوالي في نفس السنتين إلى ١٢٤,٢٧ و ١٤٢,٢٦ مليون دولار وحتوهى نفسها فترة التوتر السياسي بين مصر واسرائيل وهذا يخفي ورائه معامل جديد في تلك العلاقة وهو عدم تأثر الاقتصاد بالسياسة بينما الارتباط وثيق بين الدعاية والدبلوماسية والسياسة.

● طوال ٢٥ سنة منذ حرب أكتوبر لم يحدث صدام مسلح أو تهديد باستعمال القوة بين مصر و «جارتها» إسرائيل، فى حين أنه حدث مع جارتيها العربيتين ليبيا والسودان (نحن هنا لسنا بصدد تقييم الأسباب).

● ينتشر الخبراء الإسرائيليون فى المعامل والمزارع فى مناطق عدة فى مصر، ولهم ثلاث مزارع ضخمة – في العامرية والمنوفية وطريق القاهرة – الإسكندرية الصحراوي.

● تطير طائرات شركة مصر للطيران إلى إسرائيل فى رحلات منتظمة تحت اسم «ايرسينا» ونفس الشئ تقوم به شركة «العال» الإسرائيلية.

● توجد شركة أتوبيس للنقل البرى بين البلدين، ويدخل الإسرائيليون إلى مناطق واسعة من سيناء بدون فيزا، وهو ما لاتتمتع به العديد من الجنسيات العربية.

● لإسرائيل مركز أكاديمى يتردد عليه الطلاب والباحثون فى القاهرة منذ سنة ٨٢، ولايقل عدد البحوث والدراسات المشتركة فى غير المجالات السياسية عن ٢٥٠٠ بحثا ودراسة حتى نهاية سنة ٩٦، وهو مايزيد عن الحصيلة العلمية والأكاديمية والثقافية لإسرائيل عن مصر(٢٤).

● تنتشر شرائط الكاسيت للأغانى الإسرائيلية داخل مصر، وأشهرها لمغنية اسمها عزيزة سلطان، وأعتقد أن اسمها الأصلى دانا انترناشيونال.

● الترتيبات العسكرية الأمنية فى سيناء والمياه الإقليمية حولها وفى غرب القناة تعطى لإسرائيل عمقاً استراتيجيا حاسماً، طبقاً لاتفاقيات السلام.

---

* صادرات وواردات مصر سنة ١٩٩٦ – ١٩٩٧ وزارة التجارة. القاهرة . فبراير (شباط) ١٩٩٨ ، عن رفعت سيد أحمد. الحياة ١٩٩٨/١٠/٢٣ .

● لإسرائيل سفارة فى القاهرة وقنصلية فى الإسكندرية، ولمصر سفارة فى تل أبيب وقنصلية فى ايلات.

وهكذا لم يتبق لتطبيق الكلمة/ الاتهام سوى المجال الثقافى، ومجال المعلومات والوثائق، أى مجال المعرفة والإبداع.

وقبل أن نتوغل فى تحليل قضية التطبيع اعتذر للقارئ عن الإطالة، وعذرى يكمن فى أهمية الموضوع وجسامته. وقبل ذلك أيضاً أضيف بعداً آخر أعتقد أنه هام، وهو رأى نتنياهو فى المثقفين والكتاب الإسرائيليين: « .. تحولت الرغبة فى التخلص من المناطق (يقصد الضفة والقطاع) إلى مايشبه إحدى المسلمات لدى الأشخاص المفكرين الأخلاقيين والمثقفين لايجوز معارضتها، ولتحقيق هذا الهدف (الانسحاب من الأراضى الفلسطينية) تجند عدد من الكتاب، المسرحيين، والمحاضرين، والصحفيين المعروفين فى الدولة، وفى سبيل ذلك كانوا على استعداد لتجاهل كافة المؤشرات الإنذارية التى تؤكد أن منظمة التحرير وشركاءها لم يتنازلوا قيد أملة عن خطتهم لابادة إسرائيل ...»[٢٥]، إنه الحب المفقود بين الفاشية وبين الثقافة، وهو نفسه موقف النازية[٢٦] من المثقفين الأحرار حين بدأت بحرق الكتب فى سنة ٣٣، وبعدها هاجر توماس مان وفالتر بنيامين واناسيريل وحنة ارندت والبرت اينشتاين والعديد من مثقفى وكتاب ألمانيا، وهو نفسه موقف الفاشية الاسبانية من لوركا وكاميليو خوسييه ثيلا وانطونيو ماتشادو والمئات من مثقفى أوروبا، ونفس الموقف من البربرية السوفيتية شمل الكاتب نكراسوف والشعراء جاليتش وكورزافين وبوبياشيف وكوزمنسكى والفليسوف زينوفيف وبرودسكى والكسندر سولجنتسين واندريه زخاروف، ونفس الموقف نرى تطبيقاً حديثاً له فى إسرائيل، حيث وقف كتابها الكبار ضد اليمين القومى والدينى العنصرى مثل: ديفيد حروسمان مؤلف «ابتسامة الجدى» و «ريح أصفر» وعاموس عوز فى رواية «ميخائيل يا حبيبى»، وأليف بيت يهوشواع فى قصة «فى مواجهة الغابات» و«صيف ٧٠»، حيث تفيض رواياتهم بقيم إنسانية رفيعة، وبالاعتراف بالآخر «الفلسطينى»، والعداء لفكرة إسرائيل الكبرى.

كما أن الأدب العبرى ذا الوجدان العربى يصعب حصره، ومنه على سبيل المثال «صيف الإسكندرية» للروائى المصرى الأصل إسحاق جارمازانو، «الجالسة فى الجنات» عن اليمن لأمنون شموش، «ميشيل عنراسيفرا وأولاده» عن دمشق لحاييم هزاز، «فكتوريا»، «وداعاً بغداد» و «نذر الخريف» لكل من سامى ميخائيل، وايلى عامير، وشمعون بلاص على التوالى وهم من العراق أصلاً، والروائي سمير نقاش العراقى الأصل الذى أصر على الكتابة باللغة العربية بالرغم من اتقانه العبرية؛ حتى إن المرء يحار فى توصيف هذا الأدب؛ هل هو أدب مهجر؟، أو أدب عربى فى اللغة العبرية؟ ، أو أدب عبرى بذاكرة عربية؟ كما أن الدراسات الإسرائيلية عن الأدب العربى التى يقوم بها نقاد وباحثون من اليهود العرب؛ مثل دراسات ساسون سوميخ عن نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس، وكانت دراساته عن نجيب محفوظ والمترجمة إلى العديد من اللغات الحية من وثائق استحقاق الاخير لجائزه نوبل.

وفوق كل ذلك هناك التعبير السياسى لهؤلاء الكتاب والمبدعين فى بيان سنة ٨٨ وتأسيس اتحاد مشترك للكتاب العرب والعبريين، وكتلة السلام التى ضمت العديد منهم، وهنا تبدأ الأسئلة الحرجة: ألا تفيد تلك الإبداعات والثقافات فى معركة السلام؟ ومن الذى يعنيه ويفيده الاطلاع على ذلك الإبداع؟ وأيضاً من الخاسر ومن المستفيد من الوضع الحالى؟ ونفس الشيء ينطبق على فضاء المعلومات والوثائق فى إسرائيل، ووثيقة «سيفر» عن العدوان الثلاثى التى أعلنتها إسرائيل ضمن قانون نشر الوثائق بعد مرور ٣٠ سنة، فى حين أتلفها الفرنسيون والبريطانيون هى دليل واضح على أهمية هذا المجال.

والإعلان عن قتل الأسرى المصريين فى حرب ٥٦ ، ٦٧. وشيخوخة نظام الأمان فى مفاعل ديمونة النووى ... كل ذلك تم الإعلان عنه فى إسرائيل، وكل ذلك أصبح أوراقاً هامة لدى الدبلوماسية المصرية خلال معركة السلام (بصرف النظر عن كفاءة استخدامها).

ونفس الأسئلة تظل محلقة عن الخاسر والمستفيد من عدم الاطلاع على

القراءة العبرية للصراع. وأخيرا تعطى الاتفاقية بين مصر وإسرائيل الحق للطرفين لإقامة كل منهما مركزاً أكاديميا لدى الآخر، واستغلت إسرائيل هذا الحق «طبعاً» فى سنة ٨٢ ولم تنفذه مصر، ومرة ثالثة وليست الأخيرة .. من المستفيد من عدم دراسة المجتمع الإسرائيلى؟ ومن المستفيد ومن الخاسر من إبعاد العقل المصرى عن معركة السلام؟ كما أبعد عن معركة الحرب؟ ومن المستفيد ومن الخاسر من استمرار نظرية التعبئة الفاشلة التى حصرت مرحلة المواجهة لأربعة عقود ونيف فى حدود الحسم العسكرى وها هى تعيد تكرار الفشل فى حصر مرحلة السلام فى حدود منطقة الأمن، وإبعاد «المدنيين» عن المواجهة والتفاعل فى كل الأحوال؟ إن من فعلوا ذلك بالتأكيد هم أنفسهم من جعلوا التعددية غير ديموقراطية ، وهم أنفسهم من جعلوا السياسة والحكم بين أيدى الجماعات الوظيفية، وحذفوا العمل السياسى والثقافة الحرة من الشارع المصرى و أحلوا محلهما التعصب و الديماجوجيا[٢٧] والإرهاب ، والسلوك الهمجى.

وهكذا يمكن معرفة أين سُكت تلك الكلمة/ الاتهام التى تركت حرية غير مشروطة للحكومات كى تكون «على حل شعرها» وقيدت المثقف والثقافة. إنها بالطبع من مسكوكات الثقافة الرسمية ومثقفيها الرسميين، ثقافة منظمة الشباب، والتنظيم الطليعى «السرى» ، إنها ثقافة «تحت الطلب» .

خامسا: وظيفة المثقف:

أجمعت أغلب كتابات أنصار الرأى الواحد على تعريف لوظيفة المثقف وهى «حراسه ذاكرة الأمة، والدفاع عن مصالحها القومية» .

وإذا كانت تلك هى وظيفة المثقف لديهم؛ فإننى أتوق لأن أعرف تعريفهم لوظيفة الجلاد.

على أنه مما يثير الدهشة ترديدهم الدائب، وبقلب غير واجف، لتعبيرات مثل: «المصالح القومية» ، و «المصالح الوطنية» ، و «المشروع القومى» ، و «الأمن القومى» ، و«السيادة الوطنية» . إنها البضاعة الفاسدة للأنظمة الشمولية، والأسماء الكودية لاستمرار

نظم الحكم الشمولى، وأعتقد أن هذا هو السبب الذى دفع أحد المفكرين - أعتقد أنه د. جونسون - لأن يقول: «إن الوطنية هى آخر ملاذ للأنذال».

وأعتقد أيضاً أن تعريف وظيفة المثقف دون مرادفاتها مثل الأداء النقدى، والحرية والحقيقة؛ فلن يكون ثمة مثقف أو ثقافة أو حتى وطن، فقط سيكون هناك جلادون.

ثم نأتى إلى كلمة غامضة وملتبسة أخرى، تسللت من ميدان الأدب إلى ميدان السياسة، بهدف حل أزمة الرأى الواحد وهى كلمة ذاكرة. إن للمجتمعات ذاكرات عدة، والذاكرة الجماعية هى مشترك وجدانى وإرشادى فى أغلب الأحيان، وهى لذلك لاتصلح خامة للحقيقة ولا للوعى ، فقصة أدهم الشرقاوى، وقصة ياسين وبهية هى من الذاكرة الجماعية النضالية لدى قطاعات واسعة من المجتمع المصرى، ولكنها قصص زائفة، لأن أدهم الشرقاوى وياسين كانا من قطاع طرق، حتى أن ياسين قتله ضابط بوليس هو صالح حرب، كما أن للصهيونية والمكارثية ذاكرات كما للأصولية الإسلامية والقومية والستالينية،. والذاكرة بهذا المعنى هى غدة الادرنالين الجمعية، أما التاريخ فهو شيء آخر؛ فهو الوثيقة والمادة التاريخية، ثم بعد ذلك عملية التأريخ والتناول التاريخى؛ ولذلك فالتاريخ له مؤسساته وعلومه ووسائل البحث الخاصة به وله باحثوه، وبهدف تأسيس نوع من الترابط المعرفى التاريخى. وإلى حين الوصول إلى ذلك عربياً؛ تظل كلمات مثل الذاكرة، فى الاستعمال السياسى العربى، كلمة تخفى وراء ظهرها ما تخفيه؛ فهى ليست فوق مستوى الشبهات.

سادساً: الثأر التاريخى أمام الجرائم الصهيونية:

تشكل جرائم الدم الصهيونية صفحات متشعبة، سواء من حيث أن بعضها هو جرائم دولة بالمعنى الدقيق للكلمة، والبعض الآخر جرائم أفراد مهووسين من أمثال باروخ جولد شتاين مجرم الحرم الإبراهيمى، وفوعام فريدمان مجرم سوق الخليل، ولكن تكرار جرائم هؤلاء المهووسين يدفع إلى التساؤل عن ذلك المناخ الذى ينتج على الدوام أفرادا من هذا النوع، ومن أى قسم من المجتمع الإسرائيلى وعن أى نوع من الذهنية تصدر وتنتج تلك الجرائم.

كما تتوزع الجرائم على الماضى عند إنشاء إسرائيل باعتبار أن الجرائم كانت إحدى وسائل التهجير، والمادة الوثائقية التى تثبت ذلك أصبحت متوافرة، بالإضافة إلى ما أثبته البروفيسور إسرائيل شاحاك، وأعضاء جماعة المؤرخين الجدد مثل بنى موريس، بخصوص جرائم كفر قاسم ودير ياسين وقبية، وتتوزع الجرائم أيضاً على الحاضر مثل قانا التى أدانتها الأمم المتحدة.

وهذه الجرائم هى ملف أساسى فى معركة السلام، كما أن خصوم تلك الجرائم كثر فى إسرائيل حتى أن د. توليدانو الذى كان مستشاراً للشئون العربية لإسحاق رابين؛ طالب علانية بالتحقيق فى جريمة كفر قاسم[٢٨] ولدينا حالة سابقة كمثال؛ هى محاكمة حكومة الليكود تحت رئاسة بيجين بسبب غزو لبنان، ومسئوليتها الأخلاقية والسياسية عن مجازر صبرا وشاتيلا، وإدانة أرييل شارون وزير الدفاع، وروفائيل إيتان رئيس الأركان، فى محاكمة قانونية بجرائم الحرب وعزلهما. ولابد أن يذكرنا ذلك بمظاهرات حركة السلام الآن التى أدانت تلك الجرائم وطالبت بالمحاكمة، وهو ما ساهم فى إسقاط تلك الحكومة، وبالإضافة إلى كون ذلك مثالا واضحاً، فهو تعبير رمزى عماى مكن عمله فى هذا الصدد.

ولدينا مثال آخر يحتذى، وهو اعتذار إسرائيل الرسمى للسويد عن اغتيال الكونت فولك برنادوت، وذلك على لسان «شيمون بيريز» وزير الخارجية آنذاك فى يوم ١٤ مايو (ايار) سنة ٩٥، ولشخص السيدة / مونا داهلين وزيرة الدولة ونائبة رئيس الوزراء السويدى، وكان الكونت قد اغتيل فى ١٧ سبتمبر (ايلول) سنة ٤٨ بواسطة منظمة الارجون زفاى لئومى. وقال «بيريز» يومها: «إن ذلك كان عملاً إرهابياً لا لزوم له، وإن إسرائيل تعتذر عنه».

وإجراء المحاكمة التاريخية لتلك الجرائم هو واجب كل المهمومين بالسلام على الجانبين، وأحد أسس السلام الحقيقى، وهو الرسالة العميقة والإنسانية التى ترسلها إلينا دماء الضحايا فى ذلك الملف.

أما الرد على تلك الرسالة بالرهان الثأرى «القروى» على عمليات التطرف التعس

البائس الذى لايميز؛ فهو بعينه الرهان على بيضة الديك، وخدمة عمياء لمعسكر الفاشية فى إسرائيل؛ كما سبق وحدث.[٢٩]

أعرف أن ظلم الضحية ليس كظلم القاتل؛ ولكن العرب لم يكونوا مفعولاً بهم طوال الوقت، ولم تكن مدافعهم محشوة بالزهور والبونبون، ولكنهم أيضاً بالإضافة إلى جرائم الصهيونية؛ قد فشلوا فى إدارة الصراع، ومن ثم حقت الهزيمة، كما أن الوكلاء الأغبياء للصهيونية عليهم مسئولية أيضاً؛ إذا حدثت يوما محاكمة تاريخية للصهيونية؛ ولأنه لا يوجد جلاد مطلق الإجرام، فلا توجد ضحية كاملة البراءة من البداية إلى النهاية؛ لذلك فإن أحد ملاحق تلك المحاكمة هو إلقاء الضوء على سلسلة جرائم الفاشية العربية ضد اليهود العرب، وأحد حلقاتها مجزرة الخليل فى سنة ١٩٢٩ والتى طالت كل اليهود العرب فى المدينة، وما حدث رداً على مذبحة دير ياسين التى حدثت على أبواب القدس فى ١٠ ابريل (نيسان) سنة ٤٨ إذ قامت قوات المجاهدين وقوات جيش الإنقاذ فى يوم ١٤ مايو (ايار) سنة ٤٨ بقتل ٥٠ عضوا من الجهاز الطبى اليهودى، وحوالى ٢٥٠ من سكان كفار اتزيون وكان الكثير منهم من الأطفال والنساء.[٣٠]

وحلقة أخرى هى أحداث «الفرهود» فى بغداد فى اليوم الأول والثانى من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٩٤١، والتى قامت بها طائفة المعدان[٣١] والغوغاء وبتحريض رسمى قتل فيها مايزيد عن ٣٠٠ يهودى عربى، ونُهبت ممتلكاتهم وأحرقت منازلهم.[٣٢]

ثم نأتى إلى قنابل وتفجيرات وحرائق الفاشية الإخوانية ومصر الفتاة فى سنة ٤٩ بحق أملاك اليهود المصريين، والمتمصرين، ونفس الشىء فى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير (كانون الاول) سنة ٥٢. لقد قامت الفاشيات العربية بالعديد من الجرائم فى حق كل الاقليات ومن بينهم اليهود، ولم يستفد من ذلك سوى الصهيونية، وهكذا تشاركت الفاشية مع الصهيونية فى تأسيس إسرائيل، إن «المهووسين» من العرب أيضاً مثل الدقامسة[٣٣] وأمثاله هى حلقات معاصرة تحمل نفس الذهنية الإرهابية، ولا تقف

جرائم الوكلاء الأغبياء عند هذا الحد، وهو ما سنتعرض له لاحقاً.

غير أنه يجب أن نضيف أن الإصرار على المحاكمة التاريخية لا يتناقض مع حركة التسامح والنسيان الكبيرة التى يحتاج إليها سلام الشرق الأوسط.

سابعاً: البربريات الأيدلوجية والخروج من جنة الهزيمة:

مايفتأ العقل الشمولى العربى يفرز العديد من عبارات الإجماع الإكراهى مثل: «الصف الوطنى» ، «الإجماع القومى»، «ثوابت الأمة»، «أساسيات المجتمع»، «إرادة الأمة»، «روح الأمة»، «رسالة الأمة»؛ إنها عقلية ما قبل جان جاك روسو و «عقده الاجتماعى»، إنه أشبه شىء بالمعتقد الإيمانى الجمعى الذى تأسست عليه دواوين التفتيش الكنسى فى القرون الوسطى، والتى لا تزيد عن أن تكون مجرد حيل استبدادية، بغرض مصادرة حق الفرد فى الحرية والحقيقة، أو فى الحقيقة المحررة، وفى الإبداع والكرامة.

ولايحتاج المرء إلى الكثير من المجهود كى يكتشف أنها «طبعة» ما بعد الهزيمة من سلسلة عبارات قديمة مثل : «أمة على موعد مع القدر»، «أعوان الاستعمار والرجعية»، «لاصوت يعلو فوق صوت المعركة»، «الثورة المضادة»، «الشرعية الثورية»، «أمة ذات رسالة خالدة»، «المجتمع المؤمن»، «دولة العلم والإيمان»، «ديار الإسلام».

ولايحتاج المرء أيضاً إلى الكثير من المجهود كى يكتشف المعين الذى أتى منه ذلك النسق القديم/ الجديد، فكل تلك الإجماعات حول تصور يختزل الوطن فى فكرة واحدة، وخارج دستور (حقيقى)، وخارج تعبير ديموقراطى (صحيح ومأمون) للقوى السياسية، ودون تأسيس على تصور للفرد الحر، ودون احترام القيم العامة للحضارة الإنسانية؛ إنما أتى كل ذلك من الآبار المسمومة للفاشية؛ فكل ذلك يشيع فى دستور عبد الله العلايلى «القومى»، و «فى سبيل البعث» لميشيل عفلق، و «الميثاق» و«فلسفة الثورة» لعبد الناصر، و«معالم على الطريق» لسيد قطب، وخطب حسن البنا، وفتاوى محمد الغزالى، و«إيمانى» لأحمد حسين، ومن قبلهم «كفاحى» نبراس الرايخ الثالث، وأدبيات القمصان السوداء أبناء موسلينى، وكتائب «يحيا الموت» أبناء فرانكو، وبعد

كل هؤلاء يأتى الزبائن الجدد من الماركسيين القوميين (الستالينيين سابقاً) أصحاب عبارات «الديموقراطية المركزية» و «التطور اللارأسمالى» و «ثورة يوليو التى هى تيار النضال الرئيسى للشعب المصرى».

إن البند السابع والأخير يشي بالخريطة الجينية كلها لأيدلوجية ثنائية الحرب والهزيمة، أى أيدلوجية الرأى الواحد، ويفشى نسبها إلى الأيدلوجيات البربرية، وهى الفكر القومى العربى بمدارسه المختلفة، والإسلام السياسى، والماركسية القومية، إنها الأيدلوجيات التى كانت تنتظر رصاصة الرحمة فى النصف الثانى من القرن العشرين؛ فإذا بها يافعة نشطة، تملأ الدنيا وهماً وخراباً فى نهاية القرن العشرين.

لقد اكتشفت هذه الأيدلوجيات منذ البداية سر الشباب الدائم إنها سر صورة دوريان جراى، أو صفقة الشيطان مع الدكتاتوريات العسكرية «الريفية» أو «العشائرية» لا فرق، وسترتها بأوراق التوت الأيدلوجية بأسمائها المتعددة: بين «حتمية الحل الاشتراكى»، و «الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج»، و «دولة العلم والإيمان»، «وحدة العالم الإسلامى» وصاغت خطابها الخداعى؛ فى مقابل أن تستمر فى الحياة، بعد أن ماتت مرتين، مرة بموتها الخاص بحكم بؤسها وهزائمها وتخلفها، ومرة أخرى بموت الأيدلوجيا العالمى فى ظل وحدة السوق، والمعلوماتية، والعولمة، وحقوق الإنسان، وتآكل الجغرافيا، وتداخل الزمن.

إنها أيضاً المثال الواضح للمجتمعات الشمولية التى تعلى شكلياً من احتياجات المجتمع لمجرد مصادرة احتياجات الفرد وحرياته.

إن تلك الأيدلوجية الراكدة المهزومة والقشرية للرأى الواحد، الذى انفرد بإدارة الصراع العربى الإسرائيلى لخمسة عقود ويزيد، إنما هى ابنة ذلك الحلف المعادى للديموقراطية. وتترى هنا أسئلة عديدة؛ ولكن يظل أهم تلك الأسئلة والتى هى صميم موضوعنا عن سبب استمرار تلك المفاهيم برغم الهزائم؟ وفى صورة أخرى: لماذا استمرت ثنائية الحرب والهزيمة تلك؟

□□□

هوامش الباب الأول

(١) من مؤتمر صحفى للرئيس عبد الناصر فى ١٧ مايو (ايار) سنة ١٩٦٧ .

(٢) من الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى أعلن فى ٢٨ مايو (ايار) سنة ١٩٦٤ .

(٣) د. محمد حسين هيكل باشا – مذكرات فى السياسة – الجزء الثالث ص ٤٢ – دار المعارف – القاهرة.

(٤) محمد حسنين هيكل – المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل – الكتاب الأول ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٦ .

(٥) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى – شخصيات مصرية – دار الهلال – القاهرة – ١٩٩٣ .

(٦) محمد حسنين هيكل – مصدر سابق ص ١٥٥ .

(٧) د. محمد حسين هيكل باشا – مصدر سابق ص ٥٠ .

(٨) د. وليد الخالدى – السنة الخمسون بعد قرار التقسيم – جريدة الحياة من ٢٩ – ١١ إلى ٩ – ١٢ – ١٩٩٧

(٩) محمد حسنين هيكل – ملفات السويس – مؤسسة الأهرام – القاهرة.

(١٠)د. محمد حسين هيكل باشا – مصدر سابق ص ٤٢ .

(١١) ندوة «الدولة الدينية والدولة المدنية» – معرض الكتاب – القاهرة – يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٩٢ . وقد شارك فى هذه الندوة دفاعاً عن الدولة المدنية الشهيد د. فرج فودة.

(١٢) جويل بنن – العلم الأحمر هل كان يرفرف هناك – ترجمة كمال السيد – دار الثقافة الجديدة– القاهرة. ص١٣٨ .

(١٣) جويل بنن – المصدر السابق ص ١٣٦ .

(١٤) جويل بنن – المصدر السابق ص ١٣٧ .

(١٥) صلاح جاهين – أشعار العامية المصرية – ص ٩٥ – مؤسسة الأهرام – القاهرة – ١٩٨٧ .

وباقى القصيدة هو:

مع أن – تصور؟ – وأنا بأنقل أرقام التليفون من نوته لنوته
جيت عندك، قام شئ ملعون قال: لأ، ماخلاص
ومشيت سطرين .. والتالت قلت: لايمكن يوسف حلمى خلاص.
ورجعت كتبت الاسم، ماخلصنيش،

....

غنينا ياسيدى حاجات سيد درويش ..
معلهش .. ماهو انت برضه كنت هناك ..
انت تمللى معانا، وحوالينا، وبيننا،
موت مين ده يابو حجاج اللى يخبيك منا؟!،
يعنى كان خبا الشيخ سيد؟ .. ما هو زى الجن،
ولا لحظة بيهمد ولا بيون.

فى المسرح، فى المصنع، فى الغيط، فى المدرسة، فى السجن

ده ، وتر مشدود يابا،

لمسوه من كام ألف سنة، ولساه بيزن،

وكلام بيرن،

رنه طويله طويله، بتضحك وتئن،

من قلب ربابة النيل على قلبه على قلبك على قلبى.

على قلب الشمس الشموسة اللى الليلة قعدت جنبى.

قلنا ياسيدى – فضلة خيرك – «ماتفوقوا يامصريين»

«والحلوه دى قامت» ، و «السياسى»

وقلنا «بلادى بلادى» ..

ياسلام

موت مين ده يايوسف حلمى اللى يحوشك عنى؟ ..

تصبح على خير.

(١٦) جويل بنن – مصدر سابق ص ١٣٨ .

(١٧) جويل بنن. مصدر سابق

(١٨) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على شبكة الإنترنت تحت عنوان مثوية الصهيونية.

(١٩) المقصود بتعبير الفاشية هو فلسفة الظاهرة وهى اختصار الوطن فى فكرة واحدة أو شخص واحد.

(٢٠) جريدة الشعب القاهرية – ٤ –٣– ٩٧ . إعلان مدفوع لوزارة السياحة.

(٢١) جريدة الحياة اللندنية ٢٦ – ٩ – ٩٦. جابر القرموطى.

(٢٢) مجلة روز اليوسف.

(٢٣) د. أحمد سعيد دويدار. مكاسب السلام فى الشرق الأوسط – حقيقة لا أوهام ص ٨٧ . القاهرة . طبعة محدودة.

(٢٤) حوار مباشر مع بروفيسور ساسون سوميخ فى القاهرة فى يونيو (حزيران) سنة ٩٧.

(٢٥) بنيامين نتنياهو. مكان تحت الشمس ص ٣٣ ترجمة: محمد عوده الدويرى. دار الجليل. عمان – الأردن.

(٢٦) المقصود بتعبير النازية هو فلسفتها وهى باختصار ربط الأرض بعرق أوبدين أو بقومية.

(٢٧) المقصود بالديماجوجيا هو استعمال الجهل كوسيلة سياسية.

(٢٨) القناة الثانية من تلفزيون إسرائيل يوم ذكرى المجزرة فى ١ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٩٦ .

(٢٩) أعتقد ويشاركنى الكثيرون أن التفجيرات الانتحارية فى ٢٥ فبراير (شباط) سنة ٩٦ فى القدس وعسقلان وفى ٤ مارس (اذار) سنه ٩٦ والتى قامت بها منظمة حماس قد وضعت أولوية للأمن قبل السلام لدى المجتمع الإسرائيلى وبالتالى ساعدت على نجاح نتنياهو وتحالف الليكود بالإضافة طبعاً إلى اغتيال إسحاق رابين فى ٤ نوفمبر (تشرين ثانى) سنه ٩٥

(٣٠) Nadine picaudou. Les palestiniens un siegle D' Histoire. Complexe paris. 1997. ترجمة خاصة.

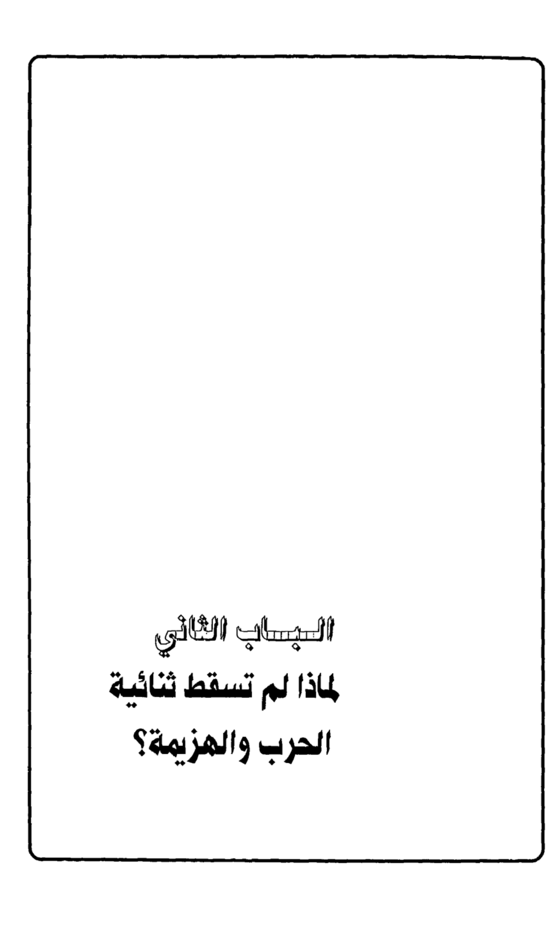
(٣١) المعدان طائفة فقيرة كانت تعيش فى تلك الفترة فى حزام بؤس حول بغداد ولا أعرف مصيرها الآن.

(٣٢) رزق الله يوسف غنيمة. نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق. دار الوراق للنشر. لندن. الطبعة الثانية.

- حوار شخصى مع د. عباس شبلاق فى القاهرة وهو باحث فلسطينى متخصص فى شئون اليهود العراقيين.

(٣٣) أحمد الدقامسة جندى أردنى أطلق النار على تلميذات إسرائيليات كن فى رحلة إلى منطقة جزيرة السلام فى الباقورة على الحدود الأردنية الإسرائيلية فى يوم ١٣ مارس (اذار) سنة ٩٧ فقتل ٧ تلميذات وأصاب ٧، وحكم عليه بالسجن المؤبد. وقيل فى محاولة لتبرير جريمته أنه انفعل بسبب الاستيطان الإسرائيلى فى جبل أبو غنيم (هارحوما) فى القدس. وقد سبقته حوادث مشابهة على الحدود المصرية الإسرائيلية، منها حادثة الجندى سليمان خاطر الذى قتل ٧ من السياح الإسرائيليين أغلبهم من الأطفال والنساء.

■■■



الباب الثاني

لماذا لم تسقط ثنائية الحرب والهزيمة؟

مقدمة

لا شك أن ثنائية الحرب والهزيمة هى جزء من نسق أعقد؛ يمكن القول إنه مشروع سياسى واسع المدى ذو قسمات شرقية، شمل كل أبعاد الحياة فى مصر والعالم العربى، وبالتالى يمكن القول إن الأوضاع الحالية فى كل مناحى الحياة فى مصر متشابكة؛ فيمكن الربط مثلاً بين إعادة إنتاج القيم المتخلفة والفكر الرجعى فى مناخ الحياة الثقافية والفكرية المعاصرة، وبين فقدان المؤسسات العلمية والفكرية لاستقلالها الضرورى والجوهرى، كما يمكن الربط بين الانهيار الدستورى، وتآكل أجهزة الدولة المصرية، والقضاء على النخبة فى كل المجالات، لحساب نموذج سلطوى رثّ، وقيادات مادون الحد الأدنى بعد يوليو (تموز) سنة ٥٢، وبين الهزيمة أمام إسرائيل.

وعليه فإن أسباب استمرار مفاهيم الحرب والهزيمة تتماس مع استمرار التدهور فى قضايا الديموقراطية والتنمية والسلام، وبتناسب طردى، ومن هنا تكمن أهمية محاولة الإجابة على هذا السؤال خاصة وأننى أعتقد أن بعض الأسباب لاتعود إلى الصراع العربى الإسرائيلى مباشرة ، بقدر ما تعود إلى أسباب داخلية ، و هو ما سنبينه لاحقاً.

وفى اعتقادى أن أسباب عدم سقوط ثنائية الحرب والهزيمة أمام إسرائيل تكمن فى جوانب المشروع السياسى التى تترجمها العوامل التالية:

أولاً: حلف الداخل المعادى للديموقراطية.

ثانيا: التحالف الإقليمى بين القوى العربية المعادية للديموقراطية، وبين قوى الحرب والعنصرية فى إسرائيل.

ثالثا: جهاز الدعاية المصرى

رابعا: المؤسسة الدينية والجماعة الوظيفية الدينية.

خامسا: الاستقطاب الدولى فى ظل الحرب الباردة.

سادسا: استمرار النظم التوتاليتارية فى إدارة العملية السلمية بعد فشلها فى إدارة الحرب.

□□□

الفصل الأول

حلف الداخل المعادى للديموقراطية

لم تكن أمام القوى الفاشية فى مصر قبل سنه ٥٢ فرصة المجئ إلى الحكم على حصان الديموقراطية، كما الرايخ الثالث فى ألمانيا أو الفاشية فى إيطاليا، ولم تكن هذه القوى تمتلك القدرة على إشعال حرب أهلية كما فرانكو فى اسبانيا؛ حيث إنها لم تكن تملك التأثير الذى يعادل أحزاب الطبقة الوسطى وعلى رأسها حزب الوفد، بالإضافة إلى تأثير القوى الرأسمالية المتنامى آنذاك. وربما يكون من المفيد هنا استعراض التاريخ القريب لتشكيل هذه القوى منذ بدايات القرن العشرين علّ ذلك يلقى المزيد من الضوء على ماحدث بعد ذلك.

الطبقة الوسطى:

تشكلت الطبقة الوسطى المصرية بطريقة شبة استعارية، وقد بدأ ذلك عندما بدأ دور المدينة فى الصعود بعد المشروع التحديثى لمحمد على والخديوى سعيد وإسماعيل، ومع إنشاء دواوين الحكومة والصحف وعودة المبعوثين من فرنسا وأوروبا، وبدء حركة الترجمة، وتأسيس التعليم المدنى، وبداية الصناعة والسكك الحديدية، غير أن الطبقة الوسطى فى صعودها هذا تبلورت حول فتائل أولية مكونة من الجاليات الأجنبية التى تمصرت فيما بعد؛ من الفرنسيين والإيطاليين والأرمن واليهود وأبناء بر الشام (من الموارنة والروم الأرثوزوكس) واليونانيين والقبارصة، ومنهم من جاء مع الاحتلال البريطانى، غير أنهم انحازوا إلى المشروع الوطنى عند صعوده بعد ثورة ١٩١٩ ودستور ٢٣، وحيث تحولوا من أعمال الوكالات التجارية والصيارفة وتجارة الذهب والرهونات إلى الصناعة بكل أشكالها ومؤسسات الكهرباء والغاز والنقل بأنواعه والاتصالات

والبنوك الوطنية والبورصات، وأهمها بورصة القطن فى مينا البصل بالإسكندرية وأنشطة السياحة وصناعة السينما والفنون والمؤسسات التجارية الكبرى، وانتقلوا من الإسكندرية وبورسعيد إلى القاهرة ثم إلى كل مدن مصر. ثم انضم إليهم الأقباط (لأنهم بنسبة ٧٠٪ من سكان المدن ونتيجة تعصب وجمود الريف المصرى وليس لأسباب اعتقادية) ثم أخذت الطبقة الوسطى شكلها الكامل بشمولها لطبقة الموظفين وخريجى المدارس العليا ورجال القضاء والبنوك وطبقة الملاك التى رحلت إلى المدن، وأصبحت أحد شرائح البورجوازية المصرية الأساسية.

وأصبحت الدولة المصرية الحديثة هى أهم منجزات هذه الطبقة، وما صاحب ذلك من تطور القضية الوطنية حيث رفعت شعار «الاستقلال والدستور»، وكان ذلك صياغة مركزة لمشروع هذه الطبقة؛ حيث ناضلت ضد الإنجليز بهدف تأسيس مشروع ليبرالى مستقل، متخذة طريق التطور الرأسمالى.

وللتدقيق، يجب القول إنه كانت فى مصر فى منتصف القرن، وبالرغم من تطور القضية الوطنية؛ اختلالات اجتماعية حادة، خاصة فى الريف، وأبرزها كانت حالة فئة عمال التراحيل الزراعيين، غير أنه بنظرة خارجية منصفة نكتشف أن الخلل الاجتماعى كان السمة الواضحة آنذاك فى أغلب الدول التى أخذت بالنظام الرأسمالى.

وكانت القوة السياسية الأولى للطبقة الوسطى فى ذلك الوقت هى حزب الوفد الذى كان أقرب إلى الجبهة منه إلى الحزب، وكان حزباً علمانياً، يسانده دستور علمانى، ومؤسسات دولة علمانية، وكان هو أهم من ساهم فى بنائها، وهكذا يمكن القول إن الطبقة الوسطى كانت خير تعبير عن انتماء مصر لحوض المتوسط. وفى بداية النصف الثانى من القرن العشرين وخلال حكم حزب الوفد من سنة ١٩٥٠ إلى ٢٦ يناير (كانون الثانى) سنة ٥٢ كان الوفد قد ألغى معاهدة ١٩٣٦، وأعلن العمل المسلح فى القناة ضد الإنجليز، وكان قد بدأ واحدة من أهم حلقات المقاومة المسلحة قبل حريق القاهرة وسقوطه عن الحكم بثلاثة أيام، وهى إصدار الأمر لرجال الشرطة فى

الإسماعيلية بالتصدى للقوات الإنجليزية، ورفض التخلى عن وحدة مصر والسودان، وكان من الواضح أن الوفد كان يحاول إعادة قضية الاستقلال التام إلى الصدارة، فى محاولة لامتصاص نتائج حرب فلسطين سنة ٤٨، وفى نفس الوقت محاولة خفض حدة الصراع مع إسرائيل، تمهيداً لحل سلمى تفاوضى.

القوى الفاشية:

وجدت الفاشية (سبق تعريفها) تربتها المناسبة وقواعدها فى الريف بين أنصاف المتعلمين، وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة، وصغار الموظفين، والفئات المهمشة، ورجال الدين وكل المشدودين إلى ماضى الشرق، والمعادين ثقافياً للغرب ولمشروع التحديث المصرى «التغريبى»، وقد تغذّت الذهنية الفاشية على الفكر الأصولى الإسلامى سواء فى طرحه السلفى أو الإصلاحى، وفكرة المستبد العادل والفكر الخلاصى، والاستيحاء الرومانسى للفكر القومى الأوروبى، علاوة على وعائه الأساسى، وهو الذهنية الريفية المحافظة التراتبية.

ووجدت تعبيرها السياسى فى ماسماه حسنين هيكل «مدرسة الشرق»[1]، وهم مجموعة على ماهر، ومن بينهم صالح حرب مؤسس جمعية الشبان المسلمين ووزير الحربية فى حكومة على ماهر سنة ٣٩، وعبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية ووزير الأوقاف ثم الشئون الاجتماعية فى نفس الوزارة، وعزيز المصرى الضابط فى الجيش التركى وكان رئيساً للأركان، ثم جماعة الإخوان المسلمين تحت قيادة حسن البنا، ومصر الفتاة بقيادة مؤسسها أحمد حسين[2] وتوصيف هيكل صحيح ولكنه ناقص إذ أنه نسي أن ذلك الحلف كان أكبر من ذلك إذ كان يشمل القصر فى شخص الملك فاروق والأزهر فى شخص الشيخ المراغى[3]، بالإضافة إلى الحزب الوطنى، وبعض التنظيمات الصغيرة مثل الحرس الحديدى.

واجتمع هذا الحلف على العداء لحزب الوفد وللتجربة الليبرالية المصرية ولمشروع الطبقة الوسطى. واتجهت بوصلة أهداف هذا الحلف إلى وراثة الخلافة الإسلامية بعد

سقوطها فى تركيا . وكان الملك فاروق وارثاً لهذه الفكرة من والده الملك فؤاد، وكان يعتقد أن الخلافة الإسلامية ستصبح سهلة المنال بعد إزالة إسرائيل؛ لذلك كان هو الصوت الأول المحرض على رفض قرار التقسيم، والإصرار على الحسم العسكرى؛ ولذلك السبب أيضاً حدث الصدام بينه وبين الهاشميين فى شرق الأردن والعراق، مما انعكس سلباً على ميدان القتال فى حرب فلسطين سنة ٤٨، حتى أن مصر استولت على سفينة محملة بالعتاد والذخيرة كانت فى طريقها إلى الأردن.[٤]

وعندما بدأت مشاورات تأسيس الجامعة العربية، منذ مارس (آذار) سنة ٤٣، حاول ذلك الحلف تأسيس الجامعة كى تكون جامعة عربية إسلامية تمثل داخلها الشعوب، لكن النحاس رفض وأصر على أن تكون جامعة حكومات عربية، كى تصبح وسيلة سياسية طوع بنان الحكومة المصرية فى العلاقات الإقليمية.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية راهن هذا الحلف على انتصار النازية والفاشية؛ ليس فقط بسبب عدائهما للإنجليز أو لليهود، كما هو شائع؛ ولكن هذا الرهان كان نتيجة لتشابه موضوعى فى الغايات، وإعجاب رومانسى بالروح القومية والوحدة وسط اوروبا منذ بسمارك وغاريبالدى حتى هتلر وموسلينى، وهنا نلمس بدايات نقاط الالتقاء المبكرة مع الفكر القومى العربى. وكان لذلك الحلف بكل أطرافه علاقات وثيقة مع دول المحور (كان فى الأكاديمية المصرية بروما مندوب اتصال بالشفرة بين الملك فاروق وموسلينى وكان اسمه «سحاب ألماظ» وكان مطلوباً أمام محاكم جرائم الحرب).

كما أن مواقف تركيا كانت لاتزال مؤثرة على هذا الحلف سواء بتحالفها مع ألمانيا فى الحرب الأولى أو بالروح القومية الطورانية بعد سقوط الخلافة؛ وكانت مصر الفتاة، على سبيل المثال،. تأثير، ورد فعل فى وقت واحد لحركة وانقلاب تركيا الفتاة، ولم يخل الأمر من إعجاب بشخصية كمال أتاتورك، دون إدراك لمجمل سياساته وعلمانيته فى التحليل الأخير.

وكان تنظيم الضباط الأحرار مرآة حقيقية لمدرسة الشرق وفكرها المحافظ داخل الجيش، خاصة وأن الجيش لم يكن من بين اهتمامات حزب الوفد، ولم ينظر له سوى على أنه أحد رموز الاستقلال، بعد توقيع معاهدة ٣٦، كما كان الملك ينظر إلى الجيش باعتباره احد مناطق نفوده الاساسية، وبإعتباره جيشاً اسلامياً!، يحقق به حلم الخلافة، وبالتالى لم تشمله التطورات التى حدثت فى مناحى الحياة المصرية، وخاصة أن حكم حزب الوفد كان على فترات قليلة متباعدة، أى أن تأثيره الأكبر كان على الشارع السياسى «المدنى»؛ ومن ثم كان الجيش يحمل فى تكوينه العضوى أثراً للتفرقة بين المسلمين والأقباط، وربما لكل تلك الأسباب دفع الأقباط ثمناً باهظاً بعد الانقلاب، بمقتضى سياسة ما سمى بالخط الهمايونى؟ والتأثير العميق لضباط انتموا إلى الحلف الفاشى (مدرسة الشرق): مثل محمود لبيب، وعزيز المصرى، وصالح حرب، وأحمد عبد العزيز، ومعروف الحضرى، ولذلك لم يكن فى مجلس الثورة ولا فى تنظيم الضباط الأحرار قبطى واحد ولو من باب الشكل(٧). وكانت النسبة الغالبة من أعضاء تنظيم الضباط الأحرار منخرطين فى عضوية جماعة الإخوان والجهاز الخاص، الذى ارتكب أغلب الأعمال الإرهابية التى قامت بها الجماعة. وشارك عبد الناصر نفسه فى محاولة اغتيال،(٨) ولايمكن استبعاد فكرة مشاركة تنظيم الضباط الأحرار فى حريق القاهرة لإسقاط حكومة الوفد. وخاصة أن لعبد الناصر مجد الحريق فى «الميثاق»(٩)، ولم يتم التحقيق ولو من طرف بعيد فى ظروف الحريق وأسبابه بعد انقلاب يوليو(١٠). وبوجود الأزهر، وتنظيم الضباط الأحرار، اكتسبت القوى الفاشية أو (مدرسة الشرق) بعداً هاماً، وهو وجود الجماعات الوظيفية التى تحمل نفس الأهداف، ونفس الذهنية مما أكسبها قدراتها الانقلابية وفاعليتها فيما بعد (سنتعرض لدور الأزهر لاحقاً). وهنا نلمس نقاط التقاء أخرى مع الفكر القومى العربى فى الميول الانقلابية لدى ميشيل عفلق، وساطع الحصرى، وانطون سعادة. ولابد هنا من الإشارة إلى وجود عدد قليل من الضباط على رأسهم: يوسف صديق، وخالد محي الدين، وأحمد

حمروش، كانوا أعضاء فى تنظيم يسارى، مع عضويتهم فى تنظيم الضابط الأحرار، وهنا لابد أن نذكر أن بعضهم كانت له عضوية سابقة فى الإخوان المسلمين، كما أن حركة «حدتو» التى كانوا أعضاء فيها لم تكن حزباً شيوعياً بالمعنى المعروف، فقد كانت لها جذور قومية، وكان التنظيم الأول لها اسمه «الحركة المصرية» ثم «حدتو» واسمها الكامل «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، وكانت تنظيما مفتوحاً أبعد مايكون عن الانضباطية الحركية والسرية للأحزاب الشيوعية التقليدية، وربما لهذا السبب اكتسبت فاعليتها، وربما لهذا السبب أيضاً فرضت بعض الأحزاب الأخرى وصايتها عليها، كما ساعد ذلك على اتخاذها مواقف زجزاجية انتهت إلى موافقتها على انقلاب يوليو، وخروجها من حركة الشيوعية الدولية[١١]، واتخاذها للمنحى القومى فيما بعد، وهكذا لم يكن لدى «حدتو» دفاعات حقيقية تمنعها من الاقتراب ولو قليلاً من «مدرسة الشرق»، وخاصة بعد خروج نخبتها اليهودية منها ومن مصر. وبعد نقد الستالينية فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى.

لم تكن مدرسة الشرق تلك قادرة على المنافسة فى الممارسة السياسية والثقافية مع مشروع الطبقة الوسطى وأحزابها، وعلى رأسها حزب الوفد، ولم تحصل جماعة الإخوان ولا مصر الفتاة على مقعد واحد فى البرلمان المصرى حتى سنة ٥٢، وظل الحزب الوطنى من أحزاب الأقلية، لذلك لجأ ذلك الحلف للأعمال الإرهابية، عبر تنظيمات سرية، وكان من ضحاياها أحمد ماهر رئيس الوزراء فى سنة ٤٥ بسبب إعلان الحرب على المحور تمهيداً لعضوية الأمم المتحدة، والنقراشى باشا والمستشار أحمد الخازندار (بك) سنة ٤٨، وتفجيرات عدة لممتلكات الأجانب والمتمصرين فى سنة ٤٨، وسنة ٤٩، ومحاولات عدة لاغتيال مصطفى النحاس، ثم حريق القاهرة، وما أطلق عليه قنابل الكريسماس ومحكمة مصر، وقضية العربة الجيب، وهلم جراً ..

ولكن ذلك الحلف مثله مثل النازية والفاشية الإيطالية كان صعوده سبباً ونتيجة فى آن واحد للحرب والهزيمة، وكان ذلك هو التحول بعد حرب فلسطين سنة ٤٨

والهزيمة فيها، وهكذا استولى الحلف الفاشى أو «مدرسة الشرق» (بحسب هيكل) على السلطة فى مصر عبر انقلاب يوليو (تموز) سنة ١٩٥٢، وتأسست بذلك دكتاتورية عسكرية ريفية، حولت مياه المتوسط من وسيلة اتصال إلى عائق حدودى، ثم إلى بحر من العداء أغرق التجربة الليبرالية المصرية، ودمر مشروع الطبقة الوسطى وأهم منجزاتها، وهى المجتمع المدنى والثقافة الوطنية وفكر التحديث والتطور الرأسمالى المستقل.

ثم بدأ تدمير الطبقة الوسطى نفسها بترحيل فتائلها أولاً من اليهود، ثم الباقى من المتمصرين، ونهبت أملاكهم بعد أن نهبت أملاك أسرة محمد على، ثم بدأ تهجير جسد الطبقة نفسه من الأقباط والمثقفين والعلماء، ثم رجال الأعمال، وتم حرمان مصر فى توقيت حرج من قدراتهم جميعاً، وفى النهاية تم تدمير الدولة/ الأمة، أهم منجزات المصريين فى القرن العشرين.

وتم استبدال كل ذلك بفئات ريفية من أنصاف المتعلمين وذوى الطموح، والانتهازيين من حملة الثقافات المرتبكة ذوى الفكر المحافظ، ووضعهم كواجهة، ورتبهم ككتاب ومبدعين ورجال حكم، ونظمهم فى هياكل علنية وسرية، ذات أسس غامضة ولكنها واضحة الهدف، وهو دعم النظام وتفريغ أى احتمال ديموقراطى أو ثقافى حر، وابتكار أسس فكرية ووطنية للطاعة والاستتباع، وتسمية انقلاب عسكرى قامت به عصبة من أنصاف المتعلمين، أنصاف مثقفين، ذات ذهنية ريفية فاشية، باسم ثورة.

يتم ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه الثقافة والمثقفون ضميراً عالمياً يعلو على الأيدلوجيات والأنظمة بل على المزاج الشعبى العام، وفى وقت تقوم فيه المجتمعات والدول شرقاً وغرباً بمحاسبة الذات، والاعتذار عن جرائم وتجاوزات وسيلتها الأولى فيها هم المثقفون.

قال أحد الروائيين المنتمين إلى الناصرية فى مناسبة مرور ٢٣ سنة على وفاه عبد الناصر: «إنه اتفق مع عبد الناصر فى كل الاتجاهات العامة، ولكنه اختلف معه فى

بعض التفاصيل الصغيرة مثل الحرية» !![١٢].

وقد يعتقد البعض أننى أقصد بالحلف فى صورته الحديثة أى البربريات الأيدلوجية الثلاث وجمهورية يوليو العسكرية المعنى النظرى أو الرمزى، ولكننى فى الحقيقة أقصد الحلف بمعناه العضوى والتنظيمى، الذى صنع خطوط تقاطع بين تلك الأيدلوجيات، برغم تناقضها الظاهرى، وللتدليل على ذلك أستعرض، ولو فى عجالة تركيب أحد التنظيمات السرية لهذا الحلف وهو «التنظيم الطليعى» أو «طليعة الاشتراكيين» وهى أحد مسمياته، إذ كان من أعضاء هياكله الأساسية: الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر لاحقاً) والشيخ أحمد حسن الباقورى (إخوان مسلمين ووزير الأوقاف فى أول حكومة بعد انقلاب يوليو)، د. بنت الشاطئ، وعمرو موسى . ود. عاطف صدقى (رئيس وزراء سابق). ود. أسامة الباز.[١٣] وكان من أعضاء جلسة التأسيس: سامى شرف، محمد حسنين هيكل، أحمد فؤاد، عباس رضوان (وزير داخلية آنذاك)، ثم ضم د. فؤاد مرسى فيما بعد، ومن الأعضاء شعراوى جمعة (وزير الداخلية لاحقاً)، محمد فائق، أمين هويدى، عبد المجيد فريد، محمود أمين العالم، إسماعيل صبرى عبد الله، عصمت سيف الدولة، فتحى سرور (رئيس مجلس الشعب حالياً)، أحمد كامل (مدير المخابرات لاحقاً)، دحسين كامل بهاء الدين (إخوان مسلمين سابقاً ووزير التعليم الحالى)، على صبرى، د. عصمت عبد المجيد، د. مصطفى كمال حلمى[١٥] (رئيس مجلس الشورى حالياً)، النبوى إسماعيل (كان بجهاز مباحث أمن الدولة ووزير داخلية لاحقاً)[١٦] الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكان الشيخ محمد الغزالى عضواً فى المؤتمر القومى، وهو مايرجح عضويته فى التنظيم، وقال الشيخ متولى الشعراوى: إنه كان ذاهبا إلى بيت عبد الناصر فى يوم ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ٧٠ للانضمام إلى التنظيم إلا أن عبد الناصر توفى فى ذلك اليوم.

ويضيف لنا وائل الإبراشى فى مجلة روز اليوسف المزيد من رؤساء الوزارات مثل:. د.عبد العزيز حجازى ود. فؤاد محيى الدين، ود. مصطفى خليل وممدوح سالم، ووزراء مثل عبد الهادى قنديل (وزير البترول الاسبق) وأحمد العماوى (وزير القوى العاملة الحالى) ود. محمود شريف (وزير الحكم المحلى الحالى). ود. مراد غالب (وزير خارجية وإعلام سابق)، كما يضيف مشهور أحمد مشهور (رئيس هيئة قناة السويس

الأسبق). كما يضيف لنا روساء الاحزاب: ابراهيم شكرى، مصطفى كامل مراد، خالد محيى الدين، ضياء الدين داوود، كمال الشاذلى (امين التنظيم فى الحزب الوطنى) كما يضيف لنا د. عبد الغفار شكر أعضاء فى منظمة الشباب مثل: د.مصطفى الفقى* ود. احمد يوسف أحمد ود. مفيد شهاب (وزير التعليم العالى حالياً) ود. الأحمدى أبو النور (وزير الاوقاف سابقا)**

وانخرط فى تلك التنظيمات أعداد ضخمة من الصحفيين والكتاب والشيوخ ورسامى الكاريكاتير والفنانين، ويقال ذلك أيضا عن بعض رجال القضاء مثل: مصطفى درويش و د. طارق البشرى، ورجال شرطة، وبعض الفنانات والمطربات، وكان من الطبيعى أن ترد فى أدبيات تنظيمات مثل تلك أن الزعيم سعد زغلول كان مدمناً للعادة السرية!!.

ويمكن القول إن البعض انضم بحسن نية، وأن البعض جُمّد أو جمدت عضويته لعدم الاقتناع، ولكن كل ذلك يحتاج إلى شهادات لم يكتب منها إلا النزر اليسير، من أهمها شهادة فتحى غانم وسامى شرف. ومن الأمور الخطرة الناجمة عن تلك التنظيمات أن العديد من أعضائها أصبحوا رؤساء تحرير لصحف المعارضة، ورؤساء أحزاب معارضة، وربما كان فى ذلك الجواب على سؤال. لماذا لم يتم الاستعانة بمراقبين دوليين للانتخابات فى مصر (بالرغم طبعاً من شكليتها وزيفها)*** مع العلم أن تلك الانتخابات تعبر عاماً بعد عاماً عن مدى الاحتقان والانسداد، والعنف الكامن فى المجتمع المصرى (آخر انتخابات لمجلس الشعب فى سنة ٩٥ سقط فيها ٨٠ قتيل و٨٠٠ جريح)، ولكن ما خفى بالتأكيد هو الأعظم.

ومن هنا يمكن معرفة كيف ولد فكر التمترس والانقطاع، وتأسيس ذات وهمية خارج العصر، ومقاطعة «الآخر» و «الخارج» و «الماقبل» باسم «العصر البائد»، «إسرائيل المزعومة»، «الغرب المادى»، «الغرب الكافر»، «الغرب الامبريالى». فى حين أن المقصود، فى حقيقة الأمر، كان دعم النظام المركزى، وإقامة جمهورية استتباع، والحرب على الحداثة، والديموقراطية، والحلول السلمية وتبديد قرن التحرر والتحديث.

□□□

* روز اليوسف ٩٦/٩/٣٠ عدد رقم ٣٥٦٤.

** جريدة العربى الناصرى ٩٤/٣/٧.

*** مجلس الشعب الحالى هو ثالث مجلس يطعن القضاء فى شرعيته وبأحكام نهائية.

الفصل الثانى

التحالف الإقليمى بين قوى العداء للديموقراطية العربية وقوى الحرب والعنصرية فى إسرائيل:

كان حلم إزالة إسرائيل لايقل حماقة عن حلم إسرائيل الكبرى، ولكن لأن الحماقة «تحدث» أحياناً، فقد كانت العلاقة بين الشعارين هى علاقة تلازم، فكانت أشبه بتحريض المغتصَب للمغتصِب، أو تشجيع المقتول للقاتل، لقد كان الصراع بين شعار تدمير إسرائيل وبين توسع إسرائيل هو جانب فقط، لأن الجانب الآخر كان المشروعية التى يعطيها كلاهما للآخر؛ إن التحالف هنا كان موضوعياً، وكى تتضح الصورة أكثر، كان مسرح الشرق الأوسط، منذ قرار التقسيم شبيها بحكاية «الذئب .. الذئب» فثمة من يصيح «الذئب .. الذئب»، والمأساة أنه كان هناك ذئب بالفعل حيث إنه كان يأتى ويفترس القطيع، ولكن فى توقيت مترادف ومذهل كان المنزل يسرف. إن الإمساك بالذئب أو باللص يوقف التحالف.

لست ممن يثقون بفكر المؤامرة، ولكن توجد رمزية واضحة لتهنئة بن جوريون المرسلة إلى قادة انقلاب يوليو (تموز) سنة ٥٢ فى مصر بنجاح الانقلاب، وتصريحه فى الكنيست ضمن سياق خطابه فى ١٨ اغسطس (اب) ١٩٥٢: «إن الأوضاع الجديدة فى مصر هى لصالحنا»(١٧). لقد كان ذلك هو المانيفستو الأول لذلك التحالف.

لقد اكتشف ذئب الحرب العجوز مبكراً كيف أنه فى صُدْفَة لايجود الدهر بمثلها كثيراً يمكن تصفية أنصار السلام على الجانبين بين مطرقة الصهيونية وبين سندان الفاشية العربية، ومعهم أنصار الحل السياسى فى المنطقة وخارجها.

وهكذا لم تبق على مسرح الشرق الأوسط سوى أدوار الحماقة.

وإذا كان لويس كوزر عالم الاجتماع السياسى يرى : «أن الحرب والعدو الخارجى المصطنع أو الفعلى أو المبالغ فيه .. يدعم الترابط الداخلى للمجتمع، ويحدد أولوياته، ويدعم مركزية الحكم، ويجنح به إلى الاستبداد».[١٨] وإذا كان قول كوزر صحيحاً على ما أعتقد، فإنه لايشكل إلا نصف الحقيقة فى مصر، حيث إن ثنائية الحرب والهزيمة قد حملت القوى الفاشية إلى الحكم، وهذا هو النصف الذى لم يذكره كوزر، ثم كان شعار إزالة إسرائيل هو ما استمر بهذه القوى فى الحكم، وهو دورها فى حكاية «الذئب .. الذئب» .. أى سرقة المنزل.

إن الذين يدقون طبول الحرب، والمنادين بإلغاء معاهدات السلام، وأنصار الدقامسة، وسليمان وخاطر وحماس، والجهاد، وعمليات التطرف اليائس البائس، ومعهم بنيامين نتنياهو الذى لايملك فكراً سياسياً بقدر ما يملك غرائز سياسية، ومعه أنصار رحبعام زئيفى، و موليدت، وتسوميت، وسياسة «الأمن مقابل السلام»، والمناداة بعزلة إسرائيل، والسلام «الفاتر» .. إن كل هؤلاء ليسوا سوى الطبعة الحديثة من التحالف، تعود بنجاح منقطع النظير، ومعها كل طبولها وحناجرها، إنهم من يصيح وبرفقته الذئب، واللص، والمانيفستو الجديد.

على أن علاقات التحالف تلك أو الاستعمال المتبادل كل للآخر؛ لايجب أن تنسينا الفروق النوعية بين الأطراف، والمقارنة بالتالى بين السياسات؛ إذ أن ذلك جزء أساسى من الدروس المستفادة. وعلى سبيل المثال أسست إسرائيل نظامها البرلمانى، وديموقراطيتها الداخلية، منذ اللحظة الأولى، وتم حصر الأصوات الانتخابية فى إسرائيل فى نوفمبر (تشرين أول) سنة ١٩٤٨، وكانت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى مشتعلة الاوار، واشتمل الحصر على الأصوات العربية، وكان عددها ٧١ ألف صوت،،وأجريت أول انتخابات فى ٢٥ يناير (كانون ثانى) سنة ٤٩.

وتم تشكيل أول حكومة على أرض إسرائيل، واجتمع أول كنيست فى ٨ مارس (ذار) سنة ٤٩، ولم تكن اتفاقيات الهدنة مع العرب قد وقعت، ويعتبر الكثيرون فى إسرائيل أن هذا التاريخ هو التاريخ الحقيقى لإنشاء الدولة. أى أنهم فى ظل الحرب

أسسوا ديموقراطيتهم؛ فى حين أنه على الجانب المصرى تم تدمير الحياة الدستورية، وعاش المصريون فى ظل أحكام الطوارئ والقوانين الاستثنائية، طوال النصف الثانى من القرن العشرين تقريبا، وفقد المجتمع المصرى كل قدرة على المبادرة باسم الصراع مع إسرائيل، ولا داعى لتذكر الشعارات سيئة الصيت من نوع «لاصوت يعلو على صوت المعركة»، وطبعاً لم يشمل ذلك أبداً أصوات التأييد والنفاق وهتافات قطعان الرعايا. والباقى معروف، والنتائج معروفة أكثر.

□□□

الفصل الثالث

جهاز الدعاية ..
ماهو الصوت الأصلى للببغاء؟

قال جوبلز: « ... سيكون الآن من السهل أن نمضى فى المعركة، إذ أن فى وسعنا الآن تعبئة جميع موارد الدولة، فالإذاعة والصحافة تحت تصرفنا، وسنحقق مظهراً رائعاً من مظاهر الدعاية ..» (١٩)

بالرغم من السمعة التاريخية لجوبلز وجهاز دعايته النازى، إلا أن ما أنجزه هذا الجهاز يعتبر شديد التواضع، بالقياس إلى ما أحدثه جهاز الدعاية الذى أسسته جمهورية يوليو، فهو واسطة الدرر الثلاثة التى اعتمد عليها استمرار النظام، ووسائله الأساسية فى امتصاص نتائج التدهور والهزائم، واحتواء الخصوم، والبدلاء السياسيين، والتنكيل الهمجى بهم، وأبعادهم عن التأثير فى المجتمع، وثانى هذا الثالوث هو المؤسسة الدينية، والأخير هو الأجهزة الأمنية.

وقد بدأ عمل جهاز الدعاية منذ يوم ٢٧ يوليو (تموز) سنة ٥٢ عندما قتل الصحفى «يحي نصار» بضربة من «حذاء البياده» لأحد سفاحى «الثورة البيضاء»، أصابته فى جزء حساس من جسده فى الدور الأرضى من المبنى الذى أطلق عليه فيما بعد مبنى مجلس الثورة (من الغريب .. أو لعله من المنطقى -لاأعرف - أن نقابة الصحفيين المصرية ليس فى أوراقها سطر واحد عن هذا الحادث، الذى سقط فيه أول شهيد للمهنة بعد انقلاب يوليو).

وبدأت بذلك سياسة العصا والجزرة، والخلاص من غير الموالين بواسطة حركة التطهير، وسلاح الوشاية، والتقريب والإبعاد، والاعتقال والترقيات وهكذا ...

وبدأت خطة تغيير جلد الصحافة المصرية ووضع الأساس الفعلى لجهاز الدعاية

فى بداية سنة ٥٤ بإغلاق ٨ مجلات من بينها «الكاتب» لسان حال حركة السلام و«الملايين» لسان حال حركة «حدتو». وفى مارس وإبريل سنة ٥٤ صدر بيان لمجلس «الثورة» بقائمة متهمة بتقاضى ماسمى بالمصاريف السرية، شمل ١٤ مجلة وصحيفة، وثلاثة وعشرين صحفياً.

وفى ١٥ إبريل سنة ٥٤ تم حل مجلس نقابة الصحفيين، وفى ٤ مايو (ايار) صدر قرار بسحب ترخيص جريدة المصري. وحكم بالسجن عشرة أعوام على محمود أبو الفتح، وخمسة عشر عاماً على أحمد أبو الفتح، صاحبى جريدة المصري التى كانت تعبر اختياراً عن حزب الوفد.

وفى يوم ٢٦ مايو (ايار) صدر قرار بإلغاء ٤٢ صحيفة ومجلة حزبية، ثم تم إغلاق الأحزاب نفسها [٢٠]، وفى نفس الوقت كانت عمليات «التطهير» تدور على قدم وساق فى الإذاعة والجامعات وإدارات الحكومة وكل أنحاء مصر. وتوج كل ذلك بصدور قانون تنظيم أو تكميم الصحافة فى ٢٤ مايو (ايار) سنة ٦٠، وتم تمليك الصحف للاتحاد القومى فى سبتمبر (ايلول) سنة ٦٠، وقد كانت (صيغة الاتحاد القومى قد تم نقلها من البرتغال، كانت تقليداً دقيقاً لوسائل الطاغية سالازار)[٢١]

وتم وضع مجموعة من الضباط صغار الرتب على رأس جهاز الدعاية، وكانت قائمة التعيينات كالتالى:

أمين شاكر فى مؤسسة أخبار اليوم، يوسف السباعى فى روز اليوسف، سيد إبراهيم فى دار التحرير (الإعلانات الشرقية – فينى سابقاً)، عبد الرؤوف نافع دار الهلال، الصاغ صلاح سالم رئيساً لمجلس إدارة دار التحرير، وكانت هذه الدار تصدر حينذاك العشرات من الصحف والسلاسل الدورية وبعدد من اللغات. ورأس محمد حسنين هيكل الأهرام ودار الهلال.[٢٢]

وتم تأسيس مصلحة الاستعلامات التى هى مفصل الربط بين جهاز الأمن وجهاز الدعاية، وانشئ داخلها جهاز الرقابة على الصحافة والكتب الصادرة فى الداخل والمستوردة من الخارج، كما تم إنشاء أقسام للصحافة والنشر والمطبوعات فى أجهزة

الأمن المختلفة، تركز أنشطتها على الصحف ودور النشر والمطابع والعاملين فيها، على نمط جهاز ستازى (جهاز الأمن فى ألمانيا الشرقية الذى وصل به الأمر إلى التدخل فى الكتابات النقدية الأدبية والمسرحية).

وعندما تم التنكيل بفكرى أباظة (سبق استعراض الواقعة)، كان ذلك بمثابة التمثيل بجسد حرية التعبير، والعبرة لمن يعتبر، ولم يخل الأمر حينذاك من مسئول يتحدث عن حرية الصحافة التى لم تحدث من قبل!!.

وعندما اغتيل كامل مروة مؤسس جريدة الحياة فى بيروت بيد عدنان سلطانى أحد عملاء الأجهزة الناصرية؛ كان ذلك تذكيراً بمصير الخصوم، وبحدود منطقة عمل جهاز الدعاية المصرى. وهكذا تم إغلاق الآذان والأعين والأفواه، وتم تحويل تمثال القردة الثلاثة الشهير إلى واقع فى مصر.

وإذا كان ريجيس دوبريه يقول: «.. إن الوسائط الإعلامية ترسم الواقع، وليس الواقع هو الذى يرسمها ..»[٢٣] فإن ذلك صحيح بدقة مؤلمة، فيما يتعلق بجهاز الدعاية المصرى؛ فلا يوجد من أساء إلى الحقيقة والعقل والوعى العام فى مصر، مثل ذلك الجهاز؛ فقد وصل الأمر إلى أنه قد أصبح بديلاً للعمل السياسى، وللثقافة، وللفكر، وشكل ساحة لصولات وجولات المسئولين، ولإحراز الانتصارات الزائفة.

وإذا كان المبرر الأول للسلطة فى البداية؛ هو أن يصبح الجهاز وسيلة لخداع العدو؛ فقد أصبح، وعلى نحو مؤسف، وسيلة لخداع الذات. إن حجم الوهم والزيف الذى بثه جهاز الدعاية المصرى أوصله لأن يصبح «الذنب الذى يهز الكلب»❖، ولتوضيح ذلك استحضر تلك الواقعة:

فى مؤتمر صحفى يوم ١٧ مايو (ايار) سنة ٦٧ بعد إغلاق خليج العقبة يوم ١٤، وسحب قوات الطوارئ الدولية بين مصر وإسرائيل، وتكديس الجيش فى سيناء، أى بعد أن اتخذ قرار الحرب، وجلس ينتظرها!! قال الرئيس عبد الناصر: «أنا مش خرع زى مستر ايدن» وإن: «هدفه تدمير إسرائيل»، وكان المصريون يودعون بعضهم البعض على المقاهى بقولهم: «إلى اللقاء فى تل أبيب»، وعلى أبواب المساجد كانوا يقولون:

❖ تشيع فى مصر عبارة «كلام جرايد» وتطلق على الأخبار الملفقة أو الأكاذيب.

«الجمعة القادم فى القدس إن شاء الله»، حتى إن أحد الكتاب اقترح أن يكون حفل أم كلثوم القادم فى تل أبيب. وفى صباح يوم ٥ يونيو (حزيران) قال المذيع فى إذاعة صوت العرب: «جنت أسرائيل على نفسها وسقطت فى الفخ»، وحتى تكتمل كل عناصر الدراما فى راديو القاهرة العبرى بدلاً من أن يقول المذيع: «حاذى يوت» أى على كل الجبهات (يقصد الحرب) قال: «حاذى توت» أى على كل الصدريات النسائية!. وفى مساء يوم ٩ يونيو (حزيران) قال مذيع صوت العرب: «لكم الله ياعرب».

(وفى اعتقادى أن ماحدث ليس فقط خداع الأتباع، أو خداع للذات، يقوم به نظام استبدادى مفلس، ودون مستوى التحديات؛ إنه شيء أكثر جسامة وكارثية، ولا أعتقد أن المعالجات العربية قد سبرت غوره بما يكفى؛ فهو يحتاج مثل أشياء كثيرة، وفى عصر مناسب إلى تحقيق على المستوى القومى).

وأسوق فى هذا الصدد محادثة شاركت فيها يوم المؤتمر الصحفى مساء وكانت مع خالى اللواء ناجى سلام (ترك الخدمة فى سنة ٦٨ أطال الله عمره) فقد قال: «... يارب يا ابنى ما تقوم الحرب .. إسرائيل تقدر تحتل سيناء بلوائين عمليات بس..» وعندما بدت على وجهى ملامح الصدمة – وكنت يومها طالباً، وكنت متحمساً للحرب – أضاف: « .. يا ابنى ليس لدينا جيش .. هذا الجيش ليس للقتال .. فلم يتركوا فيه ضابط مقاتل .. أو ضابط ابن ناس (على حد تعبيره) على الإطلاق ..»؛ وكان هو قد شارك فى حرب سنة ٤٨ فى الفالوجا؛ وكان أركان حرب قوات تغطية الانسحاب تحت قيادة اللواء العجرودى فى حرب سنة ٥٦، وتم أسرهما معاً فى إسرائيل لأكثر من ٦ شهور، وأعترف أنه قد خالجنى الشك فى أسباب ماقاله؛ فربما يكون ذلك بسبب انتمائه الطبقى وميوله اليمينية .. أو أن الإسرائيليين قد أجروا له غسيل مخ ... ، إلى أن وقعت الواقعة؛ فعرفت أن الحقيقة فى واد، والوعى العام فى مصر والعالم العربى فى واد آخر.

- **الوجه الآخر للديماجوجيا .. تحقير الذات:**

بعد أن وقعت الكارثة الاستراتيجية والحضارية فى سنة ٦٧ ، والتى يعانى منها العرب حتى الآن ولعقود قادمة، انتشرت فى القاهرة فى مساء يوم ٩ يونيو (حزيران) إشاعة فحواها أن طائرات سلاح الطيران الإسرائيلى كانت تقودها نساء، وبعد ساعات أضيفت إلى الإشاعة أن بعض هؤلاء النساء كن حوامل، وفى صباح اليوم التالى كانت الإشاعة فى صورتها النهائية أن إحدى هؤلاء النساء «الحوامل» ولدت ساعة وقوعها فى الأسر! إن حالة الفصام تجعل العلاقة مع الواقع منفصلة عن المنطق والإدراك السليم، وخاضعة للهلاوس، إن هذا الفصام والذهان الجماعى يثبت على الدوام؛ الفاعلية الفائقة لجهاز الدعاية المصرى. لقد قطعت الدعاية بالفعل قول كل خطيب.

الصحفيون أيضاً ضحايا لاخطبوط الدعاية:

إذا كان جوبلز هو من قال أيضاً: « .. اكذب ثم اكذب حتى يصدقك شعبك» ، فإن جهاز الدعاية المصرى بزّ كل معلميه، حتى أصبح قانونه هو : «اكذب ثم اكذب ولا تتوقف..» ، ذلك إن التصورات الخاطئة للذات وللآخر، هى أخطر نتائج غسيل العقول، وهى أخطر الجرائم فى حق مجتمع ما؛ فإنه يمكن القول إنه كان النتيجة المباشرة للسيطرة على الصحافة والإعلام منذ البداية، وكان ذلك هو التوجيه المباشر من السلطة ورقبائها، وكانت آخر أجيال الصحفيين فى التجربة الليبرالية المصرية قبل سنة٥٢ ينفذون ذلك على مضض وبضيق نتيجة أن العمل كان يجرى على قدم وساق لتأسيس جمهورية الخوف* ولم يخل الأمر من تحايلات فى الكتابة وصدامات مع السلطة واعتقالات وتنكيل وفصل وما شابه.

أما الآن ونتيجة الانهيار العام، أصبحت الأجيال الجديدة من الصحفيين والإعلاميين لاتتمتع بالثقافة اللازمة، ولا بالقدرات المهنية، وبالتالى كانوا ضحية عمليات غسيل العقول، وتوزعت انتماءاتهم على البربريات الأيدلوجية الثلاث،

* هو اسم كتاب عن العراق تاليف كنعان مكيه وصدر باسم مستعار، هو: سمير الخليل.

وبالتالى لم تعد الحقيقة المحررة من غايات الصحافة الحالية، وأصبح الرقيب داخلاً فى تركيب الذات. وأصبح الصحفى والإعلامى إما موظفاً بكل ما تعنيه الكلمة، وإما أيديولوجياً يقاتل ضد الحقيقة والحرية، أى ضد مهنته الأصلية.

وبالرغم من قوافل الكتاب والصحفيين التى تنتقل فى معية المسئولين إلى كل أنحاء الأرض؛ فلم يعد للصحافة مراسلون فى كل الحروب العربية الإسرائيلية (لاالتحدث هنا عن أقلام الدعاية ولا عن الأماكن الناعمة)، وأحداث غزو لبنان، ومجازر صبرا وشاتيلا، والحرب الأهلية فى جنوب وجبال النوبة بالسودان وحرب الخليج الأولى والثانية والانتفاضة الفلسطينية، وقبل ذلك ثورة شعب جنوب افريقيا وأحداث الجزائر لمدة سبع سنوات، وإلى الآن (سوى رسالة ضئيلة فى جريدة الأهرام)، ناهيك عن المقاومة فى جنوب لبنان، واغتيال رابين، والانتخابات الاسرائيلية، والأزمات الاقتصادية فى دول آسيا، فى كل تلك الأحداث كان المتاح منها فى أغلبه يعتمد على الوكالات وبصورة مشوهة؛ على حين كان للصحافة المصرية، قبل الانقلاب، عشرات المراسلين فى حرب فلسطين سنة ٤٨، وبعضهم قام بتغطية الأحداث على الجانب الإسرائيلى، وكذلك حرب كوريا (كان حسنين هيكل أحد هؤلاء المراسلين فى الحربين). ولأن الببغاء لا يطلب منه سوى الترديد أصبحت أفضل الصحف فى القاهرة صحفاً غير مصرية.

السلطة الرابعة فى قبضة السلطة الواحدة:

كان الرئيس السادات متيماً بإطلاق اسم السلطة الرابعةعلى الصحافة، عندما اقتضى الأمر السماح بتعددية الأحزاب، وبالتالى إنشاء صحف خارج الصحف الحكومية؛ وذلك نتيجة ابتعاده عن الاتحاد السوفيتى واقترابه من الغرب، وهكذا ظهرت إلى الوجود تلك التعددية الغير ديموقراطية، الموجودة فى مصر حتى الآن، وكانت عبارة السلطة الرابعة توحى بوجود سلطات أخرى غير السلطة الواحدة والرأى الواحد «الفعلى» فى مصر منذ سنة٥٢. وعندما اقتضى الأمر صادر السادات الصحف مثل جريدة الأهالى بأحكام قضائية (أيام أنور أبو سحلى)، وعندما اقتضى الأمر أكثر، وضع

الجميع فى السجون (٥ سبتمبر سنة ١٩٨١) صحفيين وقيادات حزبية ورجال دين ونقابيين.

● يتم تعيين رؤساء مجالس إدارات المؤسسات الصحفية ورؤساء تحرير الصحف «القومية» بقرارات جمهورية، وأغلبهم أعضاء فى مجلس الشورى، والمجلس الأعلى للصحافة التابع له، حيث يتمتعون بحصانة شبه برلمانية، وهذا يجعلهم فى مأمن من التقاضى الناتج عن الخروج على القواعد المهنية فى التعامل مع الخصوم، أو عند نشر أخبار ملفقة، وهذا طبعاً جزء من السياج الذى تحمى به السلطة جهاز الدعاية، ولكن الأكثر غرابة هو أن ذلك يشمل بعض صحف الأحزاب «المعارضة» !!

● وهكذا كان استعمال القانون كوسيلة سياسية هو أحد ملامح جمهورية يوليو العسكرية، ويعتبر إصدار صحيفة جديدة فى مصر بطريقة طبيعية أمرا من المستحيلات، وكانت هنالك صيغتان لإصدار صحيفة، أولهما أخذ ترخيص من الخارج، ثم الحصول على ترخيص بالطبع يتجدد كل ثلاثة شهور، وهذا النوع من الصحافة تراقبه إدارة المطبوعات بوزارة الإعلام، تسمى بصحف قبرص.

والطريقة الثانية هى تأسيس شركة يكون من حقها إصدار صحيفة أو مطبوعة أو مجلة فى المناطق الحرة بالقانون ٩٦ لسنة ١٩٩٦، ويسمح لها بالتداول فى مصر، وهنا على الصحيفة أن تجد الطريقة للتمويل. حيث إن الطباعة تكون بأثمان مرتفعة جداً فى مطابع المنطقة الحرة. كما أن الصحيفة بهذه الطريقة لابد أن تحصل على موافقة مصلحة الشركات، والمجلس الأعلى للصحافة.

●وخلال شهر مارس (آذار) سنة٩٨ كان قدتم إغلاق جريدة الدستور (حاصلة على ترخيص طبع)، وكان قد تم إغلاق ٣٦ جريدة ومجلة تصدر بالطريقة الثانية. والغريب أن إغلاق الجريدة الأولى صاحبته موجة تتحدث عن ضرورة وقف جرائد التشهير، والتعرض لأعراض الناس أى ما يسمى بالصحف الصفراء؛ فى حين استمرت أغلب الصحف الصفراء فى الصدور، وهكذا يكون هناك سبب آخر، إنه سياسة الاختباء وراء الإصبع.

●تم تعديل المادة ١٧ فى قانون الشركات (بالقانون ٣ لسنة٩٨) بحيث يوجب ضرورة الحصول على موافقة مجلس الوزراء وبأثر رجعى (وله أن يوافق أو لا يوافق دون إبداء الأسباب) أى أن الصحيفة المطلوب منها (نظرياً) مراقبة السلطة التنفيذية (اسمياً) لابد أن تحصل على موافقتها، وغنى عن الذكر أن كل تلك الإجراءات يقف وراءها «صاحب القرار الحقيقى» الذى تعتبر موافقته هى العنصر الرئيسى فى الموافقة و الصدور أو عدمه، وهو الأمن.

وهكذا، خلال شهر مارس (آذار). حدثت مجزرة صحفية فى مصر تشبه ما حدث نوعاً ما فى سنة ١٩٥٤.*

●كما أنه خلال الشهور التسعة الأخيرة كان قد صدر، أحكام بالحبس على ٩ صحفيين، بينهم ٣ سعوديين فى ثلاثة قضايا نشر، وكانوا بينهم ثلاثة من رؤساء التحرير هم: رئيس تحرير جريدة الشعب المصرية. ورئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط السعودية، ورئيسة تحرير مجلة «الجديدة» السعودية، وهى أى رئيسة التحرير تحمل جنسية مصرية.

ويتم الآن تداول ٦ أحكام بالحبس الآن أمام دوائر الاستئناف على صحفيين، كما تتداول النيابات ١٦٦ تحقيقاً مع صحفيين آخرين.[٢٤]

ولم يعدم الأمر طبعاً صدور تصريحات من بعض المسئولين وبغزارة (وكأنها ساتر دخانى) عن أهمية الصحافة، وضرورة الحفاظ عليها، وأننا أفضل من أى بلد فى العالم فى مجال الحريات!!. إنها جمهورية الاستتباع. تعمل دون كلل، حتى لو سخر منا العالم.

وإذا كانت الحكمة تؤخذ حتى من أفواه المجانين، فلا غضاضة من أخذها من فم بنيامين نتنياهو إذ قال: « ... إنه سعيد حقاً أن يسمع أن الصحافة حرة فى مصر .. ومتى كان ذلك ؟»[٢٥]

●ومن المظاهر التى تنفرد بها الصحافة فى مصر عن أى صحافة فى العالم (حتى فى

*يلاحظ أن فى الفترة من ٢٣ مايو (ايار) سنة ٩٨ تم الترخيص لـ ٤٠٠ (أربعمائة) صحيفة ودورية ومجلة فى إيران!!!، وهى فترة حكم الرئيس خاتمى.

لجزائر) حجم الحراسات الأمنية على رؤساء التحرير والكتاب «الكبار» ، إلى درجة تحرك بعضهم فى موكب أمنى، مكون من أكثر من سيارة، وورديات طوال ٢٤ ساعة على منازلهم ومكاتبهم، وحيثما يوجدون، وقد بدأ كل ذلك بدعوى تأمينهم ضد تهديدات معمر القذافى فى نهاية السبعينيات، ثم بدعوى التأمين ضد الإرهاب الأصولى، ناهيك عن حجم الأمن على المؤسسات الإعلامية حتى تخال أنك أمام ثكنات عسكرية فى حالة حرب إنه مثال لسيطرة الهاجس الأمنى على عقل لايخدم الحقيقة، وأهم واجباته الثناء على المسئولين، فى نفس الوقت تعرض نجيب محفوظ لمحاولة ذبح لم تنقذه منها سوى الصدفة البحتة، واغتيل د. فرج فوده بسهولة فائقة، ولا داعى للحديث عما يحدث للمواطنين العاديين من الأقباط والمسلمين ورجال الأمن والسياح فى مصر العليا وفى القاهرة.

الفساد .. الوجه الآخر للدعاية:

من أهم الضرائب والرسوم على الإطلاق التى يوجب القانون على المؤسسات الصحفية توريدها إلى الدولة ضريبة «التمغة» على الإعلانات وقيمتها ٣٦٪ من قيمة كل إعلان، والتأمينات الاجتماعية على العاملين وتبلغ فى المتوسط ٣٥٪ من مرتب كل العاملين.

ولايتم توريد الضريبة الأولى منذ عشرات السنين، وهى ضخمة بكل المقاييس، وسواء فى ذلك الصحف القومية أو المعارضة، وتقدر بعشرات الملايين سنوياً. أما التأمينات الاجتماعية فلا تصبح محل بحث إلا عندما يخرج أحد العاملين على المعاش، وهنا تبدأ هيئة التأمينات فى دفع المعاش، وهنا فقط تتم تسوية حالته مع هيئة التأمينات، أى بشكل فردى، ودون أن يصبح على المؤسسة الصحفية أى فوائد أو خلافه على مبالغ ضخمة أيضاً . إنه سيف ديموقليدس من أحد الوجوه، ولكنه من باقى الوجوه الرشوة على حساب القوانين. ذلك أن المؤسسات التى يتم إغلاقها وإفلاسها سنوياً من القطاع الخاص – الذى لابد أن يتحمل أعباء جهاز الدعاية – يصعب حصرها. وحيث لا تهاون أبداً فى تحصيل كل أنواع الضرائب ناهيك عن ديون المؤسسات الصحفية للبنوك ولشركات الكهرباء والمياه، وهى بمئات الملايين.

وعن الفساد الداخلى فى المؤسسات القومية فذلك بحث آخر، ولكن يكفى

معرفة أن رؤساء التحرير وبعض الصحفيين ممن يطلق عليهم لقب بارونات الصحافة يتقاضون نسبة من دخل الإعلانات سنوياً، وهنا لابد أن يثار التساؤل عن الفاصل الدقيق بين المادة التحريرية ومصلحة المعلن، والتى وصلت إلى منع مقال لأحمد بهاء الدين عن النشر فى جريدة الاهرام لأنه تعرض لشمس الدين الفاسى* فى يوم ١٣ مارس (اذار) سنة ١٩٨٦.[٢٦]

وعاصفة شركات توظيف الأموال وعلاقتها بجهاز الدعاية المصرى أقرب إلى الذاكرة من النسيان، وقصة العطايا والسيارات المرسيدس والتويوتا من صدام حسين إلى القيادات الإعلامية فى وقت العلاقات «الطيبة»، بالإضافة طبعاً إلى سطور الإشادة من إعلانات مباشرة وغير مباشرة، ومهرجان «المربد» الذى كان يشهد من القاهرة زرافا ووحداناً (الآن مهرجان الجنادرية وبنفس الوجوه تقريباً)، وعندما حدثت الحرب الثانية فى الخليج ظهر صدام فى الصحف المصرية وعلى رأسه طاسة، ويلبس ملابس الأطفال وبجواره «مبولة» الأطفال، ونفس الشىء بحذافيره تم مع معمر القذافى، ثم مع البشير فى السودان، ثم قطر أخيراً، وفى تاريخ أقدم مع نورى السعيد و الحبيب بورقيبه والملك سعود .. وهلم جرا.

إن الصحافة تخوض معارك نظام الحكم السياسية والدبلوماسية باعتبارها رديفا للنظام، ونفس الشىء مع خصوم النظام فى الداخل، وهذا هو الوضع الحقيقى طوال ٤٥ سنة ودون رتوش.

الإذاعة والتليفزيون:

يمكن اكتشاف العلاقة الوثيقة بين التأثير الفادح للتليفزيون وبين صعود جمهورية يوليو العسكرية، فقد ارتبطا معاً وبالتحديد منذ سنة ٦٠ وتزيد ساعات إرسال التليفزيون الآن عن ٢٤٠ ساعة يوميا موزعة على ١٢ قناة فضائية ومحلية، ومنها قناة

---

* شمس الدين الفاسى شخصية عربية تعيش فى لندن تحيط بها الكثير من الأقاويل، ولكن تم تقديمه فى صحف القاهرة على أنه رئيس ماسمى بالمجلس العالمى للطرق الصوفية وانه مستثمر كبير، ويمت بصلة قرابه إلى أحد افراد العائلة المالكة فى السعودية، وصدرت عنه عدة كتب بأقلام كتاب صحف مصريون، وكانت الاعلانات الشخصية عنه تظهر فى مثل الصحف تقريباً، وبشكل يتصف بالبذخ خلال السنوات الأخيرة من الثمانينات، وكان يقيم العديد من الحفلات الفاخرة للأوساط الإعلامية على وجه الخصوص، ثم أصبح نسياً منسياً.

واحدة مشتركة تجارية فيزيد إرسالها بالتأكيد عن ٥٠٠ ساعة إرسال يومياً، إذا أضفنا إليها البرامج الموجهة، وهو حجم إرسال يزيد عن إرسال روسيا التى لها ٧ قنوات تليفزيونية «خاصة» ، إنها بعض تكلفة النظم الشمولية المرتفعة.

وإذا أضفنا إلى الإذاعة والتليفزيون مصلحة الاستعلامات وشركة القاهرة للصوتيات والمرئيات، فسنجد أن وزارة الإعلام وعلى رأسها الوزير صفوت الشريف ولمدة عشرين عاماً حتى الآن، وهو ضابط مخابرات سابق وشملته التحقيقات بعد سنة ٦٧ فى القضية التى عرفت باسم انحراف جهاز المخابرات، ويقال أنه كان نائباً لرئيس شعبة فى جماعة الإخوان المسلمين قبل سنة ٥٢. ولسنا نغالى إذا رددنا مع العديد من الكتاب والمفكرين أن قسماً كبيراً من مسئولية «الصحوة» اللاعقلية، وانتشار التطرف والإرهاب الفكرى والمسلح، تقع على عاتق الإذاعة والتليفزيون، سواء بسبب المادة الدينية السطحية المتعصبة (سبق لوزير الإعلام أن قال فى مجلس الشورى إن المادة الدينية ٣٦٪ من مواد الإرسال) والشائعة فى البرامج الدينية المباشرة أو القيم الشائعة بشكل غير مباشر فى المسلسلات والخطاب العام.[٢٧]

وفى الوقت الذى خُصصت فيه برامج منتظمة لشيوخ التعصب ولعشرات السنين (منذ نور على نور فى السيتنيات) لم يستمع الشعب المصرى أبداً إلى الرأى الآخر المخالف لهؤلاء الشيوخ، عبر هذه الوسائل، من أمثال: د. فؤاد ذكريا، د. زكى نجيب محمود، د. فرج فوده، ونجيب محفوظ ،د. سعيد العشماوى، د. سيد القمنى، خليل عبد الكريم، د. نصر حامد أبو زيد وغيرهم كثير، ومثل ذلك أيضاً ذلك الصوت القبطى المجنى عليه فى قضايا الفتنة (سنتعرض لذلك لاحقاً)، وكل ذلك يجعل تهمة إشاعة الإرهاب صحيحة. ومن الأدلة الدامغة الدالة على تلك الذهنية فى الإذاعة والتليفزيون أنهم تجاهلوا اغتيال الكاتب فرج فودة لمدة ٤٨ ساعة؛ على حين أنه كان الخبر الأول فى كل أنحاء العالم، إلى درجة أن أحد الكتاب فى الصحف القومية المتخصصين فى برامج التليفزيون ذكر تلك الملاحظة بشكل مباشر[٢٨]. ولاداعى بعد ذلك للتساؤل: لماذا لم تُذع مواجهاته مع فكر الإرهاب فى التليفزيون؟.

أما عن المستوى المهنى، فلابد أن المتابعين يتذكرون تلك اللحظات الحرجة التى مرت بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى اديس ابابا، وصمت التليفزيون لمدة ساعة ونصف الساعة كانت كافية لأن تورد الأفكار كل مورد، وهو نفس الارتباك الذى حدث بعد اغتيال الرئيس السادات مع بعض الكذب، وهو نفسه الارتباك الذى حدث بعد ثغرة الدفرسوار خلال حرب أكتوبر، ولاداعى لتذكر كم الأكاذيب خلال حرب ٦٧. إن الببغاء لايطلب منه أحد أن يفكر.

ولا عجب بعد كل ذلك أن تصبح محطات الإذاعة الغربية وعلى رأسها محطة B.B.C هى الإذاعات المرغوبة فى مصر، وينطبق ذلك (لمن لديه القدرة) على محطات التليفزيون الأجنبية والعربية.

وأما عن الفساد فى مؤسسة التليفزيون فله ملف آخر ليس هنا مجال البحث فيه، ولكننا نتعرض لوثيقة واحدة وهى حكم المحكمة التأديبية العليا الذى قال عن الرجل الثانى فى التليفزيون ومستشار وزير الإعلام، وهو ضابط بوليس سابق، إنه «قواد»، وإنه اختلس ١٣٦ مليون جنيه، ونصت فى الحيثيات على ضرورة تحويله إلى القضاء (لم يتم تحويله إلى القضاء حتى الآن ولمدة ٦ شهور سبقت)، وقالت عن جهة الإدارة إنها إما سهلت له الاختلاس وإما أنها لم تكن تعلم شيئاً.[٢٩]

وفى اعتقادى أن التليفزيون المصرى قد نال عقابه الذى لافكاك منه (بالرغم من المدن الإعلامية التى تكلفت المليارات والقمر الصناعى الذى تم التعاقد عليه مع فرنسا بتكلفة ١٦٠ مليون دولار ويضيف ٧ قنوات مصرية جديدة)، وهو أنه يلهث وراء محطات التليفزيون العربية مثل قطر ولبنان؛ أو القنوات العربية فى أوربا دون أمل، وإلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولاً، ولا داعى للحديث طبعاً عن المنافسة مع محطات التليفزيون الأجنبية؛ فذلك خارج الخيال.

وإذا كان كل ذلك هو مجرد مقارنة ما بين المادة الإعلامية التلقينية الميتة وتلك المتسمة بالحيوية أو فروق المستوى العقلى فى الخطاب الإعلامى؛ فإن ما لا يمكن فهمه أو قبوله ذلك المشهد فى التليفزيون بمناسبة نجاة الرئيس مبارك من محاولة

الاغتيال، والذى ظهر فيه وزير الإعلام مع شخص يرتدى اللباس العربى؛ وأمامهم وأمام ملايين المشاهدين تم ذبح عجل، وتناثر الدم على الكاميرا؛ أى على شاشات التليفزيون، ولم يكن من الممكن الاعتداء على الذوق السليم، والإحساس الإنسانى الفطرى، بأكثر من ذلك!

جهاز الدعاية وقضية السلام:

وإذا كان ما سبق حديثا عن المضمون الديموقراطى الغائب فى الخطاب الإعلامى المصرى؛ فالموقف من الصراع العربى الإسرائيلى ليس أفضل؛ فهو يحمل نفس العوامل والبصمات؛ فقد استعمل جهاز الدعاية المصرى كوسيلة حشد وتعبئة، وبالتالى تطبع بكل أخطاء الرأى الواحد، وانخفاض أدائه منذ البداية، وكانت أحد أهم أخطائه الافتقار الى نسق معرفى خاص بالصراع، ولم يتوفر له سوى نمط إرشادى مغلق سرعان ما انزلق إلى التشهير مع تراكم الهزائم .. يدفعه تصور لإسرائيل يلفه الغموض والاحتياج المحلى لها بأكثر من معرفتها، كأنها عدو صنع يد أو اسكتش؛ وليست حكاية لافتة الكنيست «من النيل إلى الفرات» الزائفة(٣٠)، وبروتوكولات حكماء صهيون، التى تبين أن من زورها هو وزير الداخلية القيصرى الروسى «اجناتيف أيام الكسندر الثانى، كى يجد المبرر لتهجير اليهود من أراضى روسيا «المقدسة»(٣١).

كانت اللافتة والبروتوكولات من أهم أفكار الحشد ضد إسرائيل . ومع التدهور انزلق الأمر إلى نوع من الردح مثل حكايات اللبان الجنسى، والتآمر على خصوبة المصريين!!، ونقل الإيدز، والإغماء الجماعى للفتيات فى المدارس، وبذور النباتات المشعة، وعبادة الشيطان، والقرآن المزور، وصناعة الزلازل، وتصوير إسرائيل باعتبار أنها رجل واحد شرير. لم يكن كل ذلك سوى دلالة على انعدام المسئولية، وممارسة تعبئة ملتوية الهدف، وتتسم بالغباء والجهل، والانصراف عن الصراع الأصلى الذى هزمنا فيه بالفعل وهو الصراع الحضارى، ونفس السلوك أتبع بحذافيره مع «الآخر» الثقافى والسياسى والدينى والعرقى مصرياً وعربياً وخارجياً.

إن حشد المجتمع ضد الحقيقة لم ينتج دائما سوى الفشل وسقوط الجميع. إن

جهازاً كهذا لايمكن أن تكون له صياغة سامية لهدف السلام، أو فكرة موثوق بها عن المستقبل، ولايمكن إلا أن يكون وسيلة شريرة فى حرب خاسرة، وليس بوسعه أن يصبح سوى وسيلة إساءة إلى العقل الجمعى، واعتداء على الحريات الضرورية للفرد وللمجتمع.

وإلى إن تعود الدولة/ الأمة المصرية دولة للمواطنين، بدلاً من سلطة على رعايا، وإلى أن ترفرف الحرية على ضفاف النيل، وإلى أن تعود الحقيقة هدفاً من أهداف المجتمع فى مصر؛ فإن جهاز الدعاية المصرى سيظل مجرد ببغاء سيئ التدريب، وليس له صوت أصلى.

□□□

الفصل الرابع

المؤسسة الدينية:

الاحتراف الدينى .. وسيكلوجية المنبر

«انك كلما جعلت الدين أو حتى الخرافة تصطرع مع الحرية، فإن النصر سينعقد دائماً للدين على الحرية فى عقل الشعب»

«نابليون»

لم يعرف الإسلام منذ ظهوره سواء على مستوى النص أو الممارسة ما يسمى برجل الدين أو مهنة الدين؛ وباستثناء نزول الوحى لايوجد وسيط بين المسلم وربه. ولا يوجد تفرقة بين مسلم وآخر إلا على أساس التقوى. وكانت إمامة الصلاة يقوم بها الرسول ثم الخلفاء من بعده. وكانت أحد ألقاب الخلفاء هو الإمام؛ فيقال الإمام على مثلاً، وبعد ذلك كان من يقوم بالإمامة هم الامراء والحكام والولاة، منذ تخلى معاوية ابن أبى سفيان عن إمامة الصلاة. وفى الحالات العادية والأماكن البعيدة عن مدن وعواصم الحكم كان يقوم بالإمامة الأكبر سناً ومقاماً، ومن يعرف عنه التقوى وخشية الله (يومها كان الدين للناس ولوجه الله، ولم يكن قد تحول بعد إلى مصلحة للحكام ولا للمعممين) ولم ترد فى القرآن كلمة فقة لعلهم تفقهون أو «فقيه»، كما أن كلمة شيخ هى مرحلة عمرية، واستعملت أيضاً بمعنى كبير القوم أو رئيس الحرفة. أما كلمة العلماء فى القرآن فى الآية ٢٨ من سورة فاطر: «إنما يخشى الله من عباده العلماء. إن الله عزيز غفور» فترد على سبيل الجمع، وليس لها مفرد، حيث إن مفردة عالم وعليم لم تطلق إلا على الذات الإلهية، حيث إن العلم فى القرآن هو علم الغيب، كما إنها ترد مرتبطة بالخشية وهذا يدلل على أن معنى الكلمة مرادف للتقوى أو المتقين، وكان العالم - بالمعنى المعاصر للكلمة أى من العلم الوضعى - فى اللغة العربية القديمة يسمى الحكيم أو العارف، فيقال الحكيم ابن سينا أو الحكيم الفارابى.

أما كلمات عالم Scientist وعلم Science فهى كلمات حديثة، ولم تعرف إلا فى عصر النهضة الأوروبية، كما أنها لاتنطبق بحال على عمليات التفسير والتأويل والنقل والاجتهاد.

أما الآية ٤٣ فى سورة النحل: «وما أرسلنا من قبلك إلارجالاً نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» فمعنى عبارة أهل الذكر فى السياق واضح، وهم أهل الكتاب أى اليهود والنصارى.

وكان العرب فى العصر العباسى الأول يميزون بين العلم وبين العقل؛ فكان أهل العلم هم أهل النقل والحفظ والتفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام والنحو واللغة، وكان أهل العقل هم أهل الفلسفة والفلك والطب والكيمياء والسحر والتاريخ والاستنباط والابتداع، ويفرق ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان» -الجزء الأول- بين الخليل بن أحمد وابن المقفع على أساس أن الأول عقله أكثر من علمه، وإن الثانى علمه غلب عقله.

وفى كل الأحوال لايوجد فى النص، ولا فى النقل، ولا فى الدواعى الموضوعية فى الدين الإسلامى، ما يبرر الاحتراف الدينى. أو يجيز الارتزاق به، وكان الرسول والصحابة والأئمة العظام فى تاريخ الإسلام يرتزقون من التجارة والرعى، ونسخ الكتب، والتعليم الحر.

وبذلك كان استعمال رجال الدين لكلمة علماء أو إطلاق مفردة عالم على رجل الدين هو تحريفا للكلم عن موضعه، واغتصابا للمعانى القرآنية.

وعندما بدأ المستشرقون فى البحث والدراسة فى شئون العرب والمسلمين ترجموا كلمة علماء الشائعة إلى الحروف اللاتينية كما هى Ulama تمييزاً لها كلمة علماء Scientists[٣٢].

وفى اليهودية والمسيحية يوجد مبرر نظرى تاريخى لوجود رجال الدين، بسبب انقطاع الرسل؛ فكان الكهنة الربانيون والحواريون والرهبان يحملون عبأ الرسالة حتى مجيئ الرسل، كما أن الديانتين كانتا تضعان شروطاً قاسية للانخراط فى سلك رجال الدين وسلك الرهبانية، ولا يمنع ذلك بالطبع من وجود الانحرافات ومصالح الجماعة الوظيفية بينهم.

وقد ظهرت كلمات وعبارات مثل: فقه، و«فقيه» و«حفظة القرآن» و«المعلوم من

الدين بالضرورة» فى العصر العباسى بعد أن استقرت الجماعة الوظيفية الدينية، واحتاج الأمر إلى نوع من التوصيف لها، أو بمعنى أدق، أن توصّف نفسها.

ظهور الجماعة الوظيفية الدينية:

بدأت الجماعة الوظيفية الدينية بعد تأسيس الدولة العربية الأولى فى دمشق، وحينما نشأت الحاجة إلى دعم عشيرة ضد عشيرة أخرى، وعندما استعمل الدين كوسيلة سياسية؛ عندها بدأ الاحتراف الدينى وبدأت ظاهرة الفقهاء الرسميين، وبالطبع ظهرت حينئذ الفتاوى مدفوعة الثمن، وكان تخلى معاوية بن أبى سفيان عن إمامة الصلاة بداية لوجود رجل دين.

لكن الجماعة الوظيفية الإسلامية لم تأخذ مظهرها المعروف إلا فى العصر العباسى الأول، وبعد أن ترتب على وجود الدولة الأموية عدة ظروف، تبلورت تماماً فى العصر العباسى وهى:

- خروج الإسلام إلى بيئات أخرى غير بيئة المدينة ومكة، مما جعله يختلط بلغات وثقافات وتراثات أخرى.
- حشد المجتمع والجيوش ضد أقوام أخرى أى عندما بدأ عصر الغزوات.
- استغلال الحكام للعاطفة الدينية فى تمرير سياسات الحكم وأغراضه.
- الحاجة إلى من يقوم بوظائف القضاء والتعليم فى كَنَف الحكام، حيث بدأ التعليم بأنواعه فى المساجد أولاً. وربما كان ذلك هو أحد أسباب التفتت إلى فرق ومذاهب وشيع؛ فقد كانت فى الأصل انقسامات سياسية وعرقية وقبلية وطائفية دعمتها الفتاوى والاجتهادات الدينية.

ورافق الظاهرة تكوين الأنساق الفكرية الإسلامية المعروفة، والمعتمدة على سير الأشخاص والفتوحات العسكرية والانتقائية المغرضة. وعندها ظهرت الأحاديث النبوية الغير صحيحة، وذكر الوقائع ملتوية الأهداف، وبدأ طوفان الفتاوى. وهنا تحول الإسلام إلى أيدلوجية لها حزبها ومدارسها وتنظيماتها. ومن هنا أيضاً بدأت ظاهرة تلازم رجل السيف والفقيه[٣٤] و فى بعض الأحيان رجل السيف الفقيه.

ومثل كل الأيدلوجيات تبدأ بالمثاليات،ثم تمر بمرحلة التطبيق على الواقع، فى البداية بتعسف، ثم بواقعية، فبدأت الأفكار «المرنة» فى الظهور مثل «سلاطين المتغلبة» و«أمراء الأمر الواقع»[٣٥] وهكذا فرضت الحقائق السياسية نفسها على تلك الأيدلوجية، والتى تحولت مع التجريب وطول الزمن إلى أحد الوجوه المميزة للاستبداد الشرقى، وأحد الاقنعة المفضلة لطغاة الشرق.

وليس معنى ذلك أن ظهور الجماعة الوظيفية كان محكوماً بعناصر سلبية على الدوام؛ فرجل الدين من حيث الفكر هو شخصية مثالية، لأنه يعبر عن قيم مثالية فى[٣٦] شكلها المجرد، لكنه من الجانب السوسيولوجى محكوم بأغراض الجماعة الوظيفية، وبالأيدلوجية السائدة، ومرتبط بالسلطة السياسية كعضو فى جماعة تصعد بصعودها وتهبط بهبوطها. ولم يعدم الأمر وجود من قام بالغناء خارج السرب الأيديولوجى، وحتى التضحية بالحياة من أمثال: الحلاج وشهاب السهروردى، ومن ساهم فى عطاء له أفق حضارى واسع مثل ابن رشد، ومن أبدع مثل ابن حزم الأندلسى، ومن قام بمحاولة تأسيس نسق معرفى آخر داخل الإسلام مثل الصوفيين أمثال: ابن الفارض ومحى الدين ابن عربى.

وكما أن كل الجماعات الوظيفية يحاول عدد من القوى السياسية استغلالها، وتحاول هى أيضاً أن تصبح فئة متميزة أو طبقة عليا، أو تحاول الوصول إلى الحكم، كما حدث فى إيران وأفغانستان والسودان، وكما تحاول فى الجزائر ومصر.

ومن الطبيعى أن لا تكون هناك جماعة وظيفية إسلامية واحدة، وإنما تصبح لكل مجتمع جماعة وظيفية دينية خاصة به، وتجمع الجماعات الوظيفية من بلد إلى آخر بعض المشتركات الأيدلوجية والتراثية، ولكن هذا الجانب محدود التأثير، إذ أن غاياتها متنوعة بتنوع المجتمعات وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحجم تأثيرها؛ ودليل ذلك أنه عندما كانت تقع الحرب بين دولتين إسلاميتين كانت المواجهة تحدث بالضرورة بين الجماعتين الوظيفيتين فى البلدين، كما حدث فى حرب الخليج الأولى والثانية.

المؤسسة الدينية فى مصر:

لم تتحول الجماعة الوظيفية إلى مؤسسة إلا عندما تم التعامل معها كإطار له سلطة مركزية وتشكيل هرمى، ولم يتم ذلك فى مصر إلا فى عصر الخليفة العثمانى سليمان القانونى؛ عندما تم تعيين شيخ للأزهر فى ١١٠١ هـ(٣٧) على نمط شيخ الإسلام فى تركيا، وفى نفس الوقت أخرج وظيفة القضاء على المذاهب الأربعة من الأزهر وأسندها إلى قاضٍ واحد هو قاضى عسكر، وكان تعيين شيخ للأزهر يهدف فيما يبدو إلى حسم الصراع بين المذاهب، عن طريق تغليب مذهب الأغلبية، وكان هذا المذهب فى مصر هو المذهب الحنفى. إلا أن إخراج القضاء من أيدى من يعتبرون أن الشريعة هى أهم اختصاصاتهم، كان يعنى تقليص دور الجماعة الوظيفية، ثم المؤسسة الدينية. وكان ذلك فى جانب منه يرجع إلى تأثر الأتراك بالدول الأوروبية التى كان للقضاء فيها دواوين مستقلة.(٣٨)

قبل تلك الإجراءات كان الأزهر كمسجد ومدرسة يتبع السلاطين والأمراء والأغوات، وكانت الجماعة الوظيفية الدينية تذوب فى المجتمع.

ولايعنى قيام المؤسسة الدينية تطابق حدودها مع حدود الجماعة الوظيفية الدينية، أو أن سلطتها كانت تشمل وتضبط الجماعة الوظيفية على الدوام؛ فقد أثبتت الأيام والوقائع أن ذلك يحدث بتناسب طردى صعوداً وهبوطاً بصعود وهبوط دور الدولة، وهو ما ينتج عنه تطابق أهداف المؤسسة الدينية كما تحددها الدولة مع أهداف الجماعة الوظيفية، أو مع قدرة الجماعة الوظيفية الدينية على صياغة أهداف لنفسها، مغايرة لأهداف الدولة ومؤسستها الدينية، كما سيبين لاحقاً.

الحملة الفرنسية والمؤسسة الدينية:

أصيبت المؤسسة الدينية فى مصر بضربة قاصمة، مثلما أصيب النظام السياسى والاجتماعى كله فى مصر على يد الحملة الفرنسية، إذ انكسرت حلقة الشرعية التى كانت تربط بين الخلافة العثمانية و المماليك العثمانيين المؤسسة الدينية وجماعتها الوظيفية، ولم يجُدْ فى شيء إشراف الجند العثمانيين على خروج الفرنسيين من

مصر، إذ أن ذلك تم فى ظل اليد العليا للجنود الإنجليز ولبريطانيا،[٣٩] وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد كلياً، جعل مياه البحر المتوسط عنصر اتصال بين مصر وأوروبا، بل بكل حوض المتوسط.

وقد أفاق المصريون والشيوخ، على حد سواء، على وجود علوم ومعرفة أخرى غير «العلوم» والمعارف الدينية المغلقة، على أنه توجد قيم إنسانية أخرى أعمق وأجرأ من تلك القيم التى كان يلوكها شيوخ المؤسسة الدينية فى خدمة الإقطاع المملوكى والخلافة التركية المريضة، هى قيم الثورة الفرنسية عن المساواة والإخاء والحرية.

ومع الاكتشافات الأثرية و تأسيس علوم المصريات اكتشفوا وجود تاريخ آخر غير القراءة الدينية للتاريخ، وكان ذلك دعماً معرفياً للدولة المدنية فى مصر وأوروبا أيضاً.

ولم يكد يتم إغلاق ملف الحملة الفرنسية حتى كانت المؤسسة الدينية، ومن بعدها الجماعة الوظيفية الدينية، قد فقدتا الكثير من المصداقية فى المضمون والشكل، فقد ظل صدى تبشير الشيوخ بـ «نابليون» ومن بعده خليفته «مينو»، كأمراء للمؤمنين، ومشاركة الشيوخ فى ديوان الإدارة الذى أسسه نابليون، وقصائد الشعر التى تتضمن الغزل المكشوف الذى كتبه عدد من الشيوخ غراما وصبابة فى بعض ضباط نابليون وعيونهم الزرق وشعرهم الذهب[٤٠]، و ماهو أكثر مما لايزال عالقاً بالأدب الشعبى فى مصر عن الشيوخ فى هذا المجال!

محمد على والمؤسسة الدينية:

تقلص دور المؤسسة الدينية مرة أخرى خلال صعود مشروع محمد على، ومن بعده الخديوى سعيد، والخديوى إسماعيل؛ إذ بدأت عودة المبعوثين من أوروبا، وبدأ عصر الدواوين الحكومية، وعصر الصحافة والعلوم الوضعية، وصعود دور المدن والتعليم المدنى بكل مستوياته، وكان ذلك ضربة قاصمة أخرى لدور المؤسسة الدينية، وهو خروج التعليم أيضاً من اختصاص المؤسسة الدينية، وتبقى التعليم فيها كما هو فى حدود التعليم الدينى، وبصيغته التقليدية القديمة. وعندما تم إنشاء كلية دار العلوم لتعليم اللغة العربية وآدابها ثم إلحاق مدرسة القضاء الشرعى بوزارة الحقانية وإخراجها

من الأزهر سنة ١٩١٦ كان معنى ذلك أن معامل التطور وتقويض وظيفة الأزهر مستمر بفعالية، وهكذا بدأ دور المؤسسة الدينية فى الانكماش بصعود دور الدولة الحديثة، وهنا يمكن اكتشاف ذلك العامل الذى سبق اكتشافه فى أوروبا إبان عصر النهضة، وهو علاقة التناسب العكسى بين الحداثة وبين المؤسسة الدينية.

ولم تكن الدعوة إلى الإصلاح الدينى التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده سوى محاولة إعادة تأهيل للمؤسسة الدينية، للرد على تحدى الدولة الحديثة، وتنامى دور مؤسسات المجتمع المدنى، وكانت مناداته مع جمال الدين الأفغانى بفكرة المستبد العادل مجرد محاولة للوقوف فى وجه التعددية السياسية، التى كان لابد لها أن تقود إلى الاعتراف بالتعددية الدينية والمذهبية، وقبل كل ذلك الحريات الاجتماعية التى تنال من ركام القيل والقال الذى تجلس فوقه المؤسسة الدينية. غير أن يأس محمد عبده من قدرة المؤسسة الدينية على التحدى كان واضحاً، أثناء رقاده فى فراش المرض قبل وفاته فهو القائل:

لكنه دين أردت صلاحه

أحاذر أن تقضى عليه العمائم(٤١)

ساهم مشروع محمد على فى نهاية آخر امبراطورية دينية فى التاريخ، وهى الامبراطورية العثمانية عندما هزمهم إبراهيم باشا فى موقعة نصيبين فى يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٩، وكان ذلك تحدياً تسبب مع عوامل أخرى فى صعود تيارات التغيير داخل تركيا نفسها.

وشكل كل ذلك تداعياً ليس فى الأسس التاريخية، والدواعى العملية، لوجود المؤسسة الدينية، ومن خلفها الجماعة الوظيفية الدينية، بل إن ذلك حمل نُذر إغلاق ملف القيم والمعرفة الشرقية، وبداية عصر الحداثة والحضارة الأوروبية العالمية.

وبالرغم من أن تأسيس الدولة الحديثة الأولى (عصر محمد على إلى عصر إسماعيل) قد اعتمد فى جانب منه على متمردى الأزهر من أمثال الشيخ حسن العطار ثم رفاعة الطهطاوى وعلى باشا مبارك، فإن ذلك تم بعد أن تغيرت ثقافتهم،

وتفتحت آفاقهم بالاطلاع على الثقافة الأوروبية وقيم حضارتها.

وتكرر الأمر نفسه بعد ذلك خلال تأسيس الدولة المصرية الحديثة الثانية (من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٥٢) وكان منهم د. طه حسين، وسعد زغلول، وعلى عبد الرازق، ومصطفى عبد الرازق، وقاسم أمين، ولطفى السيد، ود. محمد حسنين هيكل والأخوة تيمور، وأحمد أمين، وأمين الخولى، والعبادى، وغيرهم كثيرون.

الأصول الاجتماعية لرجال الدين:

كان «العلماء» ينتمون إلى أصول اجتماعية واحدة مع بعض الاختلافات الطفيفة، فهم ينحدرون فى الغالب من طبقات فقراء ومتوسطى الفلاحين، وقلة قليلة من أغنياء المدن.[٤٢]

وفى ضوء ظروف التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، حيث إنه كان يتكلف الكثير، فقد كان السبيل الوحيد للطبقات الفقيرة هو الأزهر الذى فتح صدره لمن لم يستطيعوا تحمل مصروفات المدارس المدنية، وأصبح التعليم فى الأزهر حسنة من الحسنات ونوعا من التقريب بين الغنى والفقير، ولو فى المستقبل البعيد.[٤٣]

ويقول شيخ الأزهر الأحمدى الظواهرى: «ومما يدعو للابتئاس أنهم فى فترة ما كانوا يقدمون الفتاوى وفق أهواء من يستفتيهم طمعاً فى نوال شىء، وقاعدتهم فى ذلك نحن مع الدراهم قلة وكثرة».[٤٤]

نتج عن هذا الانتماء الاجتماعى إلى فقراء الريف، مضافاً إليه ثقافة الريف المغلقة التراثية والمعارف النقلية الانتقائية العائشة فى الماضى، وفى مجتمع به خلل اجتماعى، كل هذا جعل المؤسسة الدينية وقاعدتها الجماعة الوظيفية الدينية على خصومة بينة مع التجربة الليبرالية، ومع مشروع الطبقة الوسطى، وهذا ما وضعهما معاً (المؤسسة والجماعة) فى حلف مدرسة الشرق، وكان الملك فؤاد ومن بعده خليفته فاروق هو عندهم الرئيس الدينى وخليفة رسول الله[٤٥].

وعندما انتفضت جماهير حزب الوفد سنة ٣٦ ضد الملك وهتفت: «الشعب مع النحاس .. النحاس أو الثورة» ؛ خرجت مظاهرة من حلف مدرسة الشرق تهتف: «الله

مع الملك».[٤٦]

المؤسسة الدينية والسياسة:

شكل الأزهر ميداناً للصراع بين القوى الدستورية وبين القصر الملكى؛ فقد أصر السلطان أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) على الانفراد بتعيين شيخ الأزهر أثناء صياغة دستور ٢٣ ونجح فى ذلك؛ إلا أن وزارة عبد الخالق ثروت نجحت فى انتزاع هذا الحق منه، بجعل الملك يعين شيخ الأزهر بأمر ملكى بناء على ترشيح رئيس الوزراء[٤٧].

وكان نتيجة مشاركة طلاب الأزهر وبعض الشيوخ فى تأجيج الفتنة الطائفية فى الفترة من سنة ١٩٠٩ إلى ١٩١١ أن ورد فى أحكام القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١: «المدرسون والطلبة ممنوعون منعاً باتا من الاشتراك فى أية مظاهرة .. ومن مكاتبة الجرائد فى غير المسائل العلمية والدينية ... وأما الاحتفالات المألوفة عادة فلا تعد من المظاهرات» ونص على الفصل للطلاب وتحويل المدرسين إلى مجلس تأديب فى حال المخالفة[٤٨].

وعند إنشاء قسم الوعظ والإرشاد فى الجامع الأزهر، وهو أبرز الأقسام اتصالاً بالجماهير، أكد على المرشدين عدم التعرض للشئون السياسية بوجه من الوجوه، وعليهم أن يكونوا خير عون للحكومة السنية ..»[٤٩]

غير أن اتجاه المجتمع فى مصر يوما بعد يوم إلى المنحى العلمانى فى السياسة، وفى القوانين، وتبلور ثقافة الطبقة الوسطى، ودعم مؤسسات المجتمع المدنى، كل ذلك نتج عنه اهتزاز صورة المؤسسة الدينية والجماعة الوظيفية الدينية، وأصبحت فنون الكاريكارتير تتعرض بشكل منتظم لشخصية رجل الدين، وحتى لشيوخ الأزهر، وكانت صورة رجل الدين فى السينما المصرية أقرب إلى الكاريكاتير، وامتلأ الأدب الشعبى بصور التهكم على رجال الدين، ولم يستثن من ذلك الطقاطيق والأغانى من نوعية «ايه رأيك ياشيخ قفاعة» لسيد درويش.

وساهم ذلك شيئاً فشيئاً فى انحياز المؤسسة والجماعة إلى حلف مدرسة الشرق

واحتضانها التدريجى للأيدلوجية الإسلامية ساعد على ذلك احتضان «ولى الأمر» (الملك) لهم.

وهكذا تم تطبيق المادة ١٠١ من القانون ١٠ لسنة ١٩١١، والتى تجيز إخراج العالم من زمرة العلماء «إذا وقع منه ما لايناسب وصف العالمية»، فى سنة ١٩٢٥، وطبقت هذه المادة على الشيخ على عبد الرازق مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وتم ذلك لحساب الملك، حيث شكل الكتاب عقبة كئود، أمام طموح الملك للحصول على الخلافة، ولقب أمير المؤمنين.[٥٠]

وعندما أصبح العديد من الشيوخ أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين، بل فى الجهاز الخاص السرى، ثبت ضلوعهم فى أعمال الإرهاب، ولم يحرك الازهر ساكناً. ومن هؤلاء الشيخ سيد سابق الذى تمت إدانته دون حكم فى قضية اغتيال النقراشى وقال له القاضى بعد صدور الأحكام: «أما أنت ياشيخ سيد فدورك واضح ومبين ..ولكن للأسف فالقانون لايطولك بعقاب!! فاتق الله فى الشباب .. اتق الله فى دينه وعباده» ..[٥١]، وكان القاتل قد اعترف بتحريض وفتوى القتل للشيخ سيد سابق.

المؤسسة الدينية وجمهورية يوليو:

بالرغم من أن عبد الناصر كان فى تصوره الاجتماعى أقرب إلى جمعية مصر الفتاة منه إلى جماعة الإخوان المسلمين[٥٢] إلا أن الأيدلوجية الإسلامية كانت هى الثقافة الفعلية له ولجماعة من الضباط الصغار الذين ليست لديهم ثقافة معاصرة، ولهم ذهنية محافظة وذوى انتماء اجتماعى مرتبك ومشوش، وتكمن هنا خطورة عدم تمتع جمهورية يوليو العسكرية بخطاب ثقافى، وهو ما حرث الأرض أمام الأصولية الإسلامية فيما بعد.

ويمكن التدليل على ذلك بعضوية أغلب أعضاء تنظيم الضباط الأحرار فى جماعة الإخوان المسلمين، والبعض منهم، وبينهم عبد الناصر، كانوا أعضاء فى الجهاز الخاص، وشاركوا فى أعماله الإرهابية.[٥٣]

وقد مجد عبد الناصر دور الأزهر فى المثياق[٥٤]، وتحدث عن دين ثورى[٥٥]،

وفى كتاب فلسفة الثورة يتحدث عبد الناصر عن الحج كبرلمان إسلامى!![٥٦]، ومن الواضح التضارب بين رؤيته لدور الأزهر، ورؤيته للحملة الفرنسية؛ فى فلسفة الثورة يرى أنها (أى الحملة) رسالة حضارية[٥٧]، وفى الميثاق يرى أن الأزهر كان يموج بتيارات التغيير فى نفس الوقت، ويرى أن الحملة الفرنسية فتحت عيون مصر على التقدم[٥٨]، كما قال: «كل مسلم يجب أن يكون رجل دين ورجل دنيا فى وقت واحد معاً»، وردت العبارة بحرفيتها فى مقدمة القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ لتنظيم الأزهر[٥٩]، وفى خطاب لعبد الناصر فى ٢٨ - ٧ - ٦٣،[٦٠] ثم حدد انتماء مصر فى ثلاث دوائر: العربية والافريقية والإسلامية[٦١].

لم تمض سنة ٥٣ حتى كان قد تم الإفراج عن المسجونين فى قضايا الإرهاب من جماعة الإخوان مثل: قضية قنابل الكريسماس، والعربة الجيب، واغتيال النقراشى، واغتيال المستشار الخازندار، وقنبلة محكمة مصر، ومحاولة اغتيال إبراهيم عبد الهادى، والاعتداء على حامد جودة.

وشارك الإخوان فى أول حكومة بعد انقلاب يوليو، واستثني الإخوان من قرار حل الأحزاب، وتم تطهير وزارة الداخلية من كل خصوم الإخوان،[٦٢] وتم إشراك الإخوان فى لجنة إعداد دستور فى يناير (كانون ثانى) سنة ٥٣ بأربعة أعضاء من خمسين عضوا هم أعضاء اللجنة[٦٣].

وفى الوقت نفسه، كانت عمليات التطهير تدور على قدم وساق، للخلاص من أنصار الديموقراطية فى كل أجهزة الدولة، وفى المؤسسات العلمية والقانونية؛ حتى أن عدد من أساتذة الجامعات الذين شملهم التطهير حوالى ٤٥٠ أستاذاً أغلبهم من خريجى أشهر وأهم جامعات أوروبا، وتم تعيين صاغ (رائد) تعليمه أقل من المتوسط (شهادة الثقافة) وعضو جماعة الإخوان فى منصب وزير المعارف لمدة ١٢ سنة متواصلة، وفى نفس المكان الذى شغله قبل ٣ سنوات عميد الأدب العربى د. طه حسين، ولكن محاولات الإخوان لم تنقطع للسيطرة على الانقلاب، باعتبار أنهم الأصل ومجموعة الانقلاب هى مجرد فرع، وغابت عنهم بديهية أن من معه السلطة

فى النظم الانقلابية يصعب عليه أن يقتسمها مع أحد، وهكذا سرعان ما انفجر الصدام الدموى، وتم تصفية جماعة الإخوان وإيداعهم السجون، بعد حادثة المنشية الشهيرة، سنة ٥٤ وتم إعدام ٦ بينهم ٤ من أهم قيادات الإخوان.

سيكولوجية المنبر .. والهزيمة الثانية:

عندما ذهب عبد الناصر إلى الأزهر فى ٣١ أكتوبر (تشرين ثانى) سنة ١٩٥٦ كى يقول: «سنقاتل .. سنقاتل»، «قد فرض علينا القتال ولم يفرض علينا الاستسلام»؛ لم يكن ساعتها يقوم بالحشد فقط من أجل المعركة مع العدوان الثلاثى، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يعيد الاعتبار إلى سيكولوجية المنبر، حيث يجلس شخص فى مكان عال أمام ميكرفون، وبجواره «القبلة» وحوله الآيات القرآنية، وأمامه أناس يجلسون فى خشوع، وفى ذلك الوضع يبدأ ذلك الشخص فى الحديث بخطاب تحريضى وتلقينى، وخلط الحقائق واللاحقائق بالأوهام، ووضع البلاغة فى خدمة الجهل، وصناعه أولويات زائفة، ويتعرض لكل شىء بدءاً من زرع الأعضاء وعلوم الفضاء وحتى علوم الحرب وعالم السياسة والاقتصاد؛ ولمدة تقرب من ساعة أسبوعياً، وفى كل أنحاء البلاد، وهكذا وجد عبد الناصر ضالته فى الحزب الوحيد الذى يعمل فى الشارع منذ ذاك الوقت فى مصر، وهو «حزب الجمعة»، (كان الغرض من خطبة الجمعة فى العصور القديمة هو الدعاء للحاكم وتعداد مناقبه).

وكان منطقياً بعد ذلك أننا اكتشفنا أن عبد الناصر عندما ذهب إلى الأزهر، كان الجيش المصرى قد انهارت خطوطه كلها أمام إسرائيل، وتلقى أمرا بالانسحاب، وتم احتلال سيناء، قبل التدخل البريطانى الفرنسى!

وهكذا، وفى تطبيق آخر مؤلم ومرير لثنائية الحرب والهزيمة، مرت الهزيمة الثانية والأفدح فى صمت، وساعدت على هذا الصمت الأوضاع الدولية التى أجبرت قوى العدوان على الانسحاب، ولكن بعد أن حصلت إسرائيل على حق مرور سفنها وعلمها فى خليج العقبة، ومرور بضائعها فى قناة السويس.

مياه أخرى في النيل:

فى ظل دكتاتورية عسكرية ريفية مارست الجماعتان الوظيفيتان (العسكرية والدينية) خصومتهما التى لا تشفى من أمراضها مع الدولة المدنية، ومؤسسات المجتمع المدنى، والفكر العلمى والديموقراطى، ومشروع الطبقة الوسطى، كما أن تنامى دور الجماعتين الوظيفيتين كان يعنى تعطل القراءة الطبقية وتبديد النُخَب.

وهكذا حدث الزواج الكاثوليكى، فالسلطة العسكرية التى تفتقر إلى الشرعية وجدت شرعيتها فى الإلهام المذهبى الذى تبثه المؤسسة الدينية، والمؤسسة الدينية أعيد بعثها من جديد بعد أن كانت مهددة بالتهميش والنسيان، والدخول تحت مظلة التراث والفولكلور، إذا بها تتحول إلى فاتيكان إسلامى، وهكذا تأسست علاقة أشبه بعلاقة الإقطاع العسكرى مع بابوية روما فى القرون الوسطى.

وكانت البداية عدة إجراءات وتشريعات إدارية وقانونية نوردها كعينة على سبيل المثال وليس الحصر:

١ – أصبح تعيين شيخ الأزهر حقاً مطلقاً لرئيس الجمهورية صاحب السلطات المطلقة، بعد أن كان يعينه الملك بناء على ترشيحات الحكومة (المنتخبة).

٢ – تم إنشاء المؤتمر الإسلامى فى سنة ١٩٥٤.

٣ – انشئ المجلس الإعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٦٠ من ٦ لجان، وكان تابعاً مباشرة لرئيس الجمهورية، ورأسه عضو بمجلس الثورة،[٦٤] هو أنور السادات؛ ثم توفيق عويضة بعد ذلك، وهو من الضباط الأحرار.

٤ – كانت الجمعية الشرعية جمعية أهلية ذات توجه صوفى أسسها الشيخ محمود خطاب السبكى، ومن بعده الشيخ أمين محمود خطاب فى عشرينيات القرن، وكان مقرها مسجداً صغيراً فى ميدان باب الخلق؛ فتم بناء مسجد الجلاء لها، ووضع على رئاستها ضابط، وأصبح مقره رئاسة الجمهورية!!

٥ – صدور القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها[٦٥]، وكى نتبين عمق تأثير ومدلول هذا القانون سنضعه فى مقارنة مع قانون

آخر لإعادة تنظيم الأزهر قبل سنة ١٩٥٢ وهو القانون ٤٩ لسنة ١٩٣٠ بإعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية،. مع ملاحظة أن قوانين تنظيم الأزهر منذ القانون ١٠ لسنة ١٩٠٨ وحتى سنة ٥٢ متشابهة فى توصيف الأزهر ومسئولية شيخ الأزهر.

ويلاحظ أن اسم الأزهر كان «الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية» فأصبح «أزهر والهيئات التى يشملها».

كان الجامع الأزهر هو المعهد الدينى العلمى الإسلامى الأكبر والغرض منه:

١ – القيام على حفظ الشريعة الغراء ... وعلى تعليم اللغة العربية.

٢ – تخريج علماء يوكل إليهم تعليم هذه العلوم ... (مادة١).

وأصبح الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى .... وتحمل أمانة إمامة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر ورقى الحضارة وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا وفى الآخرة، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية، .... وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح، كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة .... ويتبع رياسة الجمهورية. (مادة ٢)

ويلاحظ أنه لأول مرة أصبح الأزهر مسئولاً عن كل التراث الإسلامى، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية، وأن على عاتقه بعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية!، وأن يخرج أصحاب «الرأى» (على سبيل الحصر) فيما يتصل بالشريعة والثقافة الدينية و العربية و اللغة العربية . وأنه من مسئولية العلماء تأكيد الصلة بين الدين والحياة.

– كان شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين والمشرف الأعلى على

السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى أهل العلم وحملة القرآن الكريم (مادة٩).

فأصبح هو الإمام الأكبر وصاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشئون الدينية (مادة٤).ويلاحظ أن حدود سلطة شيخ الأزهر كانت المسئولية عن رجال الدين فقط ورئاستهم، فأصبح صاحب «الرأى» فى كل ما يتصل بالشئون الدينية، أى أنه أصبح مسئولاً عن الإسلام.

- كانت هيئة كبار العلماء مكونة من ٣٠ عضواً من المصريين (مادة ١٢).

فأصبحت مكونة من ٥٠ عضواً بينهم ٢٠ من غير المصريين وأصبح (اسمها «مجمع البحوث الإسلامية وإدارة الثقافة والبعوث الإسلامية» وهذا معناه تخطى النطاق المحلى (الباب الثالث - مادة ١٦).

- كان الأزهر مؤسسة مصرية فى كل واجباتها وإدارتها.

فأصبح للأزهر شخصية معنوية عربية الجنس (مادة ٦).

- كان الأزهر يتبع فى أنشطته المختلفة عدة وزارات، هى: المالية والأوقاف والمعارف والحقانية (مادة ٢٢). فأصبح له وزير لشئون الأزهر يعين بقرار من رئيس الجمهورية (مادة٣).

- كان مجلس الأزهر الأعلى مشكلاً من ١٤ عضواً بنسبة ٧ مشايخ إلى ٧ مدنيين (مادة ٢٢).

فأصبح المجلس الأعلى للأزهر لايقل عدده عن ٢٥ عضو، وأصبح مؤسسة بيروقراطية تابعة إدارياً للدولة (مادة ٩).

- كانت كليات الأزهر ثلاث كليات هى (الشريعة - أصول الدين - اللغة العربية (مادة ٢).

وكانت تتبعه ٧ معاهد فى المحافظات (ابتدائي وثانوى) (مادة٤).

فأصبح بداخله جامعة كاملة فيها كل أنواع الكليات، مثل: الهندسة والطب والآداب والعلوم والصيدلة وخلافه من ١٣ كلية، ولها فروع فى المحافظات - وبالطبع

لها شرط أساسى وضمنى هو أن الطالب لابد أن يكون مسلماً (الباب الخامس مادة ١١١) ومعنى ذلك أنه تم تأسيس جامعة على أساس طائفى، يصبح الطالب فيها دارساً للعلم الوضعى بصفته مسلماً ؛ أى أنه بصيغة أخرى يصبح طبيباً أو محاسباً لأنه مسلم!!.

٦ – تم إنشاء دار القرآن فى ١٤ مارس (آذار) سنة ٦٤ لنشر التراث القرآنى.[٦٦]

٧ – تم إنشاء إذاعة القرآن فى ٣١ مارس (اذار) سنة ٦٤ بمعدل ١٤ ساعة حتى سنة ٦٧ ثم زيدت بعد ذلك.[٦٧]

٨ – أصبح من المألوف وجود الشيوخ فى لجان الرقابة على السينما والفنون والإذاعة والتليفزيون لتمرير مبدأ الرقابة أولاً، ولتحكيم القيم المحافظة فى فكر المجتمع وأنشطته الإبداعية.

٩ – سمحوا للشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر فى منتصف الخمسينيات أن يدخل التربية العسكرية فى برامج التعليم بالأزهر.[٦٨]

١٠ – سمح نظام يوليو لشيوخ الإخوان المسلمين، ذوى الذهنية الجهادية بالالتحاق بالمؤسسة الدينية، سواء بوزارة الأوقاف أو بمعاهد الأزهر، وعلى سبيل المثال تم تعيين الشيخ سيد سابق والشيخ محمد الغزالى فى إدارة عموم المساجد فى وزارة الأوقاف، كما قاموا بتأسيس لجنة «الدفاع عن الإسلام» وهى اللجنة التى اقترحت على رئيس الجمهورية مصادرة كتاب «أولادحارتنا» لنجيب محفوظ[٦٩]، وسمح للشيخ سيد سابق بإمامة جامع الشيخ العبيط فى ميدان التحرير (عمر مكرم الآن)، وهذا تسبب فى تغيير ذهنية المؤسسة الدينية من ذهنية حنفية شافعية ذات روح صوفية فى الغالب إلى ذهنية حنبلية جهادية.

١١ – ألحق العديد من الشيوخ أعضاء جماعة الإخوان بوزارة التربية والتعليم مثل: الشيخ صلاح أبو إسماعيل، والشيخ متولى الشعراوى، ود. أحمد عمر هاشم.

١٢ – طوال مدة الستينيات كان البرنامج الدينى «نور على نور» كل يوم جمعة ولعدة ساعات يديره أحمد فراج وكان عضوا بجماعة الإخوان، وخطورة هذا البرنامج أنه استضاف العديد من الشيوخ المتشددين، ولم يتوقف خطاب البرنامج عند حدود

الدين بل غلبت عليه السياسة، ووجهات النظر الاجتماعية المحافظة والمتشددة.

١٣ - كل مشاريع الدستور خلال فترة حكم نظام يوليو وحتى الآن ورد فيها بالإضافة إلى أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام (وردت فى دستور ٢٣)، مادة «الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع» ثم تحولت فى دستور السادات إلى «الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع»[٧٠]

١٤ - استعار النظام العسكرى فى الجزائر كل سياسات نظام يوليو فى العلاقة بالمؤسسة الدينية خاصة تحت حكم هوارى بومدين (كان طالباً فى الأزهر) والشاذلى بن جديد، وضمن ما سمى بسياسة التعريب؛ كان يعمل فى الجزائر ٢٥٠٠ شيخ مصرى أزهرى وبينهم المئات من أعضاء جماعة الإخوان، مثل: الشيوخ محمد الغزالى وصلاح أبو إسماعيل، ومتولى الشعراوى، ويوسف القرضاوى ومن غير الشيوخ: مثل. أحمد كمال أبو المجد، كما كان من بينهم قيادات شعب فى الإخوان المسلمين وقادة من الجهاز الخاص على مستوى المحافظات[٧١].

حتى أنهم أعادوا تأسيس جامعة قسنطينة الإسلامية، ورأسها الشيخ محمد الغزالى ثم خلفه د. يوسف القرضاوى، أيام الشاذلى بن جديد، وكان للغزالى برنامج تليفزيونى دائم، كما صدر له قرار استثنائي من الهادى الخضيرى وزير الداخلية أيام الشاذلى بن جديد بتحويل أموال زكاة من الجزائر إلى فقراء مصر!! وكانت مبالغ ضخمة لايعرف أحد كيفية إنفاقها فى مصر، والنتائج معروفة.

١٥ - جاءت الفرصة التالية للجماعة الوظيفية الدينية فى جامعة إسلام آباد الدينية فى الباكستان، عندما استعانت بالعشرات من رجال الدين المصريين، وكان من تلاميذهم قادة حركة طالبان الأفغانية، وعندما حدث انفجار السفارة المصرية فى سنة ٩٥ فى إسلام أباد، وصف وزير الداخلية الباكستانى نصير الله بابار الجامعة: «بأنها ملاذ وملجأ للمتطرفين ومعقل للإرهابيين» واتهمهم بتفجير السفارة[٧٢].

١٦ - أما المحطة الخارجية الثالثة فهى غزة حيث يوجد فرع للأزهر، وعدة معاهد ومدارس دينية، على النظام المصرى ، وهكذا يمكن معرفة لماذا انتشرت خلايا حماس والجهاد والتخلف فى غزة، أكثر بكثير من الضفة.

الانقلاب الدينى بعد الانقلاب العسكرى:

كان لابد لتلك البذرة أن تصير شجرة، وكان لابد لتلك الشجرة أن تثمر، ولابد أن تكون تلك الثمار مرة، لأن ثمرة الزواج بين الجماعتين الوظيفيتين -العسكرية والدينية- لابد أن تكون مرة، ويمكن إثبات ذلك بعدة أمثلة:

أولاً: تزامن ازدياد حجم الثروة البترولية العربية مع تلك السياسات نتج عنها خروج الشيوخ إلى العمل فى دول الخليج، وبالتالى ازداد نشاط المنظمات الإسلامية، مثل رابطة العالم الإسلامى، وتزايد التمويل العلنى والسرى بالتالى، وهكذا حصلوا على الاستقلالية المادية، وذلك أدى إلى أن أصبحت حدود تأثير المؤسسة الدينية لا تتطابق مع حدود الجماعة الوظيفية الدينية، وهكذا بدأ الانفصال بينهما، وكان معنى ذلك خروج رجال الدين على سلطة المؤسسة الدينية والدولة معاً.

ثانياً: أصبحت الجماعة الوظيفية أكثر تأثيراً والتصاقاً بالجماهير خاصة فى الأحياء العشوائية والريف، وأصبحت الأزمات المتتالية فى الحياة المصرية أرصدة تأثير للأيدلوجية الإسلامية التى تحمل ثقافة شفاهية (ماقبل موضوعية وماقبل منطقية) موجهة إلى مجتمع تغلب عليه الشفاهية الأمية التى لاتعبأ بالثقافة الكتابية وتخضع لثقافة الصوتيات والمرئيات، فى نفس الوقت الذى أخذت فيه مؤسسات الدولة تتحول إلى أجهزة سلطة متعسفة فحسب.

ثالثاً: أصبح بمقدور الجماعة الوظيفية أن تصنع لنفسها أطراً ومؤسسات بديلة للمؤسسة الدينية، مثل: تفعيل «جبهة علماء الأزهر» والمدارس الدينية وعشرات الصحف والمجلات ودور النشر والمساجد التى تجمع أموال الزكاة، وصناديق النذور، دون أى رقابة،[٧٣] وشركات للكاسيت ومؤسسات اقتصادية متكاملة، ناهيك عن شركات توظيف الأموال الإسلامية، كما يمكن معرفة الحجم الذى وصلت إليه الجماعة الوظيفية، عندما نعلم أن عدد الشيوخ فى مصر ممن يعملون بمهنة الدين يصل إلى ٥٠٠ ألف شيخ[٧٤]، ينتشرون فى ١٩٠ ألف مسجد وزاوية[٧٥] ويتبع وزارة الأوقاف منها ١٢ ألف مسجد فقط وذلك حتى سنة ٩٢ . ويدرسون فى ٦ الاف معهد أزهرى[٧٦] ،بالمدن والقرى بالإضافة إلى ما يقرب من ٢٨٠ معهداً عالياً للعلوم الدينية فقط، وأصبح عدد الطلاب فى المعاهد الأزهرية فى المراحل الثلاث (ابتدائية وإعدادية

وثانوية) مليونا و ٢٥٠ ألف طالب وطالبة[٧٧].

رابعا: بعد أن ازداد حجم الجماعة الوظيفية الدينية وتأثيرها إلى هذه الدرجة صارت قادرة على أن تتحرر من المذهبية المصرية الصوفية، وأن تغير فى التركيب الفكرى للمؤسسة الدينية الرسمية نفسها، أى من الذهنية الصوفية ذات الجذور المذهبية الحنفية والشافعية، إلى المذهبية الحنبلية ذات الطرح البدوى المتشدد، وهكذا وصل تناقض الرأى والفتاوى بين شيخ الأزهر السابق جاد الحق على جاد الحق وبين شيخ الأزهر الحالى والمفتى سابقاً د. سيد طنطاوى إلى أن شمل فوائد البنوك، وختان الإناث، وولاية المرأة، وتنظيم الأسرة، ووثيقة الزواج، وزيارة القدس، والحوار مع الإسرائيليين، وحق الفتوى، وجواز التكفير من عدمه، حتى سمى التناقض بينهما بالحرب الفقهية[٧٨]، ولايمكن لأحد أن يقول إن مواضيع الخلاف فى الفروع ولا أن هناك اتفاقا فى الأصول.

خامسا: كان من الحصاد المر احتضان الجماعة الوظيفية لجماعات الإرهاب المسلح، وقد بدأ ذلك من عدة روافد أختار منها اثنين أولهما السجون وماتتيحه من فترة اختلاط طويلة بين الكوادر القديمة للإخوان المسلمين وبين الشباب، وثانيهما المعسكرات التى تم تنظيمها تحت رعاية الدولة منذ منتصف السبعينيات مثل: معسكر عمر بن الخطاب، ومعسكر أبى بكر الصديق فى الإسكندرية، حيث مارس رجال الدين تلقين الايدلوجية الإسلامية بفعالية وعند استعراض أسماء من اشتهروا بالغلو والتشدد والإرهاب الفكرى أو ارتبطوا بالإرهاب المسلح؛ نكتشف أن نسبة كبيرة منهم هم من الجماعة الوظيفية الدينية، ومنهم التالية أسماؤهم على سبيل المثال وكلهم من خريجى الأزهر:

١ – سيد سابق (سبق التنويه عنه).

٢ – محمد الغزالى وقد حمله الرئيس على كافى رئيس مجلس الدولة الجزائرية مسئولية ما يحدث فى الجزائر)[٧٩].

٣ – محمد فرغلى (أدين فى حادث المنشية أى محاولة اغتيال عبد الناصر – بصرف النظر عن ملابسات الحادث– وكان عضواً بمكتب الإرشاد فى الإخوان).

٤ –عبد الفتاح إسماعيل(أعاد تأسيس الجهاز الخاص فى جماعة الإخوان)[٨٠].

٥ – صلاح أبو إسماعيل (كان عضواً فى جماعة الإخوان وأفرد له د.فرج فودة

فصلاً في كتاب «قبل السقوط» تحت عنوان «أبانا الذى فى الجيزة».

٦ - محمد متولى الشعراوى (صاحب الفتاوى المثيرة للجدل ويتهمه الكثيرون بإحداث الفتنة الطائفية ودوره فى الجزائر لايقل عن دور محمد الغزالى، وكانت له علاقة بشركات توظيف الأموال وخاصة الهدى مصر[٨١] وهناك أخذ ورد حول عضويته فى جماعة الإخوان).

٧- شكرى مصطفى (مهندس زراعى وخريج كلية أصول الدين فى أسيوط ومؤسس تنظيم التكفير والهجرة).

٨ -صالح سرية (قائد الهجوم على الكلية الفنية العسكرية فى أوائل السبعينيات).

٩ - يوسف البدرى (شيخ قضايا الحسبة وقيل عنه محتسب مصر).

١٠ - عمر عبد الرحمن (مفتى الجماعة الإسلامية وهو أحد من كفروا نجيب محفوظ).

١١ - د. محمود مزروعة (رئيس قسم العقائد بكلية أصول الدين وصاحب الشهادة المثيرة مع الشيخ الغزالى فى قضية اغتيال فرج فودة، حيث قاما بتكفيره، وتلمسا المبررات للقتلة لقتله).[٨٢]

١٢ - د. يوسف القرضاوى (كان مديراً للجامعة الإسلامية فى قسنطينة بالجزائر خلفاً للشيخ الغزالى، وكان عضوا بجماعة الإخوان، وله موقع على شبكة الإنترنت، ويحمل الجنسية القطرية بجوار الجنسية المصرية).

١٣ - محمد كشك (شيخ مسجد فى حي دير الملاك، وتنتشر شرائط الكاسيت الخاصة به فى أنحاء العالم العربى).

١٤- إبراهيم المحلاوى (شيخ مسجد فى الإسكندرية، واشتهر بالهجوم الحاد على الرئيس السادات وأفراد أسرته، وقام بدور تحريضي مؤثر).

١٥ - د. أحمد عمر هاشم (مدير جامعة الأزهر ورئيس اللجنة الدينية فى مجلس الشعب عن الحزب الوطنى) وقد قال عن قضية الختان للإناث فى التليفزيون: «كل ده علشان حته جلده» وكان عضوا بجماعة الإخوان.

وقد بلغت قوة تأثير هؤلاء أن بعضاً منهم شكلوا ما سمى بلجنة الوساطة بين الدولة وبين جماعات الإرهاب المسلح(٨٣). وللتدليل على جانب آخر من التأثير نتلمسه فى قدرة الوظيفية الدينية على اجتذاب عناصر مؤثرة من مهن أخرى للقيام بوظيفة رجل الدين؛ من أمثال: د. عبد الصبور شاهين الأستاذ بكلية دار العلوم ولكنه كان إماماً فى جامع بن العاص(٨٤)، وارتبط اسمه بشركات توظيف الأموال، ود. عمر عبد الكافى الذى كان أستاذا بكلية الزراعة، وأصبح إماماً لمسجد أسد بن الفرات فى الدقى، وياسين رشدى الذى كان قبطاناً بحرياً ثم أصبح رجل دين، ود. مصطفى محمود الذى كان طبيباً و صحفياً، ثم أصبح شخصية دينية بارزة، وله مسجد ضخم فى المهندسين يحمل اسمه (كان رجال الدين قبل سنة ٥٢ يهربون من الوظائف الدينية)(٨٥).

وفى إحصاء لأهم أحداث العنف منذ اغتيال السادات فى ٨١/١٠/٦ إلى شهر ٩١/١٠ تبين أن النزاع على المساجد وصل إلى ٢٧ صداما مسلحا وهو من أعلى أسباب الصدام بجانب الصدام مع السلطة، والاعتداء على المدنيين، وكل منهما ٢٧ حالة أيضاً(٨٦)، وكل ذلك يدلل على أن المسجد والزواية خرجا عن سيطرة المؤسسة الدينية والدولة بالتالى؛ ناهيك عن دلالات إنشاء المسجد والزاوية خارج كل القواعد المرعية، سواء فى مؤسسات حكومية أو خاصة، وبغرض تأدية الصلاة لمرة واحدة، هى صلاة الظهر وهى الصلاة الوحيدة التى يحل موعدها أثناء وقت الدوام الرسمى الغالب فى مصر، وأصبح بجوار عبارة: «فوت علينا بكره» عبارة «الموظف بيصلى». وهو تناقض إضافى مع وظائف الدولة ومع هيبتها ومع مصالح الناس، ويبين كيف تمددت مظاهر التدين السطحى، فى حين أن الدين يبيح تأجيل الصلاة.وإذا كانت حقب التاريخ المختلفة تدل عليها عمارتها؛ فإن أحد الملامح البارزة للحقبة الحالية هو حرب المساجد والزوايا؛ حيث أقيمت فوق الحدائق وتحت المبانى وبجوار المستشفيات وفى تقاطع الطرقات وعلى شطآن النيل. وفى الفنادق، وطوابق الإذاعة والتليفزيون وفى الممرات بين العمارات، وفى المناور، وغرف البوابين، ودون اهتمام بعدد من ينتفع بالصلاة فيها

، ولا نعرف من يدفع قيمة الكهرباء والمياه، وفى أحوال كثيرة لاتجد من المصلين مايزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، المهم هو تطبيق سيكلوجية المنبر أو الميكروفون، فى الوقت الذى لم يصرح بإقامة كنيسة واحدة فى أى من المدن الجديدة (باستثناء تصريح واحد فى مدينة ٦ أكتوبر) ولا فى القرى السياحية المتناثرة فى كل أنحاء مصر، وقد أقيم مسجد على الباب الرئيسى للمتحف الزراعى بالدقى، دون أن يكون بجواره منزل واحد، أى أنه مسجد ضخم للصلاة الواحدة، وعلى بعد ٢٠٠ متر منه أقيم مسجدان فوق حديقة أمام وزارة الزراعة، وأقيم مسجد داخل قسم الدقى، بالرغم من أنها أرض عليها نزاع مع السفارة الروسية، وأقيم مسجد ضخم داخل قيادة شرطة المسطحات المائية على شاطئ النيل حيث المبانى ممنوعة، وعلى بعد أمتار قليلة من فنادق النيل وشبرد وسمير اميس والسفارة البريطانية، كما أقيم مسجد ودار للمناسبات على حديقة ضريح أحمد ماهر (الذى اغتالته الفاشية الإخوانية) حيث تشوه مظهر الضريح، وحيث أقيمت «المبولة» على جدار الضريح فى اعتداء صريح، على الذوق العام، وعلى القيم الوطنية، مع توضيح أن الضريح فى مواجهة البطريركية المرقسية ومقر البابا. وفى ميدان رمسيس أقيم مسجد تكلف عشرات الملايين، وله مئذنة بداخلها أسانسير لا يستخدم قط ولاتقام فيه صلاة الجمعة لأسباب أمنية، وبالقرب من ميدان العباسية أقيم مسجد تكلف عشرات الملايين أيضاً وله مأذنة تصل إلى عنان السماء. وهذا يذكرنا بملاحقة المسجد للكنيسة، وحرب الارتفاعات بين المآذن والأبراج فى حرب طائفية صامتة، ولا نعدم أن نسمع أحداً يتحدث بسذاجة عن التسامح والنسيج الوطنى. كل ذلك فى بلد يعيش أكثر من نصفه تحت خط الفقر، ويسكنون المقابر بالملايين، ويموت فيها الناس لعدم وجود علاج لأمراضهم؛ فى حين أن روح الدين تعتبر أن الأرض الخلاء هى المسجد، لكنه التدين السطحى المتعصب، والتقوى الزائفة، وفوق كل ذلك حرب الميكروفونات بين المساجد والزوايا، وكأننا مجتمع مصاب بالانهيار العصبى الجماعى، وبالإضافة إلى تلوث بيئى صوتى بامتياز. وإذا أضفنا المادة الدينية السطحية والفتاوى الريفية الساذجة، التى تبثها أجهزة الدعاية الرسمية لمحترفى

الدين ليل نهار، وبالإضافة إلى كتب عذاب القبر وزواج الجان[٨٧]. بعد كل ذلك يصبح لدينا شريط بالصوت والصورة لزواج الجماعات الوظيفية، وتتوفر لنا الإجابة على السؤال الحرج والخافت عن مصدر الفاشية فى مصر؟ إنها من الريف المظلم، والمسجد السياسى، والثكنة الطموحة.

التناقض يمتد إلى الدولة:

صرح فاروق حسنى وزير الثقافة المصرى يوماً: «أنا وزير الحرام»، وهى عبارة بالغة الدلالة؛ خاصة إذا وضعناها بجوار الحصاد المر الذى نوهنا عنه، وإذا علمنا أن جائزة الدولة التقديرية التى يحصل عليها علماء مصر بعد بلوغ أرذل العمر عادة، قيمتها خمسة آلاف جنيه، وأنه تمر سنوات عدة بين الإعلان عن الجائزة وبين تسلمها، فى حين أن جائزة صبى حفظ القرآن هى خمسة وثلاثون ألف جنيه، يتسلمها فى احتفال مشهود من رئيس الجمهورية، ثم يسافر مع أهله للحج! ولا يحتاج الأمر لإضافة، سوى أنه لايوجد فى فرائض الدين ما يسمى بحفظ القرآن.

إن الزواج بين الجماعتين الوظيفيتين – العسكرية والدينية – شمل السلطة ذات الميول الشعبوية، لكنه لم يشمل مؤسسات الدولة، أو بدقة أكثر، المتبقى من مؤسسات الدولة. ومن هنا ينشأ التناقض.

إن الأعياد والمناسبات التى تأخذ الصفة الرسمية والاحتفاء من أجهزة الدعاية هى عيد الإعلاميين– أعياد القوات المسلحة – أعياد الشرطة – يوم الدعاة (الدينيين) الإسلاميين. وأحيانا يضاف إليها الاحتفالات الرياضية عند تحقيق إنجاز رياضى.

وهى الأعياد التى تتمتع برعاية رئيس الجمهورية حيث يحضرها شخصياً، ويسلم الأنواط والجوائز والأوسمة بنفسه، ولاتوجد احتفالات أخرى تنال تلك الحفاوة أو تلك الرعاية، وليس هذا اعتراضا على تلك الاحتفالات، بقدر ما هو إقرار بحقيقة أن الاحتفاء بالعلم والفن والفكر والثقافة والإنتاج لاتقل أهمية إن لم تزد، فهى وسائل الحداثة والنهضة الحقيقية (كان فى مصر يوم للعلم ويوم للمعلم وللكشافة وللطالب وعيد للقطن وللبرتقال وللزهور ولوفاء النيل على سبيل المثال).

قال محمد على محجوب وزير الأوقاف السابق يوماً: «إن الدين ملك للعلماء»[٨٨] وهى عبارة ذات دلالة عميقة أيضاً، وتجسد التناقض بأفضل تجسيد، وتكشف كيف أن الجماعة الوظيفية الدينية استولت أيضاً على القرار، وليس فقط على ذهنية المؤسسة الدينية، وتكشف أيضاً حصولها على رمزية خاصة تميزها كفئة بمبعدة عن الناس، كما تميزت الفئات الأخرى فى عبارات مثل: «الجيش والشعب»، و«الشرطة فى خدمة القانون» أو «الشرطة والشعب فى خدمة القانون» إنه الاستعلاء الفاشى، فهل بعد الشعب، وبدونه: يوجد دين أو قانون أو قيم من أى نوع؟

وفى سياق التناقض جاء تعيين د. سيد طنطاوى المفتى السابق شيخاً للأزهر، ومن قبله تعيين د. حمدى الزقزوق وزيراً للأوقاف، وكلاهما يتمتع باحترام عام من أنصار الاستنارة؛ جاء ذلك التعيين تعبيراً واضحاً عن التناقض؛ فذلك معناه أن الشخصيات الراديكالية السابقة فى هذه المناصب جاء تعيينها من نفس جهة القرار، وذلك احتمال من اثنين، إما أن السلطة تريد وجوهاً مستنيرة فى المؤسستين بالمعنى البيروقراطى للمفهوم، وإما أنها تتصرف بطريقة د. چيكل ومستر هايد، وكان الدور هذه المرة على مستر هايد ذلك ،لأنه لابد أن المشكلة ليست فى المؤسسة الدينية من الأصل، وأن ضعف المؤسسة الدينية برمتها هو نتيجة وليس سبباً، وتغيير القيادة محدود التأثير فى داخلها، وإن كان سيجعل الرأى الرسمى فيها يميل تجاه التمدين؛ وهذا ما جعل أحد مفكرى الإسلام السياسى هو د. سليم العوا ينتبه يصدر كتاباً عن «أزمة المؤسسة الدينية فى مصر» بسبب التعيينات الأخيرة، وينتقد فيه فكر الاثنين وقراراتهما.

تمام الجمعة:

يرتبط اعتلاء المتطرفين والبسطاء للمنابر فى المساجد والزاويا بالفوضى فى إنشائها وقبل ذلك بالفوضى القانونية التى صنعها نظام يوليو العسكرى الدينى أو التحالف العسكرى الدينى؛ فإنشاء الزاوية أسفل المبانى يعفى أصحابها من الضرائب العقارية المستحقة على الشقق فى هذا المبنى، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يسرع بإدخال المرافق من كهرباء ومياه وصرف إلى المبنى، ومزية ثالثة هى الحصول على تراخيص بناء مجانية

كما يقول مجدى سبلة فى تحقيق بمجلة المصور فى ٩٣/١/٢٩. ومع العلم إن الجهات التى تتخذ هذه التشريعات والإجراءات هى: المحافظون ومجالس المدن ومجالس الأحياء، وهى جهات ذات أنشطة أمنية وأغلب العاملين فيها من رجال الأمن، وهى نفسها الجهات التى تعلن الطوارئ يوم الجمعة، بالإضافة إلى أجهزة الأمن، التى تعلن الطوارئ يوم الجمعة بسبب الاحتمالات الناجمة عن تجمع المصلين خلال صلاة الجمعة فى مناطق التوتر الاجتماعى والأحياء العشوائية وبؤر التطرف، ويعتبر «تمام الجمعة» من أهم التقارير الأمنية فى مصر وأكثرها حساسية (فى الجزائر كان اسمه يوم الجمعة الرهيب)، إنه دكتور جيكل وقد اشتبك مع مسترهايد، وبمعنى آخر إنه الثمن الباهظ لإخراج قيمة الحرية من الشارع، وإحلال الدين مكانها.

مصير القانون:

كنت ومازلت أعتقد أن أهم منجزات المصريين هو الدولة المصرية قبل سنة ٥٢ وفى القلب منها دستور ٢٣ والقضاء المصرى المستقل، وعندما حدث انقلاب يوليو (تموز) سنة ٥٢ وتشكل التحالف الفاشى بين الجماعتين الوظيفيتين فى ظل نظام سلطوى رثّ، وكان من المنطقى أن يؤسس هذا التحالف جهاز الدعاية المصرى، وينشئ آلة الإجرام الأمنية الضخمة وأن يحتل وزارة المعارف، وأن يدمر كل مؤسسات المجتمع المدنى ومؤسسات الدولة المصرية، وأن يؤسس شبكة العنكبوت الضخمة التى شملت الحياة فى مصر، وهكذا دارت العجلة.

ولكن ظلت هناك ضمانة تحمى النضال الديموقراطى، وتحيى الأمل فى عودة الديموقراطية والحريات ومؤسسات المجتمع المدنى والدولة فى النهاية، وهذه الضمانة هى القضاء المصرى، برغم دأب جمهورية يوليو على استعمال القانون كوسيلة سياسية والإفساد الكامل لآلة التشريع.

وعندما تسلل التناقض إلى تلك المؤسسة العريقة، وفوجئنا بأحكام تحظر كتب وتسجن كتابا وتصادر أفلام سينما، وتفرق بين الرجل وزوجه[٨٩] وأحكام بالارتداد، وقبول التحقيق والمحاكمة بمقتضى المعتقد الإيمانى. وباسم الجماعة الإيمانية؛ فإن

ذلك ليس له إلا معنى واحد هو سقوط القانون المدنى، وصعود صيغة سوداء شيطانية تحت اسم العقد الإيمانى للمجتمع، وهى بعينها العودة إلى دواوين التفتيش فى العقول والضمائر التى شهدها تاريخ الشرق، مثلما شهدها تاريخ أوروبا فى القرون الوسطى وربما أكثر منها، والفارق أن هذا حدث فى الماضى وذلك ويحدث الآن لدينا.

لقد بدأت النهضة فى أوربا على عدة محاور، من بينها أنه عندما شاعت الحقيقة الاجتماعية التى فحواها أن الفرد وحده هو القادر على الوصول إلى الحقيقة، من هنا بدأ سقوط الشمولية التى لا تفرق بين إرادة الله وإرادة الإنسان، ومن هنا بدأ احترام العقل بالتفرقة ما بين المعرفة والإيمان وبدأ تأسيس الحداثة، وكل ذلك كان التمهيد للكوجيتو الديكارتى، والعقد الاجتماعى، والثورة الفرنسية.

وثمة علاقة بارزة أخرى نجمت عن صراع البروتستانتية مع الكاثوليكية على أرض إنجلترا؛ والذى انتهى بانتشار الأولى، وهو السؤال الحرج أو السؤال/ الإجابة: مسيحية المسيح Christianirty أم مسيحية الصليب Crosstianity[٩٠]؟، وقد مرت العقيدة اليهودية بنفس المأزق بعد سقوط الهيكل الثانى، والذى نجم عنه قبول اليهود بالاختلاط بالأجناس والمجتمعات الأخرى، وهو يهودية التوراة أم اليهودية الربانية؟[٩١]

إن فك الارتباط بين العقائد وبين الجماعات الوظيفية يعيد العقائد إلى مظلة القيم والتراث والمعرفة لكل الإنسانية، لأنه ينزع عنها الغرض والانتقاء والطائفية.

وأخشى أنه قد حان الوقت ودارت الدوائر على العرب والمسلمين بدورهم لتوجيه السؤال الحرج: إسلام القرآن أم إسلام العمائم؟ إنه الاختيار ما بين إسلام العقل والحب والحرية، وبين إسلام النقل والغرض والإكراه، ذلك لأن الأعيدلوجية الإسلامية السائدة بجناحيها الإرهابيين (الفكرى والمسلح) أوقعت الإسلام والمسلمين فى خصومة مع العقل والحرية والحضارة، وجعلته تكأة للطغاة.

إن الدين هو مسئولية الفرد، وليس مسئولية المؤسسة الدينية أو محترفى الدين، وبالتأكيد ليس مسئولية الدولة، إنها حقيقة بسيطة، ولكنها إشكالية كبيرة وسؤال حرج ، لأن الإجابة عليه تجيب تلقائياً على سؤال آخر هو: نظام حكم عسكرى أم

مدنى.

إن ارتكاب ما يسمى بالمواجهة ما بين المدعى عليهم فى التحقيقات والمحاكمات وبين شيوخ الدين، وقبول تحريك دعاوى قضائية على هذا الأساس، مثلما تم فى قضية الشيخ حسن شحاتة، وما سمى بعبادة الشيطان وقبلها مع البهائيين ود. فرج فودة، ود. أحمد صبحى منصور، وخليل عبد الكريم. إن كل ذلك يعنى أننا نعيش فى دولة دينية عسكرية، وإن كان مما يبقى على الأمل أن يصدر حكم من حين لآخر يبقى الأمل حياً، مثلما صدر فى قضية د. سيد القمنى، ويدفعنا إلى القول إنه مازال فى مصر قضاة، ولا نقول قضاء.

المؤسسة الدينية والصراع العربى الإسرائيلى:

فى لغة الموسيقى يوجد ما يسميه الموسيقيون «الباص المُلح» أو «الاوسفيناتو»، وهو الإيقاع المنخفض الذى لا نسمعه إلا حين توقف كل النغمات الأخرى، ويظل طوال العمل الموسيقى فى الخلفية، وأعتقد أن قضية السلام كانت موجودة فى الخلفية طوال تلك الدراسة، ويزداد حضور قضية السلام كلما دار الحديث عن قضايا الحداثة لأنها مترابطة بلا فكاك.

لقد تم وضع اليد على المؤسسة الدينية. وبالتالى الزواج بين الجماعتين الوظيفيتين، والأهم من ذلك أن تلك الدراسة حاولت الإجابة عن سؤال جوهرى يتعلق بحقيقة يقررها ر.هـ. ديكمجيان فى كتابه عن الإسلام السياسى، وهى حقيقة خطرة لها علاقة بالإرهاب الدولى وهى أن أكثر من ثلث الحركات والمنظمات الإرهابية المسلحة التى تعتنق الأيدلوجية الإسلامية، وعددها الكلى ٩٢ تأسست وخرجت من مصر. لقد تم وضع اليد على المؤسسة الدينية، وبالتالى الزواج بين الجماعتين الوظيفيتين، بهدف امتلاك وسيلة للعب دور إقليمى/ قومى، والهدف الثانى هو العمل كرديف ضد الديموقراطية بإحلال الحرام والحلال، محل الحرية فى أولويات العمل الشعبى، والهدف الثالث هو امتلاك وسيلة حشد شعبوية فى يد نظام شعبوى للحشد، ضد «إسرائيل والاستعمار» ضمن التجهيز. «للمعركة الفاصلة». ولم تكن الجماعة

الوظيفية الدينية تحتاج إلى من يصنع لها أهدافها؛ فاليهودية كدين والغرب الكافر «الصليبى» هى أهداف ثابتة للكراهية العقائدية، يغذى ذلك بقوة الانتماء الاجتماعى لأعضاء الجماعة، وليست الصهيونية أو إسرائيل سوى محفزات إضافية. وهذه العوامل نفسها هى التى تضع المرأة والفن والعلم والديموقراطية والأقباط أهدافاً أخرى للكراهية العقائدية، كما أن اللجوء إلى المقدس، وإلى ركام القيل والقال فى تفسير التاريخ والصراعات السياسية، أسهل من اللجوء إلى الفكر العلمى، وهذا صلب الانقسامية والوعى الزائف فى الأيدلوجية الإسلامية.

وقد أتاح نظام يوليو الظرف المثالى لممارسة هذه الكراهية العقائدية، وقد تسبب ذلك فى مشاركة المؤسسة الدينية، وبنشاط، فى التأسيس للوعى الزائف، خاصة مع ازدياد معدل الهزائم، فالخصومة مع إسرائيل (اليهود) قائمة «ليوم الدين»، وإسرائيل تنتصر لأنها تتبع دينها، ولو أتبعنا نحن ديننا سننتصر و «نزيلهم من الوجود» (والدين هنا بالطبع هو الشيوخ) ، على أن أحد العلامات الملفتة فى منظومة الوعى الزائف تلك عندما قال شيخ الأزهر د. عبد الحليم محمود: «إنه شاهد رؤيا تقوم فيها الملائكة بالقتال مع الجنود المصريين فى حرب أكتوبر!» ولم يقل لنا بالطبع أين كانت الملائكة عندما حدثت ثغرة الدفرسوار.

ولأن الجماعات الفاشية ليست لديها رؤية نقدية، فلم نعرف انطباعاتهم عندما علموا أن القانون فى إسرائيل علمانى صرف.

وعندما شرع السادات فى التفاوض مع إسرائيل رددوا: «وإن جنحوا للسلم» وكانت المؤسسة الدينية آنذاك ماتزال قوية نسبياً، علاوة على أن ذلك ظل خطابها الرسمى فقط، وأذكر أن أحد نجوم الأصولية الإسلامية، وكان يحتل منصباً رفيعاً فى المؤسسة الدينية آنذاك، قال فى مجلس الشعب: «لو كان الأمر بيدى لوضعت السادات فى مكان لايسأل فيه عن مايفعل»، وهذه بالطبع ليست مكانة بشر.[٩٢]

غير أنه بعد أن ازدادت قوة الجماعة الوظيفية أو «حزب الجمعة» عادت الحاجة إلى عدو يصبح هدفاً للكراهية العقائدية، وهكذا عاد الحديث عن «صلح الحديبية» وما

شابه، وهذا ما نتج عنه الهجوم الشرس على شيخ الأزهر، بسبب مقابلته للحاخام «إسرائيل لاو».

إن الجماعة الوظيفية الدينية عندما تطالب بالحرب وإلغاء المعاهدات السلمية، فليس معنى ذلك أبداً أن لديها برنامجا سياسيا أو أن لها مطالب سياسية، إنها فقط تمارس الكراهية العقائدية، أهم دفاعاتها الذاتية، وأهم عناصر صناعة الترابط الجماعى لديها، ولكنها، وهى تفعل ذلك، تحافظ على استمرار ثنائية الحرب والهزيمة، وتعطينا تأكيداً إضافياً على الترابط الوثيق بين قضايا: العلمانية والديموقراطية ،والتنمية، والسلام.

□□□

الفصل الخامس
الاستقطاب الدولى فى ظل الحرب الباردة

المعركة التى لم تحدث أبداً!

كان حصر الصراع العربى الإسرائيلى فى حدود الحسم العسكرى هو فكر القوى الفاشية أو «مدرسة الشرق»، وعلى رأسها القصر الملكى قبل سنة ١٩٥٢، ومما أدى إلى تورط مصر فى حرب سنة ١٩٤٨ والتى غلب عليها التنافس بين القيادات العربية، وعدم التعاون، بالإضافة إلى عوامل عديدة أخرى نتجت عنها الهزيمة الفادحة، التى جعلت قرار التقسيم الذى تم رفضه باسم الحسم العسكرى أمنية بعيدة المنال.[١]

وبالرغم من أن شعار الحسم العسكرى وانتظار المعركة الفاصلة أصبحا الشعار الرئيسى لنظام يوليو؛ إلا أنه لم يثبت على المستوى النظرى أو العملى جدية هذا الشعار، وكان أقرب إلى أن يكون حلم يقظة أكثر منه سياسة واقعية. وكما تعبر أحلام اليقظة عن احتياجات نرجسية، كان انتظار المعركة الفاصلة أقرب إلى أن يكون للاستهلاك المحلى.

وكان المعنى المباشر للحسم العسكرى قبل سنة ٦٧ هو إزالة إسرائيل، ولم تكن السياسة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية تعترف بمثل تلك اللغة، ولا كان ذلك ممكناً بحكم موازين القوى فى ساحة الصراع.

وعندما حدثت اليقظة المؤلمة الناجمة عن كارثة ٦٧ كان الشعار. «إزالة آثار العدوان» يعبر بجلاء عن بؤس الأوضاع السياسية والعسكرية، وعندما جرى الإعداد لحرب أكتوبر، لم يكن الإعداد لما يزيد عن حرب تكتيكية أو ما سمى بحرب «تحريك» تصلح كبداية للتفاوض حول حل سلمى، ولكن لم يكن معنى كل ذلك اختفاء

د. جيكل؛ فقد ظلت ثنائية الحرب والهزيمة ضمن ثنايا الخطاب المحلى.

وهكذا لم تقع قط تلك المعركة الفاصلة، أو عملية الحسم العسكرى؛ ذلك أنها كانت مجرد حلم يقظة.

خسائر فادحة بدون حرب:

مثلما يحدث فى أحلام اليقظة من تجاهل للتفاصيل الواقعية، ومن قفز إلى النتائج دون منطق؛ حدث ذلك بالضبط ضمن سياسة الحسم العسكرى، وكانت الخسائر تشكل هزائم سياسية بحد ذاتها، ودون مواجهة عسكرية، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ - خسارة الإمكانيات الواقعية التى تمتع بها الطرف المصرى والعربى. وفى القلب منها كل أنواع العمل المدنى التى لها الأولوية فى صراع له صفةحضارية بالدرجة الأولى.

٢ - تضاؤل الوسائل والخيارات السياسية أمام القيادات العربية، وأهمها التكتيك السياسى المرحلى، وصياغة الحل الوسط الذى هو هدف السياسة الجادة فى صراع من هذه النوعية.

٣ - تحولت تلك السياسة إلى رصيد فعال ومؤثر لصالح إسرائيل، فقد أظهرتها كحمل وديع أحاطت به مجموعة من الذئاب؛ فتلقت كل أنواع الدعم من المؤسسات الشعبية قبل الحكومات فى المجتمعات المؤثرة، وكان ذلك أفضل غطاء لقوى الحرب والتوسع فى إسرائيل، كى تشن عدواناً «مشروعاً»، فضلاً عن أن الحسم العسكرى فى تلك المرحلة من الصراع كان أنسب جوانب الصراع لإسرائيل.

٤ - فوتت فكرة الحسم العسكرى كل فرص الحل السلمى التى كانت متاحة خلال الخمسينيات سواء عن طريق وساطة الأمم المتحدة، أثناء فترة قوتها بعد الحرب الثانية، أو إرادة المجتمع الدولى فى فترة غروب قوى الاستعمار التقليدى، وأهم تلك الفرص على الإطلاق مشروع موشى شاريت المكون من سبعة بنود، والذى حمله النائب العمالى البريطانى موريس اورباخ إلى عبد الناصر فى نهاية سنة ١٩٥٤، وحصل

شاريت على تفويض من الكنيست في يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٥٥ للوصول إلى اتفاقية سلام، ولكن كل ذلك تلاشى داخل حلم الحسم العسكرى.

٥ – كان شعار الحسم العسكرى أو «تحرير كامل التراب الفلسطينى» هو «البيان رقم واحد» للانقلابات العسكرية التى قامت بها المجموعات العسكرية العشائرية فى العديد من الدول العربية أو ما أسميه أنا بنات يوليو السبعة. وهى النظم فى: سوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا والجزائر وآخرها منظمة التحرير الفلسطينية، وكان نتيجة ذلك أن تسببت تلك الثورية الزائفة فى تقسيم العالم العربى إلى دول «رجعية» ودول «ثورية»، وكانت المواجهة بين الجانبين أو مع دول الجوار أكثر تكلفة بكثير من المواجهة بين العرب وإسرائيل، ومنها على سبيل المثال: حرب اليمن – الحدود المغربية/ الجزائرية – جنوب السودان – لبنان ٥٨ – ايلول (سبتمبر) سنة ٧٠ فى الأردن – لبنان ٧٤ إلى ٨٩ – مصر/ ليبيا ٧٧– حرب الخليج الأولى – حرب الخليج الثانية.

وكان ذلك أبلغ الأدلة على أن المصلحة أو ما يطلق عليه «تشابك المصالح» هو لغة غير معروفة فى قاموس الراديكالية. ويصبح الحديث عن توازن للمصالح مع إسرائيل من قبيل اللغو أو «الخيانة» طبقاً للقاموس السائد.

٦ – كان الجانب الخاص بالمجتمع المصرى فى هذه الفكرة، والذى اقتضى تحويله إلى ماسمى «بالجبهة» الداخلية هو أكثر جوانب حلم اليقظة واقعية؛ إذ عملت الاوليجاركية العسكرية إلى إعادة ترتيب أوضاعها طبقاً لسياسة «الحشد» والتأمين، ونتج عن ذلك أن سقطت كل الأنشطة المدنية فى مصر بين خيوط شبكة أمن عنكبوتية، حيث احتل مناصب السلطة العليا ضباط المخابرات العامة والعسكرية؛ من أمثال: على صبرى، وشعراوى جمعه، وعبد المحسن أبو النور، وعبد القادر حاتم، وأمين هويدى، وكمال رفعت، بالإضافة إلى مناصب المحافظين والوزراء ورؤساء مجالس الإدارات ووكلاء الوزارات، حتى أصبح الجيش مصدر كل السلطات.[٩٣]

٧ – ضمن سياسات «التأمين والحشد» احتل العسكريون أعلى مناصب وزارة الخارجية حتى أن نسبتهم وصلت إلى ٧٢٪ فى هذه المناصب، وفى سنة ٦٢ كان كل سفراء مصر فى أوروبا من العسكريين باستثناء ٣ سفراء فقط.[٩٤] وكان من

الطبيعى لجهاز دبلوماسى بهذا المستوى أن يصبح عينا مطفأة لا ترى ، وكان الأنسب له والأكثر تواؤما مع قدراته أن يقاطع ساحات العمل الدبلوماسى والسياسى الدولى، بزعم مقاطعة إسرائيل، وعدم الاعتراف بها، وكانت النتيجة تحول المقاطعة إلى انقطاع . هذا بالرغم من أن اتفاقيات الهدنة، ولجان الهدنة المنبثقة عنها، كانت تحمل اعترافاً مباشراً وواضحاً بإسرائيل .

٨ - تسببت تلك السياسة فى أن العلاقات الدولية لمصر، ولمن يدور فى فلكها من الدول العربية، أصبحت أسيرة مقياس دائم (هو فى الأصل مؤقت واستثنائى) وهو صفقات السلاح، والتى لم تحرز أبداً فى أى وقت من الأوقات سبقاً نوعياً أو كمياً لصالح العرب، وظل المعدل النيرانى والمستوى التكنولوجى لصالح إسرائيل، علاوة على كفاءة الاستخدام، وقبل كل ذلك القرار الديموقراطى.

كان لهذا العامل تأثيرا عميق على الصراع فى الشرق الأوسط؛ إذ تحول هذا الصراع إلى جزء من جبهة الحرب الباردة عبر صفقات السلاح، وقد بدأ الأمر بصفقة السلاح التشيكى فى سنة ٥٥، وانتهى إلى مواجهة سياسية وعسكرية بين الولايات المتحدة والغرب وبين الاتحاد السوفيتى عبر أطراف الصراع، وأصبح جبهة رئيسية مثل سور برلين وجنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، وربما كان يتعداها من حيث مستوى الحدة والتكلفة، ومن حيث طول الزمن؛ إذ تم حل كل تلك الصراعات، ولم ير هذا الصراع الحل الكامل حتى الآن. ولست أعتقد أنه من التجاوز القول إن هذا الصراع قد ساهم فى التعجيل بانهيار الاتحاد السوفيتى، ونهاية الحرب الباردة، دون أن تظهر له نهاية قريبة مؤكدة.

ولكن من الضرورى القول إن نهاية الحرب الباردة قد وضعت نهاية لاحتمال المواجهات. العسكرية الإقليمية بين العرب وإسرائيل، وبالتالى حدثت تغيرات نوعية فى وسائل الصراع، وذلك يدل على مدى الارتباط الذى كان بين الحرب الباردة وبين قضية الشرق الأوسط.

أجزم أن كل تلك التوصيفات لا تضيف شيئاً حقيقياً إلى الدراسة، ولابد من اللجوء إلى التحليل للإجابة على أسئلة من نوعية لماذا وكيف؟ وذلك وحده ما يلقى الضوء على جوانب من الصراع.

الأيدلوجية الوحيدة:

من السمات الأساسية والمشتركة لأنظمة الاوليجاركية العسكرية عنصر السيطرة والاستمرار في السلطة، إنه التعامل مع السلطة باعتبارها «موقع» يجب التمسك به، وتكاد أن تكون تلك هى الجملة المفيدة والكاملة لتلك الأنظمة، إنها الجملة المفتاح، أما ماعدا ذلك من جمل فهى ناقصة، وغير مكتملة، ويسرى ذلك على الأيدلوجيات التى تروج لها تلك الأنظمة، وليس نظام يوليو استثناء من ذلك، سواء فى مرحلته اليمينية الإسلامية عندما أعدم عمال كفر (خميس والبقرى) فى ٧ سبتمبر (ايلول) سنة ٥٢ والذين انتفضوا فى ١٢ اغسطس (اب) من نفس السنة لأسباب اجتماعية، أو فى مرحلته الاشتراكية بناء على «قرارات» سنة٦١ الاشتراكية، ونفس الشيء أثناء شعاراته القومية الوحدوية. ففى كل تلك المراحل اعتمد على العسكريين. والغريب أنه فى كل مرحلة كان يتصادم فيها مع أيدلوجييها، فى مرحلة الاتجاه اليمينى الإسلامى تصادم بدموية مع الإخوان المسلمين، وهو ماتكرر بعد ذلك بين السادات والإسلام السياسى تحت شعار «دولة العلم والإيمان»، وفى مرحلته الاشتراكية كان الاشتراكيون فى السجون وكان نواب رئيس الجمهورية من أقصى اليمين مثل عبد الحكيم عامر وحسين الشافعى وانور السادات، وفى مرحلته القومية كان صدامه الأساسى مع البعث والقوميين العرب. وفى المرحلة الأخيرة الحالية يتم رفع الشعارات الدينية والليبرالية معاً، فى حين أن التصادم مع الإسلاميين فى مرحلة حادة، وتشهد الليبرالية السياسية قيوداً على حرية التعبير، وعلى الممارسة السياسية تدفع بالشك الكامل إلى النوايا الليبرالية فى الاقتصاد نفسه، حيث إنها من المفروض أن تؤدى إلى تشكيل قوى اقتصادية سياسية كما أن ضماناتها الأساسية فى حفظ التوازن الاجتماعى، هو حرية الأطر العمالية فى التعبير وحق الإضراب وحرية تشكيل النقابات، وهو ما يبدو بعيد المنال حتى الان.

ليس معنى ذلك أن تلك المراحل يمكن تمييزها أو فصلها عن بعضها بدقة، فذلك يتنافى مع طبيعة العلاقة بين تلك الأنظمة والعملية الفكرية، والأقرب إلى الواقع أن كل تلك الأيدلوجيات كانت مختلطة طوال الوقت ومتجاورة، مع السماح ببروز واحدة منها فى فترة معينة، ولكن ذلك لايعنى توقف باقى الخطابات، ففى وقت واحد يمكن تمييز ميول وطنية وقومية ودينية واشتراكية؛ فهى لاتخرج عن كونها وسائل

استمرار وسيطرة.

وهكذا يسرى على كل الشعارات والأيدلوجيات أدبيات الجمل الناقصة، أو حياة اليوم بيوم.

ولا تبتعد فكرة الحسم العسكرى عن تلك القاعدة؛ فجسامة الهزائم تدلل على أن فكرة الحسم العسكرى إنما كانت للاستهلاك المحلى، وتتوفر أدلة كثيرة على ذلك نسوق منها حالتين هما:

١ – انتهت بحوث الصواريخ والطائرات فى مصر، وبهدف تصنيعها محلياً إلى لاشىء نتيجة ضعف الاعتمادات، والأهم عدم القدرة على حماية العلماء الألمان الذين كانوا عماد تلك الصناعات، ووصلت إليهم أيدى الأجهزة الإسرائيلية ببساطة. بالرغم من قصة القاهر والظافر الشهيرة.

٢ – ظلت حدود البرنامج النووى المصرى عند حدود مفاعل انشاص التدريبى وبقوة واحد ميجا فقط منذ سنة ٥٦ وطوال فترة المواجهة العسكرية.

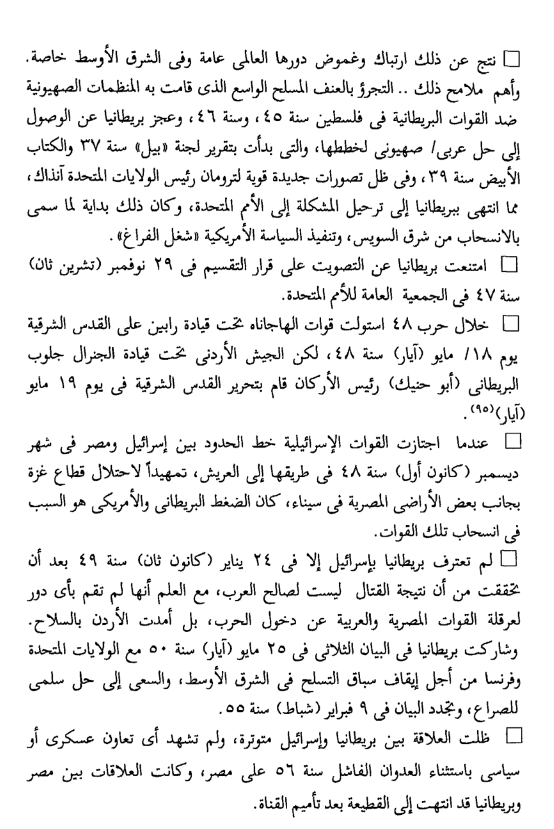
ونتج عن كل ذلك الإساءة البالغة إلى سمعة السلاح السوفيتى، وأيضاً إلى السمعة السياسية للسلاح. هذا إذا طبقنا قاعدة أن السلاح يحمل جنسية صانعه بجوار جنسية حامله، وهى قاعدة صحيحة فى صراعات من نوع وحجم صراع الشرق الأوسط.

مدرسة الشرق .. اشتراكية!!:

بالنظر إلى العوامل السابقة، يتبين أن الإجابة ماتزال غير شافية على سؤال: لماذا تم رفع شعار الحسم العسكرى؟ ولماذا أصبحت قضية الشرق الأوسط جزءاً من جبهة الحرب الباردة العالمية؟ .. وفى اعتقادى أنه من المشروع توجيه السؤال على نحو آخر وهو: لماذا تم التخلى عن عمل سياسى ممكن إلى حل عسكرى مستحيل؟. واستعراض سريع لبعض السطور المنسية فى مواقف الأطراف تكشف مشروعية السؤال.

بريطانيا:

خرجت بريطانيا من الحرب الثانية منتصرة، ولكنها خرجت أيضاً ضعيفة، وكان خروجها هذا بداية أفول دورها العالمى، وصعود الدور الأمريكى والسوفيتى، وعزز من ذلك اقتصادها المنهك.



□ نتج عن ذلك ارتباك وغموض دورها العالمى عامة وفى الشرق الأوسط خاصة. وأهم ملامح ذلك .. التجرؤ بالعنف المسلح الواسع الذى قامت به المنظمات الصهيونية ضد القوات البريطانية فى فلسطين سنة ٤٥، وسنة ٤٦، وعجز بريطانيا عن الوصول إلى حل عربى/ صهيونى لخططها، والتى بدأت بتقرير لجنة «بيل» سنة ٣٧ والكتاب الأبيض سنة ٣٩، وفى ظل تصورات جديدة قوية لترومان رئيس الولايات المتحدة آنذاك، مما انتهى ببريطانيا إلى ترحيل المشكلة إلى الأمم المتحدة، وكان ذلك بداية لما سمى بالانسحاب من شرق السويس، وتنفيذ السياسة الأمريكية «شغل الفراغ».

□ امتنعت بريطانيا عن التصويت على قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر (تشرين ثان) سنة ٤٧ فى الجمعية العامة للأمم المتحدة.

□ خلال حرب ٤٨ استولت قوات الهاجاناه تحت قيادة رابين على القدس الشرقية يوم ١٨/ مايو (آيار) سنة ٤٨، لكن الجيش الأردنى تحت قيادة الجنرال جلوب البريطانى (أبو حنيك) رئيس الأركان قام بتحرير القدس الشرقية فى يوم ١٩ مايو (آيار)[٩٥].

□ عندما اجتازت القوات الإسرائيلية خط الحدود بين إسرائيل ومصر فى شهر ديسمبر (كانون أول) سنة ٤٨ فى طريقها إلى العريش، تمهيداً لاحتلال قطاع غزة بجانب بعض الأراضى المصرية فى سيناء، كان الضغط البريطانى والأمريكى هو السبب فى انسحاب تلك القوات.

□ لم تعترف بريطانيا بإسرائيل إلا فى ٢٤ يناير (كانون ثان) سنة ٤٩ بعد أن تحققت من أن نتيجة القتال ليست لصالح العرب، مع العلم أنها لم تقم بأى دور لعرقلة القوات المصرية والعربية عن دخول الحرب، بل أمدت الأردن بالسلاح. وشاركت بريطانيا فى البيان الثلاثى فى ٢٥ مايو (آيار) سنة ٥٠ مع الولايات المتحدة وفرنسا من أجل إيقاف سباق التسلح فى الشرق الأوسط، والسعى إلى حل سلمى للصراع، وتجدد البيان فى ٩ فبراير (شباط) سنة ٥٥.

□ ظلت العلاقة بين بريطانيا وإسرائيل متوترة، ولم تشهد أى تعاون عسكرى أو سياسى باستثناء العدوان الفاشل سنة ٥٦ على مصر، وكانت العلاقات بين مصر وبريطانيا قد انتهت إلى القطيعة بعد تأميم القناة.

☐ ومن دلائل التوتر بين بريطانيا وإسرائيل أن العائلة المالكة البريطانية لم يزر منها شخص واحد إسرائيل حتى الآن (سنة ٩٨) باستثناء زيارة شخصية للأمير فيليب (زوج الملكة) كى ينفذ وصية والدته بأن تدفن فى جبل الزيتون.

☐ رفض ماكميلان وزير الخارجية البريطانى مع جون فوستر دالاس فى مؤتمر صحفى مشترك فى باريس يوم ٢٦ أكتوبر (تشرين أول) سنة ٥٥ تزويد إسرائيل بالسلاح، ورفضا عقد معاهدة أو اتفاقية أمنية معها، وتحدثا عن معاهدة سلام بينها وبين العرب.

☐ تعليقاً على سلسلة عمليات مسلحة متبادلة بين الأردن ومصر وإسرائيل على الحدود فى شهر مارس (آذار) وشهر إبريل (نيسان) سنة ٥٤ أرسل تشرشل رئيس الحكومة البريطانية آنذاك رسالة فى يوم الأحد ٤ إبريل (نيسان) سنة ٥٤ إلى موشيه شاريت رئيس الحكومة ووزير الخارجية نصها كالتالى: «.. إن تجدد الحرب بين إسرائيل والعرب سيكون كارثة، وإذا وجدت المملكة المتحدة نفسها بحكم التزاماتها بموجب معاهدة، متورطة فى حرب كهذه، فستكون هذه نهاية حزينة لآمال وإنجازات عشرات الأعوام الأخيرة فى أرض إسرائيل...»(٩٦).

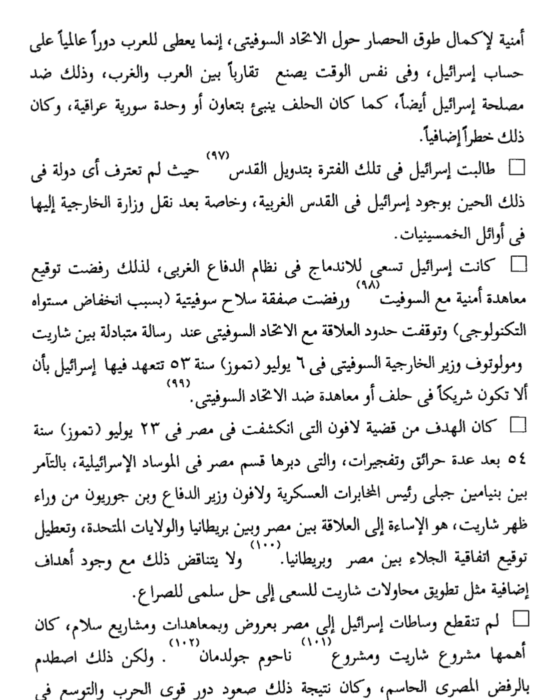
☐ فى ١٩ أكتوبر (تشرين أول) سنة ٥٤ عقدت مصر وبريطانيا اتفاق الجلاء عن مصر، ووقع الاتفاقية الرئيس عبد الناصر وانتونى نانتج وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية.

☐ عندما حدثت غارة غزة فى فجر يوم أول مارس (اذار) سنة ٥٥ صوتت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ضد إسرائيل فى مجلس الأمن.

☐ رفضت بريطانيا دخول إسرائيل إلى حلف بغداد أو عقد أى اتفاق أمنى مع إسرائيل قبل توقيع معاهدة سلام بين العرب وإسرائيل.

إسرائيل:

☐ كان من أهم أهداف إسرائيل دخول حلف بغداد، وعندما فشلت كان من أهم أهدافها إسقاط الحلف، حيث إنها كانت ترى أن أى اتفاق دفاعى، أو أى معاهدة


أمنية لإكمال طوق الحصار حول الاتحاد السوفيتى، إنما يعطى للعرب دوراً عالمياً على حساب إسرائيل، وفى نفس الوقت يصنع تقارباً بين العرب والغرب، وذلك ضد مصلحة إسرائيل أيضاً، كما كان الحلف ينبئ بتعاون أو وحدة سورية عراقية، وكان ذلك خطراً إضافياً.

□ طالبت إسرائيل فى تلك الفترة بتدويل القدس [٩٧] حيث لم تعترف أى دولة فى ذلك الحين بوجود إسرائيل فى القدس الغربية، وخاصة بعد نقل وزارة الخارجية إليها فى أوائل الخمسينيات.

□ كانت إسرائيل تسعى للاندماج فى نظام الدفاع الغربى، لذلك رفضت توقيع معاهدة أمنية مع السوفيت [٩٨] ورفضت صفقة سلاح سوفيتية (بسبب انخفاض مستواه التكنولوجى) وتوقفت حدود العلاقة مع الاتحاد السوفيتى عند رسالة متبادلة بين شاريت ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتى فى ٦ يوليو (تموز) سنة ٥٣ تتعهد فيها إسرائيل بأن ألا تكون شريكاً فى حلف أو معاهدة ضد الاتحاد السوفيتى. [٩٩]

□ كان الهدف من قضية لافون التى انكشفت فى مصر فى ٢٣ يوليو (تموز) سنة ٥٤ بعد عدة حرائق وتفجيرات، والتى دبرها قسم مصر فى الموساد الإسرائيلية، بالتآمر بين بنيامين جبلى رئيس المخابرات العسكرية ولافون وزير الدفاع وبن جوريون من وراء ظهر شاريت، هو الإساءة إلى العلاقة بين مصر وبين بريطانيا والولايات المتحدة، وتعطيل توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا. [١٠٠] ولا يتناقض ذلك مع وجود أهداف إضافية مثل تطويق محاولات شاريت للسعى إلى حل سلمى للصراع.

□ لم تنقطع وساطات إسرائيل إلى مصر بعروض وبمعاهدات ومشاريع سلام، كان أهمها مشروع شاريت ومشروع [١٠١] ناحوم جولدمان [١٠٢]. ولكن ذلك اصطدم بالرفض المصرى الحاسم، وكان نتيجة ذلك صعود دور قوى الحرب والتوسع فى إسرائيل تحت قيادة بن جوريون (سنعالج ذلك ثانية فى فصل لاحق).

وكان فحوى كل ذلك السياق أن العمل السياسى الكفاحى كانت لديه فرصة للعمل حتى على الجبهة الإسرائيلية، ولكنه فى نفس الوقت كان يحتاج إلى سياق

وإيقاع وذهنية ورجال وأهداف مختلفة عما كان يجرى على الجانب العربى.

الولايات المتحدة:

يقول عالم الأجتماع التربوى الأمريكى جون ديوى: «إن الحقيقة ماهو مجزى»، ويقول وزير الدفاع الأمريكى السابق روبرت ماكنمارا: «إنه نتيجة لوفرة الإمكانيات نشاهد لأول مرة فى التاريخ دولة تحدد الهدف أولاً، ثم تبحث بعد ذلك فى، امكانيات تحقيقه».

كانت أمريكا قد خرجت من الحرب الثانية منتصرة وقوية، وكانت تلك الطريقة فى التفكير نابعة من درجة مرتفعة من القوة بكل أشكالها، فى مواجهة الضعف والانهاك الذى شمل العالم القديم. وكانت تلك الطريقة فى التفكير نابعة أيضاً من علاقة معقدة ومتناقضة (أحياناً) مع العالم القديم ومفاهيمه التقليدية.

كان من بعض ملامح القوة الأمريكية الأسلحة النووية، وحاملات الطائرات، والصواريخ العابرة للقارات، وقوة الاتصالات، واقتصاد متخم يبحث عن ميادين للاستثمار، والسينما. وكان لابد بسبب ذلك أن يصبح للاستراتيجية مفهوم جديد، وأن تعتمد تلك الاستراتيجية على مفهوم جديد للجغرافيا السياسية، له إمكانيات ووسائل جديدة، معتمدة على دور أساسى للأمر الواقع، ولدور الجغرافيا الجديد فى مواجهة التاريخ، باعتبار أن الجغرافيا هى الملموس أى المكان والقوة والطاقة والثروة والسوق وطرق المواصلات، وهكذا صاغوا ما يمكن تسميته بالجغرافيا المتغيرة على حساب التاريخ، الذى هو المعنوى أى التراث والثقافة والقيم والتقاليد والأعراف المقدسات: المحرمات (كما يقول محمد حسنين هيكل)[(١٠٣)].

كان معنى ذلك أنه قد اجتاحت العالم قراءة جديدة قادرة على التغيير، وبصرف النظر عن تقييمنا لذلك فقد كان أشبه بما تنبأ به الدوس هكسلى وأطلق عليه «عالم جديد شجاع The new Brave World». وإن كان هسكلى قد تنبأ به قبل الحرب العالميةالثانية.

وكانت نتيجة كل ذلك أن أصبحت أمريكا تنظر إلى سياسة الهيمنة باعتبارها حقاً

ومسئولية، ومن هنا نشبت صراعات جديدة، وخبت صراعات قديمة، وظهرت سياسة التكتلات والأحلاف، وسقوط الحدود القومية، وحدود مناطق النفوذ، وسادت نظرية التطور الرأسمالى مع تنامى دور الدولة/ الأمة.

وكان لابد أن تصطدم أمريكا بحليف الأمس وخصم اليوم الأيدلوجى السوفيتى، ذلك الصدام الذى تحول إلى ما يسمى بالحرب الباردة. وبدأ رسمياً بمبدأ ترومان لاحتواء الشيوعية ووقف انتشارها، والذى وافق عليه الكونجوس فى ٢٢ مايو (ايار) سنة ٤٧، ورفض السوفييت الدخول تحت مظلة برنامج الانعاش الأوروبى.E.R.p أو ماسمى بمشروع مارشال فى ٥ يونيو (حزيران) سنة ٤٧ لأنه كان يتضمن الرقابة والتفتيش . وبدلاً منه أعلن السوفيت مشروع مولوتوف الذى تحول إلى منظمة الكوميكون الاقتصادية الاشتراكية، ثم إعلان حلف وارسو العسكرى فى مقابل حلف الناتو أو الاطلنطى، وهكذا توفرت كل شروط الحرب الباردة.

وكانت مرحلة الحرب الباردة، أو احتواء النشاط الشيوعى قبلها، تشمل بعض الصدامات مع حلفاء الأمس واليوم الغربيين، وهم: فرنسا، وبريطانيا، إلى درجة أن مصالح الغرب أو «العالم الحر» كانت فى أحيان كثيرة تتقلص تدريجيا إلى أن تصبح مصالح أمريكية فقط.

وثمة واقعة ذات مغزى تعنينا نحن فى الشرق الأوسط، وهى تجاهل ترومان لتقرير لجنة التحقيق الأمريكية - البريطانية فى فلسطين، والذى أعلن فى أول مايو (ايار) سنة ٤٦ فى فصلها الخاص بالمنظمات الصهيونية العسكرية وتعدادها وقوتها، وضرورة نزع سلاحها[(١٠٤)] ، ممايترك انطباعاً قوياً أن ترومان كان يرى إخراج بريطانيا من شرق المتوسط، ولو بالعنف الصهيونى المسلح، ومما يدلل على أنه كان يقصد بريطانيا بأكثر مما يقصد العرب بموافقته على البيان الثلاثى فى ٢٥ مايو (ايار) سنة ٥٠، والذى ينص على حظر السلاح على أطراف الصراع فى الشرق الأوسط، والسعى إلى الحل السلمى.

وهكذا عبر تركيا واليونان والصراع العربى الإسرائيلى وجدت أمريكا نفسها فى

حوض المتوسط «بطن أوروبا الطرى» كما قال تشرشل، وبدقة أكبر فى الزواية الشرقية الجنوبية منه حيث تنتهى الحضارات وتبدأ أيضاً كما أعلن تقرير كامبل بنرمان رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٠٧ ونتيجة مؤتمر كانت غايته الإجابة على سؤال: لماذا تنتهى الحضارات ؟.

هناك كانت الصهيونية بمثابة عالم جديد فى قلب العالم القديم، كانت الدولة العبرية تتحدث بلغة الأمر الواقع المكون من الهجرة واختلاط وتنوع الأجناس والثقافات والقوى السياسية، وكانت بصدد بناء دولة حديثة وديموقراطية وبرلمان ونقابات ومدن صناعية، ومعها لاهوت الهجرة والاستيطان أو الوعد التوراتى، وبجوار ذلك لديها لوبى يهودى رأسمالى يتقن الدعاية ويعيش فى أهم مدن الولايات الأمريكية، وتؤمن بعبادة القوة، وكانت معادية لبريطانيا بل لأوروبا أيضا، ولا تحمل بأى حال خطر التحول إلى الشيوعية.

وفى مواجهتها، كان العرب يفكرون بلغة التجريد المعتمدة على المبادئ والتقاليد، والكراهية العقائدية، والماضى الذى لم يمض بعد، وحكومات ذات أسس عشائرية وقبائلية، ومشاريع دول أقرب إلى نظم الريع والجباية ومدن التجارة وما قبل الرأسمالية. كانت مصر وإلى حد ما سوريا استثناء من ذلك لكن ذلك الاستثناء زال فيما بعد بواسطة الانقلابات العسكرية - وهكذا كانت لغة الصهيونية أقرب إلى فهم الولايات المتحدة؛ ولم يشفع كون العرب ضحايا لعدوانية الصهيونية وعنصريتها.

وكانت الصهيونية هى أول من انتبه إلى مناطق الظلال فى علاقة الحلفاء ببعضهم البعض، وأول من تنبه إلى الدور الأمريكى الصاعد، وتم التعبير عن ذلك بمؤتمر وبرنامج بلتيمور من ٩ إلى ١١ مايو (آيار) سنة ٤٢، كما شرعوا فى بناء علاقات وطيدة مع المؤسسات السياسية الأمريكية، وخاصة مع الحزب الديموقراطى.

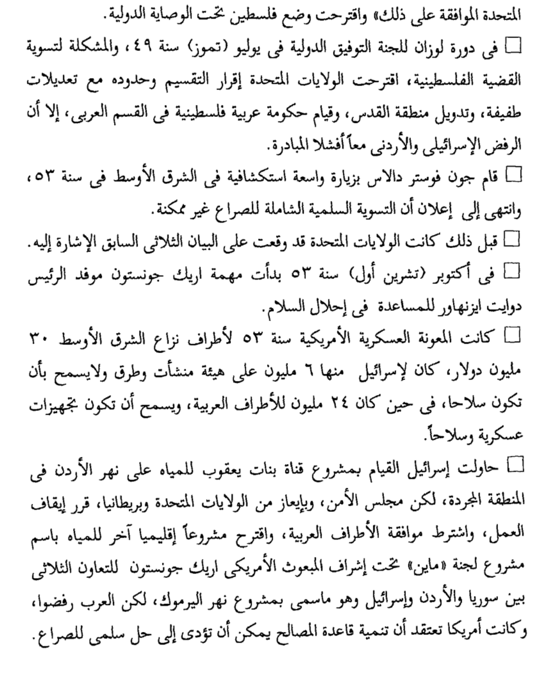
لكن كل ذلك (وأعترف أننى قد أفضت فيه عن قصد) إذا أخضعناه إلى نظرية النسبة والتناسب؛ بين موقع إسرائيل ومساحتها، وعدد سكانها، ووزنها الاقتصادى، ومستقبل تأثيرها فى المنطقة، لم يكن كل ذلك بحساب الأرصدة فى الاستراتيجية

الجديدة يساوى أكثر من العطف الذى يستلزم المساعدة، وينمو إلى مستوى الإعجاب، ولم يكن ذلك يكفى بالطبع لأداء دور يذكر فى الترتيبات الجديدة للعالم، خاصة أن عدد اليهود فى أمريكا كان أكبر بكثير من أن تزعم إسرائيل أنها دولة اليهود؛ كما أن أمريكا كانت هى أرض الميعاد أو أرض اللبن والعسل الحقيقية فى عيون المهاجرين اليهود، وكان ذلك ينقص من دور اسرائيل المستقبلى بالضرورة.

وكان فى خريطة الطاقة والموقع والمواصلات والخطر السلبى لإيران والسعودية ومصر وتركيا أدوار أهم فى السياسات الأمريكية.

الخطر السلبى: هو خطر التحول الأيدلوجى إلى المعسكر السوفيتى، وهى فى لغة العلاقات الرأسمالية تشبه الديون، وهى إما فى حدود تستلزم الدعم كى يتمكن المدين من السداد، وبالتالى فهى هنا تعد من الأرصدة للدائن، وتحسب فى الاستراتيجية أيضاً كرصيد، وإما أنها تتعدى القدرة على السداد، وهنا يحسب من أرصدة الخصم العدو الاستراتيجى، مما يستلزم القضاء على مركزه المالى، وإشهار إفلاسه؛ أو تدمير دوره الاستراتيجى.

وكما أن امريكا لم تفهم لغة العرب وخاصة عرب عبد الناصر، لم يفهم هؤلاء بدورهم لغة أمريكا، وهنا يدفع الأصغر دائماً ثمن سوء الفهم، إذ تعدى الخطر حدود الدعم، وأصبحت المواجهة بدءاً من صفقة الأسلحة التشيكية، وببطء فى البداية، ثم فى تسارع، إلى أن أقيمت قواعد سوفيتية فى عدد من البلاد العربية، ومن بينها مصر حتى أن الأساطيل السوفيتية أصبحت ضيفا دائماً على موانئ العرب فى البحر الأبيض، وهنا تحولوا إلى رصيد للخصم، وأصبح على الغرب إشهار إفلاس عرب عبد الناصر، وتحول كل ذلك بين ليلة وضحاها ودون مجهود يذكر إلى أرصدة للدولة العبرية، وهكذا أصبح لها دور يتجاوز العطف والمساعدة والإعجاب إلى الشراكة الاستراتيجية، ولكن ياللغرابة، لم يشمل الإفلاس العرب فحسب، بل شمل الضامن وهم السوفيت، ولكى ندلل على ماسبق يجب أن نستعرض المواقف الأمريكية فى نهاية الأربعينيات وخلال الخمسينيات، ولكى ندلل فى نفس الوقت على أن العمل السياسى كان



يمكنه الوصول إلى حل سلمى:

☐ يعد صدور القرار ١٨١ من الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٤٧ ورفض العرب له، سحبت الولايات المتحدة تأييدها للقرار فى ١٩ مارس (آذار) سنة ٤٨: «لأنه لايمكن تنفيذه إلا بالقوة، ولايسع الولايات المتحدة الموافقة على ذلك» واقترحت وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية.

☐ فى دورة لوزان للجنة التوفيق الدولية فى يوليو (تموز) سنة ٤٩، والمشكلة لتسوية القضية الفلسطينية، اقترحت الولايات المتحدة إقرار التقسيم وحدوده مع تعديلات طفيفة، وتدويل منطقة القدس، وقيام حكومة عربية فلسطينية فى القسم العربى، إلا أن الرفض الإسرائيلى والأردنى معاً أفشلا المبادرة.

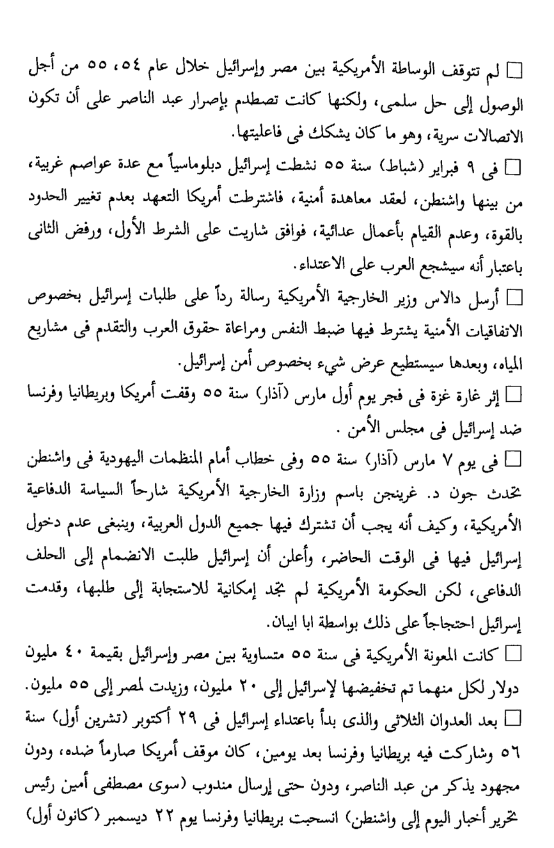
☐ قام جون فوستر دالاس بزيارة واسعة استكشافية فى الشرق الأوسط فى سنة ٥٣، وانتهى إلى إعلان أن التسوية السلمية الشاملة للصراع غير ممكنة.

☐ قبل ذلك كانت الولايات المتحدة قد وقعت على البيان الثلاثى السابق الإشارة إليه.

☐ فى أكتوبر (تشرين أول) سنة ٥٣ بدأت مهمة اريك جونستون موفد الرئيس دوايت ايزنهاور للمساعدة فى إحلال السلام.

☐ كانت المعونة العسكرية الأمريكية سنة ٥٣ لأطراف نزاع الشرق الأوسط ٣٠ مليون دولار، كان لإسرائيل منها ٦ مليون على هيئة منشأت وطرق ولايسمح بأن تكون سلاحا، فى حين كان ٢٤ مليون للأطراف العربية، ويسمح أن تكون تجهيزات عسكرية وسلاحاً.

☐ حاولت إسرائيل القيام بمشروع قناة بنات يعقوب للمياه على نهر الأردن فى المنطقة المجردة، لكن مجلس الأمن، وبإيعاز من الولايات المتحدة وبريطانيا، قرر إيقاف العمل، واشترط موافقة الأطراف العربية، واقترح مشروعاً إقليميا آخر للمياه باسم مشروع لجنة «ماين» تحت إشراف المبعوث الأمريكى اريك جونستون للتعاون الثلاثى بين سوريا والأردن وإسرائيل وهو ماسمى بمشروع نهر اليرموك، لكن العرب رفضوا، وكانت أمريكا تعتقد أن تنمية قاعدة المصالح يمكن أن تؤدى إلى حل سلمى للصراع.



□ لم تتوقف الوساطة الأمريكية بين مصر وإسرائيل خلال عام ٥٤، ٥٥ من أجل الوصول إلى حل سلمى، ولكنها كانت تصطدم بإصرار عبد الناصر على أن تكون الاتصالات سرية، وهو ما كان يشكك فى فاعليتها.

□ فى ٩ فبراير (شباط) سنة ٥٥ نشطت إسرائيل دبلوماسياً مع عدة عواصم غربية، من بينها واشنطن، لعقد معاهدة أمنية، فاشترطت أمريكا التعهد بعدم تغيير الحدود بالقوة، وعدم القيام بأعمال عدائية، فوافق شاريت على الشرط الأول، ورفض الثانى باعتبار أنه سيشجع العرب على الاعتداء.

□ أرسل دالاس وزير الخارجية الأمريكية رسالة رداً على طلبات إسرائيل بخصوص الاتفاقيات الأمنية يشترط فيها ضبط النفس ومراعاة حقوق العرب والتقدم فى مشاريع المياه، وبعدها سيستطيع عرض شيء بخصوص أمن إسرائيل.

□ إثر غارة غزة فى فجر يوم أول مارس (آذار) سنة ٥٥ وقفت أمريكا وبريطانيا وفرنسا ضد إسرائيل فى مجلس الأمن .

□ فى يوم ٧ مارس (آذار) سنة ٥٥ وفى خطاب أمام المنظمات اليهودية فى واشنطن تحدث جون د. غرينجن باسم وزارة الخارجية الأمريكية شارحاً السياسة الدفاعية الأمريكية، وكيف أنه يجب أن تشترك فيها جميع الدول العربية، وينبغى عدم دخول إسرائيل فيها فى الوقت الحاضر، وأعلن أن إسرائيل طلبت الانضمام إلى الحلف الدفاعى، لكن الحكومة الأمريكية لم تجد إمكانية للاستجابة إلى طلبها، وقدمت إسرائيل احتجاجاً على ذلك بواسطة ابا ايبان.

□ كانت المعونة الأمريكية فى سنة ٥٥ متساوية بين مصر وإسرائيل بقيمة ٤٠ مليون دولار لكل منهما تم تخفيضها لإسرائيل إلى ٢٠ مليون، وزيدت لمصر إلى ٥٥ مليون.

□ بعد العدوان الثلاثى والذى بدأ باعتداء إسرائيل فى ٢٩ أكتوبر (تشرين أول) سنة ٥٦ وشاركت فيه بريطانيا وفرنسا بعد يومين، كان موقف أمريكا صارماً ضده، ودون مجهود يذكر من عبد الناصر، ودون حتى إرسال مندوب (سوى مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم إلى واشنطن) انسحبت بريطانيا وفرنسا يوم ٢٢ ديسمبر (كانون أول)

من نفس السنة، وانسحبت إسرائيل فى ١٦ مارس (آذار) سنة ٥٧، وبعد عشرة ايام عرضت أمريكا مشروع ايزنهاور لتنمية الشرق الأوسط، ولكن عبد الناصر رفض المشروع. ويمكن مقارنة ذلك بما حدث فى حرب يونيو (حزيران) سنة ٦٧.

الاتحاد السوفيتي:

إلى حين عقد صفقة السلاح التشيكى بين عبد الناصر والسوفيت لم يكن رأى السوفيت فى انقلاب يوليو يختلف عن رأى الغرب، على حين كان الغرب يراه: موسلينى العرب[١٠٥] و «كأفراد فى عصابة روبين هود المرحة، وهم مسرورون بهتاف الجماهير، ولكننى لم أجد واحداً منهم قادراً على شرح ماتريده الثورة، فهم لايكترثون بالسياسة»[١٠٦].

و «كان عبد الناصر يتخيل العالم كما يتخيله الطلبة المشاغبون»[١٠٧]، وكان السوفييت يصرحون: «إنه نظام يقوده ضباط رجعيون متصلون بالولايات المتحدة، وقمعوا العمال قمعاً وحشياً»[١٠٨]، وكان حزب الراية الشيوعى المصرى يرى أنه: «فاشى مصر المفلس»[١٠٥].

ولم يكن الرأى الليبرالى داخل مصر يختلف عن ذلك، فقد كتب إحسان عبد القدوس فى سنة ٦٥ تحت عنوان «الجمعية السرية التى تحكم مصر»: «... إن أعضاء مجلس قيادة الثورة لم يفرقوا بين وضعهم قبل الحركة ووضعهم بعدها، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين واجبهم كجماعة تعمل لقلب نظام الحكم، وجماعة تعمل لاستتباب نظام الحكم ...»[١١٠].

- وهكذا يمكن أن نسوق العديد من الأدلة على أنه لم يوجد أبداً مشترك أيدلوجى بين عبد الناصر وبين السوفييت.
- عقد السوفييت صفقة السلاح عبر تشيكوسلوفاكيا ووقعها عن السوفييت رئيس تحرير جريدة الرافدا ديمترى شبيلوف فى رسالة واضحة بعدم مساندتهم السياسية.
- أثناء بحث غارة غزة فى مجلس الأمن فى شهر مارس (آذار) سنة ٥٥ لزم المندوب



السوفييتى الصمت[111].

☐ كانت تشيكوسلوفاكيا هى بوابة السلاح والمهاجرين من الكتلة الاشتراكية إلى إسرائيل فى حرب ٤٨، حتى إنه قد حدثت أزمة بينها وبين الولايات المتحدة بسبب صفقات السلاح سنة ٤٨[112].

☐ اعترف السوفييت بقرار التقسيم وبإسرائيل فور إعلان الدولة، وكانت الدولة الثانية بعد أمريكا.

☐ لزم السوفييت الصمت أثناء عدوان ٥٦ على مصر، ودخلوا إلى المجر كى يخمدوا ثورة أمرى ناجى بالدبابات وبوحشية.

☐ بعد معرفة الاتجاه الأمريكى ضد العدوان شارك بولجانين فى توجيه إنذار إلى أطراف العدوان الثلاثى فى انتهازية واضحة.

☐ لم يصدر السوفييت بياناً واحداً يشارك عبد الناصر فى فكرة الحسم العسكرى، وظل الاعتراف بوجود إسرائيل، والوصول إلى حل عبر الوسائل السلمية، سياسة ثابتة لهم، وحتى فى فترات القطيعة مع إسرائيل.

☐ كانت المشتركات القليلة بين السوفييت وبين عبد الناصر تنحصر فى العداء للغرب، بدءاً من حلف بغداد، ولم يكن ذلك يكفى واقعياً لتوجيه سياسة قوة عظمى حتى تتورط فى صراع سياسى بثقل قضية الشرق الأوسط، وحتى يصل إلى دفع تكاليف حرب اليمن، والمساعدات الاقتصادية لمصر وسوريا.

التفسير التقليدى يقول إن أهداف السوفييت كانت متحققة فى مسار مختلف تماماً عن مسار عبد الناصر، فقد كان السوفييت يكسرون طوق الحصار الغربى الممتد من جنوب شرق آسيا وحتى وسط اوروبا، مروراً بحلف بغداد، ويقفزون إلى منطقة الطاقة والمواصلات وبطن أوروبا الطرى، وكان ذلك كفيلاً بصناعة أرصدة فى صراع الحرب الباردة، ولكنه بمرور الوقت تحول إلى استنزاف للاتحاد السوفيتى، وعندما حانت لحظة المواجهة الكثيفة فى هذا الصراع استسلم السوفيت بوضوح، وخرجوا صاغرين؛ وأقصد بذلك واقعة نادراً ما يتم الانتباه إليها:

فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) سنة ٧٣ وبعد قرار وقف إطلاق النار فى يوم ٢٢ لم يلتزم الإسرائيليون بالقرار، وظلت قواتهم تتمدد حتى طوقت الجيش الثالث المصرى، وبدأت فى قطع خطوط الإمداد عن الجيش الثانى، وعلى الجبهة السورية أخذوا فى التقدم على طريق دمشق، وهنا هدد بريچنيف بتحريك ٦ فرق محمولة جواً، وأعلن عن بدء حشدها، وفى نفس الساعة أعلن نيكسون رئيس الولايات المتحدة رفع الاستعداد النووى فى أنحاء العالم، وتراجع السوفييت، ولم يتوقف تراجعهم، إلى أن خرجوا من الشرق الأوسط كله.

ولكن استمرار السوفييت فى هذا الفخ المسمى بصراع الشرق الأوسط ساهم فى استمرار ثنائية الحرب والهزيمة، فهل كان الخروج من الحصار يساوى كل تلك التكلفة؟ كما أن السؤال لماذا ترك عبد الناصر العمل السياسى الممكن إلى الحل العسكرى المستحيل؟ يظل هذا السؤال معلقاً، بل إنه أصبح سؤالاً مركباً.

موت الأيدلوجيا:

تمر الأيدلوجيا بعدة أطوار قبل أن تموت؛ فتبدأ ولادتها بمرحلة الحلم والتأسيس النظرى، ثم المرحلة الثانية وهى مرحلة العنفوان وتطويع الواقع لتطبيقها، ثم مرحلة الشيخوخة وهى مرحلة الإخلاص للحلم على المستوى النظرى، مع الانصياع لضغوط الواقع ،وخيانة النصوص بالتالى، أو مايمكن أن نسميه المرحلة الطقسية Retulization، والمرحلة الأخيرة هى موت الأيدلوجيا.

وعندما أعلن جورباتشيف أفكاره عن البروسترويكا والجلازنوست، كان بذلك يعلن موت الاشتراكية، بعد أن أنهكتها مرحلة الحرب الباردة، وأصبحت مجرد حلم أمام واقع منفلت، ولم تعد الطقسية تكفى لستر تمرده وعيوبه، وكان بذلك ينهى حقبة اعتمدت على توازن الردع، ونحا بها إلى المنحى الحالى، وهو توازن المصالح.

لقد كانت الحرب الباردة مواجهة بين حكومات وجيوش، ولم تكن مواجهة بين طبقات، وكانت تلك مرحلة الشيخوخة.

وكانت المركزية الاشتراكية للسوفييت قد أصبحت ممارساتها أقرب إلى الأهداف القومية، ساهم في ذلك اشتعال أوار الحرب الباردة، وعدم مرونة الغرب مع القوى الوطنية والقومية الإقليمية، فدفعت تلك القوى للتحالف مع المعسكر الاشتراكي.

وكان لابد من خيانة النصوص، وهكذا ظهرت تعبيرات مثل مرحلة التحرر الوطنى، ووصل الأمر فى المؤتمر العشرين للأحزاب الشيوعية أن رتب ما سمى بقوى التحرر الوطنى فى الصدارة قبل القوى الاشتراكية، وقبل القوى العمالية!!.

كان لذلك دواعٍ عملية، بسبب أن الحرب الباردة فرضت الاستفادة من التوترات الإقليمية، بهدف الضغط على مصالح الخصم، وتحت مبرر التحالف فى مواجهة الاستعمار، دون اعتبار للمناهج الاجتماعية والاقتصادية والانتماءات الطبقية. وهكذا استمرت بؤر التوتر، وهكذا فرضت الحرب الباردة احتضان أنظمة نشأت من صراعات عرقية وعشائرية وانقلابات عسكرية، وحكام خارجين على القانون، وعصابات سياسية، وحالمين رومانسيين مخاصمين للواقع، وكل ذلك تحت تسمية غائمة ومتحايلة هى مرحلة التحرر الوطنى، وكان ذلك استئناف لسلوك شبه كنسى؛ عندما وضعت الدبابات السوفيتية أحزاباً شيوعية صغيرة فى الحكم أثناء الحرب الثانية، هكذا بدأت الشيخوخة مبكراً، ولحقها الموت المحتوم.

الأسباب الحقيقية:

وجد حكام مرحلة التحرر الوطنى، ومن بينهم عبد الناصر، أنهم يؤدون أدواراً إقليمية، فى الوقت الذى كان الانهيار بكل أنواعه يأكل أوطانهم من الداخل، وهكذا وجدوا من يدفع عنهم نظرياً وعملياً ثمن الفشل والهزائم، وهكذا لم يتم الاعتراف بالهزائم فى وقتها. وتم تزييف النتائج بمشاركة الكنائس الاشتراكية، ومهد ذلك لهزائم أخرى، وهكذا دواليك، وعندما انكشف الاتحاد السوفيتى، وخرج من الحلبة، انكشفت بعده الأنظمة العربية التقدمية حضارياً واقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً، وهكذا

انكشف أيضاً أن مرحلة التحرر الوطنى الوهمى كانت فى حقيقة الأمر غطاء لتدمير الديموقراطية والسلام، ولم يصبح أمامهم سوى توقيع اتفاقيات الإذعان، ولكن بعد أن استمرت ثنائية الحرب والهزيمة فى الحياة، وبعد أن انفصلت الأسباب عن النتائج، وبعد أن استمرت سياسات فاشلة وصيغ حكم عفا عليها الزمن والأخلاق. لقد كانت سياسة ترك العمل السياسى الممكن إلى الحسم العسكرى المستحيل هى السلوك القديم/ الحديث لمدرسة الشرق الفاشية فى ماكياجها الاشتراكى، وفى الرهان على قوى العداء للديموقراطية، منذ الرهان على البربرية النازية والفاشية، إلى الرهان على البربرية السوفيتية وطوال كل ذلك لم يكن هناك سوى مشترك واحد مع كل تلك البربريات، هو العداء للديموقراطية والسلام.

□□□

الفصل السادس

استمرار النظم التوتاليتارية فى إدارة العملية السلمية بعد فشلها فى إدارة الحرب

ظلت أسباب الحاجة إلى النصر هى نفسها أسباب الحاجة إلى الحرب، فكلاهما ينتمى إلى فكرة المعركة الفاصلة والحسم العسكرى، ولذلك كانت وسائل ترويج النصر هى نفسها وسائل الترويج للحرب.

لكن المفارقة تكمن فى أن يصبح هذا النصر بوابة لحذف أحد المقدسات: المحرمات، وهى الحل السلمى التفاوضى؛ هنا تصبح الحالة أقرب إلى الخروج على النص. وإذا كان الخروج على النص على خشبة المسرح يمر ببعض التواطؤ مع بعض المبالغة أو الحركة، فالأمر يختلف عندما يكون المسرح بحجم الشرق الأوسط وبحجم، تعقيداته، وبنوعية التراكم الحادث فيه، وبتعدد أطرافه. إن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد خداع الأتباع وإلى أكثر من البروباجاندا، وكان الأمر يحتاج إلى الكثير من المصارحة والقدرة على مواجهة الذات، إن السلام الحقيقى لايمكن إلا أن يكون ديموقراطيا، أما سلام الضرورة فهو ليس السلام الحقيقى؛ فهو وإما أن يكون سلام الإذعان سلام السيطرة، أو السلام الرسمى أو ماشابه، ولم يكن السلام الحقيقى بمقدور أى من أطراف قضية الشرق الأوسط.

كان الرئيس السادات يفرط فى الحديث عن «نصر أكتوبر»، وعندما ذهب إلى القدس فى ١٩ نوفمبر (تشرين تانى) سنة ١٩٧٧ ألقى خطاب الكنيست فى اليوم التالى كان يقول «حرب أكتوبر» وإنها آخر الحروب!، وفى معاهدة كامب ديفيد

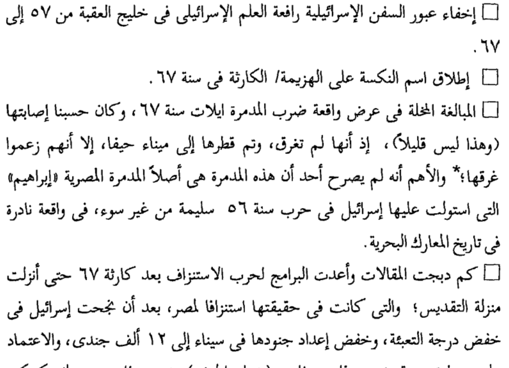
واتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل؛ كان الاعتراف واضحاً أن نتائج الحرب كانت لصالح إسرائيل اذ تحققت كل شروط إسرائيل تقريباً، وعلى رأسها صناعة عمق استراتيجى لإسرائيل داخل مصر يمتد إلى غرب القناة ويشمل المياه الإقليمية والجو والأرض كما أسلفنا، وإنهاء حالة الحرب، وتبادل التمثيل الدبلوماسى قبل الجلاء، أما الأكثر مأساوية فكان الاحتفال «بنصر» أكتوبر حتى يوم اغتيال الرئيس السادات، فى حين أن الأراضي المصرية كانت ماتزال محتلة، وحتى يوم ٢٥ أبريل (نيسان) سنة ٨٢ موعد الجلاء الأخير كان هناك تخوف فى مصر ألا تكمل إسرائيل الانسحاب! وهذا قليل من كثير لاحاجة بنا إلى الاستطراد فيه.

ونتج عن ذلك أن أصبحت حدود مصر السياسية وحدودها العسكرية غير متطابقة لأول مرة، بل إن السيادة بمعناها الإدارى منقوصة أيضاً، حيث يدخل الإسرائيليون إلى بعض المناطق فى سيناء دون فيزا.

والأخطر من كل ذلك أنه اعترف بالفارق الحضارى والديموقراطى بيننا وبينهم، فقد كانت الاتفاقية ملزمة للجانب المصرى، بمجرد أن يوقع عليها الرئيس السادات؛ فى حين أنها لا تصبح ملزمة للجانب الإسرائيلى إلا بعد موافقة الكنيست!. ولست هنا بصدد تقييم اتفاقيات السلام، ولكن كان علينا أن نتعود على خطاب مزدوج فى اتجاهين متناقضين فى نفس الوقت، خطاب للاستهلاك المحلى، وخطاب آخر أقل زيفاً للخارج. وهكذا تعودنا على سماع تلك العبارة الهامسة: «هو ده صحيح .. بس احنا مانقدرش نقول كده»، إنه فصام الوعى الواحد بنصل الحقيقة.

وهكذا تزداد حلقات سلسلة الأكاذيب والوعى الزائف فى الصراع العربى الإسرائيلى، ولايمكن لشخص بمفرده مهما امتلك من أدوات بحث أن يسبر غورها ومدى تأثيرها، ولكننا نختار بعض الحالات الواضحة:

☐ تزييف هزيمة ٥٦ وتفويت فرصة تقييم أسباب انهيار الجيش المصرى فى سيناء أمام إسرائيل خلال ٤٨ ساعة فقط، وقبل التدخل البريطانى الفرنسى فى ٣ نوفمبر (تشرين ثانى).



☐ إخفاء عبور السفن الإسرائيلية رافعة العلم الإسرائيلى فى خليج العقبة من ٥٧ إلى ٦٧.

☐ إطلاق اسم النكسة على الهزيمة/ الكارثة فى سنة ٦٧.

☐ المبالغة المخلة فى عرض واقعة ضرب المدمرة ايلات سنة ٦٧، وكان حسبنا إصابتها (وهذا ليس قليلاً)، إذ أنها لم تغرق، وتم قطرها إلى ميناء حيفا، إلا أنهم زعموا غرقها؛* والأهم أنه لم يصرح أحد أن هذه المدمرة هى أصلاً المدمرة المصرية «إبراهيم» التى استولت عليها إسرائيل فى حرب سنة ٥٦ سليمة من غير سوء، فى واقعة نادرة فى تاريخ المعارك البحرية.

☐ كم دبجت المقالات وأعدت البرامج لحرب الاستنزاف بعد كارثة ٦٧ حتى أنزلت منزلة التقديس؛ والتى كانت فى حقيقتها استنزافا لمصر، بعد أن نجحت إسرائيل فى خفض درجة التعبئة، وخفض إعداد جنودها فى سيناء إلى ١٢ ألف جندى، والاعتماد على سيطرة جوية ونسق دفاعى ثابت (خط بارليف) ونسق دفاعى متحرك تكتيكى عماده الدروع والمدفعية؛ فى حين أن مصر كانت تعبئ كل قواها، ويقول أمين هويدى مدير المخابرات العامة ووزير الدفاع سابقاً إن إسرائيل نشرت لواء مشاه ولواء مدرع أى حوالى ألف جندى فى النسق الأول فى مواجهة ٧ فرق مشاه ودروع مصريه وكان معنى ذلك الوقوع فى مصيدة العدو الذى طبق مبدأ الاقتصادى فى القوة تطبيقاً سليماً فى حين تمسكت القيادة المصرية بالتوزيع التقليدى وكان معنى ذلك هو الوقوع فى فخ** وهكذا أصبح الجسد المصرى كله معرضاً للضربات فى حين كانت رمال سيناء تبتلع الإمكانيات المصرية.

ومن الإنصاف القول إن حرب الاستنزاف أبقت احتلال الأراضى ملفاً سياسياً مفتوحاً، وخاصة أن قرار وقف إطلاق النار يوم ٩ يونيو (حزيران) سنة ٦٧ لم يتضمن الانسحاب من الأراضى التى تم احتلالها، (وكان معنى قبول العرب هو اعترافهم ببدء

---

* د. عبد العظيم رمضان. الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك. الجزء السابع ص ٢٣٥ الهيئة العامه للكتاب. القاهرة ١٩٩٧.

** أمين هويدى. الفرص الضائعة. الفصل السادس ص ٣٦٠. الطبعة الثالثة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت. ١٩٩٢

عمال الحرب)، ولكن بعد صدور القرار ٢٤٢ فى نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٦٧ كان يجب الإجابة على سؤال: هل تتناسب النتائج مع حجم التكلفة؟ لكن المناخ الذى يتيح توجيه أسئلة من هذه النوعية، فضلاً عن الإجابة عليها، لم يتوفر أبداً فى مصر منذ أربعة عقود على الأقل.لقد كان ذلك بالتاكيد هو أحد أسباب قبول مبادرة روجرز.

☐ برغم كل شيء، ومن أجل الحقيقة أولاً، ثم من أجل احترام الوعى الصانع للمستقبل ثانياً، ثم من أجل احترام أنفسنا ثالثاً، لابد أن نضع أيدينا فى «عش الزنابير» ونناقش نتائج حرب أكتوبر (تشرين أول) سنة ٧٣ بكل ما هو ممكن من الموضوعية:

☐ من الجوانب الإيجابية فى تلك الحرب تعطيل نظرية الأمن الإسرائيلية التى تعتمد على ضرب الخطر فى مكامنه، إذ أنها لم تتمكن من توجيه ضربة إجهاض وقائية لاستعدادات مصر وسوريا، بالرغم من معرفتها بساعة الصفر قبلها بوقت كاف (٤٨ ساعة)[١١٣]، لكن الاعتبارات والمحددات الدولية عطلت نظرية الأمن لديها، وهكذا فقدت المبادرة، وهذا نجاح للجانب العربى فى التعامل مع السياسات الدولية، وكانت جولدا مائير قد قالت فى اجتماع فى منزلها لـ «حكومة المطبخ» (وهم خلصائها من الوزراء وعلى رأسهم ايجال الون) وموجهة الكلام لديفيد اليعازر رئيس الأركان الذى طالب برفع الاستعدادات وتوجيه ضربة إجهاض: «... إننى أوثر أن أتلقى الضربة الأولى وتكون أمريكا معى خلال الحرب .. على أن أقوم بالضربة الأولى ولا تكون أمريكا معى بعدها ..» ، وهكذا لم يتوفر لإسرائيل رفع حالة الاستعداد إلا بنسبة ٢٥ ٪[١١٤]

وعندما نشبت الحرب يمكن ملاحظة الآتى:

☐ كان التلويح بإستعمال البترول العربى كوسيلة ضغط ، وارتفاع سعره فى طفرة غير مسبوقة يعد نجاحاً بكل المقاييس.

☐ كان استعمال جندى المشاة على نطاق واسع كوسيلة لمهاجمة الدروع فى أرض مفتوحة نسبياً، والتغلب على قلة الإمكانيات نيشاناً على صدر الشباب المصرى والسورى، بالإضافة إلى عبور المانع المائي، وتحطيم خط بارليف على الجبهة المصرية،

ومعركة جبل الشيخ على الجبهة السورية، كان كل ذلك ومازال رصيداً هاماً، كان المواطن العربى فى مسيس الحاجة إليه، وأقصد الحاجة السوسيوسيكلوجية.

□ كانت لصدمة المبادرة فى حرب أكتوبر، وبتخطيط جيد دوراً مهماً فى تفريغ بعض الصلف الإسرائيلى، وغيرت فكرة المجتمع الإسرائيلى نسبياً عن جيرانهم العرب، وكان ذلك من الاعتبارات الهامة فى تجهيز المجتمع الإسرائيلى للتسوية السلمية.

□ بتتبع مسار العمليات، ونوع التكتيكات تبين أن حجم الإمكانيات العربية لا يتيح هدفاً للحرب أكبر من كونها حرب تكتيكية أو ماقيل إنه حرب «تحريك»، وكان ذلك ميزة تحسب للقيادات، غير أن الافتقار للمصارحة، وعدم وضوح هدف الحرب بغية استعمالها كوسيلة سياسية داخلية، حّولها إلى عيب نتج عنه ارتباك، وأفسح المجال لأنواع من الأسئلة والتفسيرات، صبت كلها فى خانة السلبيات، وأحسب أن منها تغيير كل القيادات الميدانية العليا (قادة الجيوش) وغرفة العمليات أثناء الحرب، وكان من نتيجتها أن رئيس الأركان الذى قيل عنه إنه مهندس العبور نشر كتاباً باسم «حرب أكتوبر» وختم الكتاب ببلاغ إلى النائب العام ضد الرئيس السادات، ثم حوكم بعد ذلك عسكرياً، وصدر عليه حكم بالسجن ٣ سنوات، وأفرج عنه صحياً، وذلك أضاف الغموض إلى الارتباك، وقد تبين أثناء سير العمليات أن عدم الوضوح، وعدم التنسيق، شملا القيادات السياسية فى كل من القاهرة ودمشق، حتى أن سوريا طلبت وقف إطلاق النار عبر الاتحاد السوفيتى، بعد فترة قصيرة من بدء العمليات.

□ لابد أن نسلم أن المشاهد الختامية للحروب، هى التى تفرض الشروط بكل أنواعها وتحدد مسار التفاوض، وفى المشاهد الختامية للحرب كانت أوضاع القوات لصالح إسرائيل، فقد انتهت الحرب ولإسرائيل ٨٠٠ قطعة مدرعة ومدفعية ثقيلة غرب القناة وتشكيلات تزيد عن ٣ فرق، وكان أحد مجموعتى العمليات المصرية، وهو الجيش الثالث، مطوقاً بحراً وبراً وجواً بشكل كامل، وتغير مسرح العمليات بشكل جذرى بالنسبة للجيش الثانى، ولم تكن الأوضاع على الجبهة السورية أفضل، إذ أصبحت القوات الإسرائيلية على بعد ٣٩ كم من دمشق، ويمكن القول إن أحد المشاهد

الختامية لحرب أكتوبر هى الأوضاع الحالية على الجبهة السورية/ الإسرائيلية بعد ٢٥ سنة من الحرب، وبرغم اتفاق الفصل بين القوات الذى اعادت إسرائيل بمقتضاه بعض الأراضى، الا أن الأوضاع الحالية فى الجولان هى خير إثبات على أن المشاهد الاخيرة لحرب أكتوبر تجعلها أبعد ما تكون عن النصر.

☐ خسرت مصر فرقتين بنسبة خسائر كبيرة قبل الثغرة مباشرة وبعدها، وهما الفرقة ٢١ مدرعات والفرقة ١٦ مشاة.

☐ انكسر حائط الصواريخ بواسطة وسيلتين أولهما صاروخ شرايك أمريكى جو- أرض المضاد للرادارات، والذى يبدو أنه لم يكن بحوزة إسرائيل، عند بدء العمليات، وثانيهما بواسطة عمليات الاختراق الرأسى بالقوات الخاصة بواسطة الهليوكبتر، وأصبحت الأوضاع الجوية لصالح إسرائيل، وكان ذلك هو التجهيز المجهود الرئيسى الذى ظل موضع تساؤل إلى يوم ١٦ أكتوبر (تشرين أول) عن مكانه وأهدافه.

☐ وهكذا تمكنت إسرائيل بعد تحييد الصواريخ والفراغ الذى أحدثته خسائر الفرقة ٢١ المدرعة، من العبور إلى غرب القناة بواسطة جسر حجرى عند منطقة الدفرسوار، وكان من الواضح أن الثغرة والتطويق هى المجهود الرئيسى للقوات الإسرائيلية، ولكن كان من الواضح أن عزم الهجوم لم يكن كافياً لأكثر من التوقف عند قرية نفيشة، على حدود مدينة الإسماعيلية شمالاً، ودخول السويس ثم الخروج منها واحتلال ميناء الادبية ومنطقة عتاقة جنوباً، وبالتمدد غرباً حتى الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة/ السويس. وهكذا تغير الموقف العسكرى لصالح إسرائيل.

☐ فى يوم ١٩ اتصل السادات بالسفير السوفيتى، وأخبره أن مصر على استعداد لقبول وقف إطلاق النار[١١٥]، وكان ذلك خير تعبير عن أوضاع القوات، وقبلها فى يوم ١٦ كان السادات قد عرض فى مجلس الشعب وقف إطلاق النار وحلا سلميا تفاوضيا.

☐ دارت المفاوضات على الأراضى المصرية غرب القناة فى الكيلو ١٠١ على طريق السويس، وقبلها وقبل وقف إطلاق النار جاءت جولدا مائير مع أركان حربها إلى غرب القناة، والتقطت لها الصور فى الزيتية فى السويس، وقام شارون بعقد مؤتمر صحفى فى

سرابيوم بصفته قائد عملية «الغزالة» أو «الثغرة».

☐ قال اندريه بوفر الخبير الاستراتيجى الفرنسى بعد أن تجول فى ميدان المعركة طولاً وعرضاً: «إنها كانت حربا محدودة الهدف .. محدودة المدة»، وكان بذلك يوضح التقييم الدقيق لأهداف حرب أكتوبر (تشرين أول).

☐ أرسل السادات إلى كيسنجر يوم ٧ أكتوبر (تشرين أول) أى ثانى يوم المعركة رسالة فحواها: «إننا لا نعتزم تعميق مدى الاشتباكات، أو توسيع مدى المواجهة»[١١٦] ومما يجعل من ذلك حقيقة أن ميدان العمليات بكل أنواعها لمصر وسوريا لم يتجاوز أراضيهما المحتلة فى سنة٦٧ إلى داخل إسرائيل.

☐ بعد نشوب الحرب تلكأت الولايات المتحدة فى مد الجسر الجوى والبحرى إلى إسرائيل* ، ومن الواضح ان ذلك كان ضمن سلسلة من الإجراءات اتخذتها الولايات المتحدة لوضع ضوابط على نتائج الحرب تتسق ونظريتها السياسية عن الصراع العربى الإسرائيلى وبما يتفق مع مصالحها، ولكن بعد ٦ أيام أصبح الجسر فعالاً، ومكن إسرائيل من أن تقلب الأوضاع لصالحها.

☐ بعد صدور قرار وقف إطلاق النار يوم ٢٢ استمرت إسرائيل فى التمدد (كما سبق وذكرت)، وهكذا كانت فى وضع يسمح لها بفرض شروط، من بينها أن يتم تشغيل قناة السويس فى سنة ٧٥ وهى قريبة من القناة، وإعادة سكان مدن القناة، وبدء تعميرها، وإخلاء شرق القناة من القوات المصرية التى عبرت أثناء المعركة، باستثناء قوات رمزية، فى مقابل انسحابها الجزئى، والباقى معروف.

☐ لم تعلن مصر وسوريا خسائرهما فى حين أعلنت إسرائيل خسائرها، وهذا مايدفعنا إلى اللجوء إلى طرف ثالث خاصة وأنه يتفق ما أعلنه معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن منذ مدة طويلة لا أتذكرها بدقة، وكان تقدير الخسائر المصرية ١٥ آلف جندى ، و٨ الاف أسير وكانت خسائر إسرائيل ٢٢٢٥ جندياً على

---

* جون بولوك مستشار هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C لشئون الشرق الأوسط موقع الإذاعة البريطانية على شبكة الإنترنت فى ٩٨/١٠/١.

الجبهتين و ٢٤١ اسيراً لدى مصر*، أعرف أن خسائر الافراد نسبية بين الجانبين، ولكن لها معاملات مع خسائر المعدات والأرض.

إن احتفال يوم ٢٥ إبريل (نيسان) سنة ٨٢ وهو يوم إتمام جلاء القوات الإسرائيلية عن سيناء، وتسميته بعيد تحرير سيناء هو تسمية غير دقيقة، وبالتأكيد هو عيد، ولكن الاسم الأقرب إلى الدقة والأمانة هو عيد الجلاء عن سيناء.

إن الحقيقة المحررة هى بعض ما نحتاج إليه فى معركة السلام، وإلا خسرناها كما خسرنا المعارك العسكرية، والنذر الأولى غير مطمئنة، وذلك لأن الإصرار على استعمال الجهل كوسائل سياسية هو الديماجوجيا فى صورتها الحقيقية، ولا توجد خدمة لقوى الحرب والعنصرية فى إسرائيل أكبر من استمرار الوعى الزائف، والحشد والتعبئة ذات الأهداف المحلية.

وعندما تحدث نتنياهو فى الكونجرس الأمريكى فى زيارته الأولى بعد وصوله إلى الحكم فى انتخابات سنة ٩٦، قال فى اجتماع مشترك لمجلسى الكونجرس الأمريكى: «.. إن إسرائيل محاطة بدول يحكمها الطغاة»، وهنا كان يذكر الحقيقة، ولكنها الحقيقة التى يراد بها الباطل، فلايمكن له أن يزعم أنه يريد الديموقراطية للشعوب العربية. ويفضحه أنه تحدث عن المشاركة فى تأمين الحكومات العربية المستبدة ضد شعوبها، ويعتبر أن ذلك يمكن أن يكون ضمن صفقة «الأمن مقابل السلام»، وبعد أن تحدث مراراً عن أن السلام مع العرب هو سلام الردع، وليس السلام الديموقراطى(١١٧). ويفضحه ثانية إصراره على تحويل السلطة الفلسطينية إلى عصا غليظة لقهر الشعب الفلسطينى (لايقلل من ذلك أنها صالحة ومستعدة لذلك).

وهكذا كان علينا أن ندفع كشعوب ثمن الكذب مرتين، مرة عندما قُتلت الحقيقة فى حياتنا، ومرة عندما أصبحت أحد أرصدة قوى الحرب والعنصرية والتوسع فى إسرائيل، ولأن من كذب فى معركة الحرب لابد أن يكذب فى معركة السلام، وهكذا تتكاثر وتعشش طحالب الكذب والهزيمة السوداء فى حياتنا،وهكذا تتزايد تنوعات التحالف ضد الحرية والسلام.

□□□

* موقع هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C على شبكة الانترنت (المصدر السابق) - إذاعه، B.B.C أيضاً فى ٩٨/١٠/١.

هوامش الباب الثاني:

١- محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل الجزء الأول ص ١٤٣، ١٤٤. دار الشروق. القاهرة ١٩٩٦.

٢ - كاريمان المغربي. الإخوان المسلمون من حسن البنا إلى سيد قطب ص ٧٩. بدون ناشر. القاهرة. ١٩٩٧.

٣ - المصدر السابق ص ٨٠.

٤- عبد الرحمن الحص. صورة من حياة رياض الصلح. خطاب إلى مزاحم الباجه ٢-حي رئيس وزراء العراق في سنة ٤٨. بيروت. سنة ١٩٥١.

٥ - جميل عارف. شاهد على مولد الجامعة العربية ص ٣٣ - ٣٥. الدولية للإعلام والنشر. القاهرة ١٩٩٥.

٦ - د. رفعت سيد أحمد. الدين والدولة والثورة ص ٨٦. الدار الشرقية. القاهرة. ١٩٨٩.

٧ - المصدر السابق ص ٨٦.

- قيل إنه كان يوجد ضابط قبطي واحد في تنظيم الضابط الأحرار بين حوالي ٣٠٠ ضابط، ويقال أيضاً إنه تعاون معهم بعد الانقلاب، ولكن في كل الأحوال كان هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

٨ - عبد الناصر. فلسفة الثورة ص ٤٦. دار المسيرة. بيروت.

٩ - تبقت بصمات ذهنية مدرسة الشرق على قادة نظام يوليو بعد نجاح الانقلاب حيث يقول خالد محي الدين في كتابه «الآن أتكلم» إن عبد الناصر فجر ٦ قنابل في أنحاء القاهرة عندما كان وزيراً للداخلية في أول وزارة بعد الانقلاب !!، كما أنه دفع آلاف جنيه إلى صاوى أحمد صاوى (صاو صاو) نقيب عمال النقل كي يسير مظاهرة تهتف ضد القانون والديموقراطية، وضد الطلبة وضد العلم سنة ٥٤، كما قام صلاح سالم ومعه زمرة من الضابط الأحرار، بضرب د. عبد الرازق السنهوري رئيس مجلس الدولة آنذاك في مكتبه، لأنه رفض أن يطلق اسم ثورة على الانقلاب.

- ويقول أحمد باسم القاضي في كتابه «مذكرات الحارس الشخصي لمحمد نجيب». مجلة المصور ٩٥/٤/١٤؛ إن جمال سالم صفع محمد نجيب (رئيس الجمهورية آنذاك) على وجهه أثناء وداع الملك عبد العزيز آل سعود في مطار القاهرة.

- وتم الاعتداء على د. طه حسين في مكتبه، ووضعت رأس د. لويس عوض في دلو البول في السجن.

- تم إعدام خميس والبقرى بسبب إضراب العمال كفر الدوار في سبتمبر (ايلول) سنة ٥٢، وكان سبب الإضراب هو المطالبة بعدم تخفيض مرتباتهم.

١١ - جويل بنن. مصدر سابق ص ١٣٨.

١٢ - جريدة الأهالي القاهرية. ١٩٩٣/٩/٢٩. والروائي هو يوسف القعيد.

١٣ - سامي شرف. القصة الكاملة لإنشاء حزب عبد الناصر السرى جريدة العربي. ١٩٩٤/١/١٠.

١٤ - د. عبد العظيم أنيس. تنظيم عبد الناصر السرى لماذا؟ مجلة اليسار العدد ٤٨. أول فبراير (شباط) ١٩٩٤.

١٥ - د. عبد العظيم رمضان. الوثائق السرية لثورة يوليو ص ٣٠ - ٣٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٧.

١٦ - جريدة الحياة اللندنية. النبوى إسماعيل يتذكر. من ٩٥/٥/١٢ إلى ٩٥/٥/٢٠.

١٧- موشيه شاريت يوميات شخصية. ترجمة: أحمد خليفة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت.

١٨ -Lewis coser. The functions of sqciaL Social comflict. Glunco The free press 1956. p> 107, 108.

١٩ - كايزرهوف. جوبلز ص ٢٥٦ عن الآن شيرر. صعود وسقوط الرايخ الثالث الجزء الأول ص ٣٤٩.

٢٠ – فتحى غانم. كيف سيطرت المخابرات والمباحث على عقول المصريين. روز اليوسف العدد رقم ٣٤٢٧ فى ١٤/ ٢/ ٩٤.

٢١ – د. عبد العظيم رمضان. الوثائق السرية. مصدر سابق ص ١٥ .

٢٢ – المصدر السابق ص ١٧ .

٢٣ – ريجس دوبريه. الميديولوجيا ترجمة: جورجيت حداد وفؤاد شاهين. دار الطليعة. بيروت.

٢٤ – وكالات الأنباء. الأسبوع الأخير من شهر فبراير (شباط) ١٩٩٨ .

٢٥ – صلاح الدين حافظ. حرية الصحافة وحرب الجواسيس. الأهرام ٩٦/١١/٢٠ .

٢٦ – بدر عقل. توظيف الفساد. الدار العربية. القاهرة.

٢٧ – حل برنامج الشيخ متولى الشعراوى محل برنامج دائرة الحوار أثناء وجود د. جمال العطيفى كوزير للإعلام فى منتصف السبعينيات، ذلك البرنامج الذى كشف عن تعددية سياسية واسعة، ولم يرض السادات عن البرنامج فطلب تغييره ببرنامج الشيخ الشعرواى وتم عزل د. العطيفى بعدها بفترة قصيرة.

٢٨ – محمد صالح. تحت عنوان ميكروفون. جريدة الأهرام. الأسبوع الثانى من يونيو (حزيران) ١٩٩٢ .

٢٩ – مجلة رزو اليوسف. جريدة العربى الناصرى ٩٧/٩/٢٢ .

٣٠ – تعلقت عيناى بحوائط الكنيست وأعتقد أن الكثيرين فعلوا مثلى عندما كان الرئيس السادات يلقى خطابه خلال مبادرة سنه ١٩٧٧ ، فلم أشاهد أية لافتات، وعندما تيسر لى مقابلة بعض ممن دخلوا الكنيست من الفلسطينيين والمصريين سألتهم إن كانوا قد شاهدوا لافتة بهذا المعنى فى الداخل أو فى الخارج فكان أن نفوا ذلك تماماً.

٣١ – د. إميل توما. جذور القضية الفسطينية. الطبعة الأولى. القدس.

٣٢– د. عاصم الدسوقى. مجتمع علماء الأزهر فى مصر. ص ٦ دار الثقافة الجديدة. القاهرة. ١٩٨٠ .

٣٣– لاحظ المعنى المزدوج المراوغ للعبارة ما بين المحافظة على القرآن وبين الحفظ فى الذاكرة.

٣٤– ر. هـ. دكمجيان. تاريخ الحركات الإسلامية ص ٢٨ ، ٢٩ .

٣٥ – الماوردى. الأحكام السلطانية.

٣٦ – د. عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص ٨٥ .

٣٧ – شيوخ الأزهر. إدارة الإعلام الخارجى. الأزهر. القاهرة.

محمد عبد المنعم خفاجى. الأزهر فى ألف عام. جـ الاول ص ١٤٦ . ١٩٥٤ .

٣٨ – عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص ١٣ .

– ابن اياس. بدائع الزهور فى وقائع الدهور. حـ ٣ ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

٣٩ – هنرى لورنس. بونابرت والإسلام. ترجمة: بشير الشباعى . ص ٧٦ . مصر العربية. القاهرة. ١٩٩٧ .

«خرج الفرنسيون من مصر بمقتضى معاهدة الإسكندرية بين العثمانيين والإنجليز وبين الفرنسيين فى ١٨٠١/٨/٣٠»

٤٠– محمد حسنين هيكل. المفاوضات السرية (مصدر سابق) ص ٣٢،٣٣ .

٤١ – محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام المجلد الاول ص ١٠٢٦ .

٤٢ – د. عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص ٦٩ .

٤٣ – الشيخ منصور على رجب. الأزهر بين الماضى والحاضر ص ٧٩. القاهرة. ١٩٤٦ عن عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص٧٠.

٤٤ – الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى. العلم والعلماء ص ٧٨ – ٨٢. القاهرة ١٩٠٤ عن عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص ٧٠.

٤٥ – كاريمان المغربى. رسالة ماجستير: الإخوان المسلمون من حسن البنا إلى سيد قطب ص ٨١، ٨٢. بدون ناشر. القاهرة ١٩٩٧.

٤٦ – المصدر السابق ص ٨١.

٤٧ – قانون الأزهر رقم ١٥ لسنة ١٩٢٧ الصادر فى ٢٧/٥/٣١. مادة(١).

٤٨ – د. عاصم الدسوقى (مصدر السابق) ص ٥٦.

٤٩ – المصدر السابق ص ٨٢.

٥٠ – د. محمد عمارة. الإسلام وأصول الحكم. بيروت ١٩٧٢٠ ومجلة الطليعة القاهرية سنه ١٩٧٢.

٥١– د. خالد محمد خالد. قصتى مع الحياة. الجزء الثانى. جريدة الوفد من ٩/٢٤ إلى ٣١/ ٩٢/١٢.

٥٢ – p. j. vatikiots. Nassr and his Generation. croom helm LtD. LonDon Ec4p 4EE. 1978. pp. 62 - 63.

٥٣ – عبد الناصر. فلسفة الثورة ص ٤٦. دار المسيرة. بيروت.

«يعترف عبد الناصر أنه حاول اغتيال أحد الزعماء وفشلت المحاولة».

– الميثاق ص ٥٢. دار المسيرة. بيروت.

«يعترف عبد الناصر أن المنظمات السرية مهدت لانقلاب ٥٢».

٥٤ – الميثاق ص ٤٢ – ٤٤ (مصدر سابق).

٥٥ – المصدر السابق ص ١٦١ ، ١٦٢.

٥٦ – فلسفة الثورة (مصدر سابق) ص ١٠٥.

٥٧ – المصدر السابق ص ٥٨.

٥٨ – الميثاق (مصدر السابق) ص ٤٢ – ٤٤.

٥٩ – قانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٩٣.

٦٠ – رفعت سيد أحمد (مصدر السابق) ص ١٤٤، ١٤٥.

٦١ – فلسفة الثورة (مصدر سابق) ص ١٠٢ – ١٠٥.

٦٢ – كاريمان المغربى (مصدر السابق) ص ٢٣٤.

٦٣ – المصدر السابق ص ٢٤٣.

٦٤ – د. حسن حنفى. الدين والتنمية فى مصر ص ٢٠٣.

٦٥ – قانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ (مصدر سابق).

٦٦ – د. رفعت سيد أحمد (مصدر سابق) ص ٢٢٤.

٦٧ – المصدر السابق ص ٢٢٤.

٦٨– شيوخ الأزهر (مصدر سابق) فصل الشيخ عبد الرحمن تاج.

٦٩ – سليمان فياض. جريدة الأهالي. ١٦و ٢٣/ ١١/ ٩٤.

٧٠ – دستور ٢٣ ومحاضر جلسات النقاش حوله (من الأستاذ أحمد طلعت المحامي).

– الدساتير المؤقتة والدائمة في جمهورية يوليو (من الأستاذ أبو القاضي الجيزاوي).

٧١ – علي عشماوي. المذكرات (أنا والإخوان والتنظيم الخاص). مجلة المصور (الحلقة السابعة) ٢١ /٥/٩٣.

٧٢ – جريدة الأهرام. القاهرة. ٩٥/١١/٢٢.

٧٣ – وصل الأمر الى أنه تم تقديم استجواب وخمس طلبات إحاطة وسؤال فى مجلس الشعب المصرى فى جلسة واحدة فى ٩٢/١/١١ إلى وزير الأوقاف بخصوص هذا الموضوع.

٧٤ – جريدة الدستور القاهرية. تحقيق عبادة علي وصفاء عبد الفتاح فى ١٢/٣/ ١٩٩٧.

٧٥ – مجدى سبلة. مجلة المصور القاهرية فى ٩٣/١/٢٩. (تقدر بعض الجهات فى وزارة الأوقاف العدد بـ ٤٠٠ ألف مسجد وزاوية).

٧٦) شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوى. جريدة الأهرام ١٩٩٦/١٠/١ . مقابلة أجراها محمد يونس.

٧٨ – الحياة اللندنية (حرب فقهية) خلاف المفتى وشيخ الأزهر على حق الفتوى. ٢٣ /٥/٩٥.

– مجلة المصور ٩٥/٦/١٦. القاهرة.

٧٩ – لقاء الرئيس الجزائري على كافي مع المثقفين المصريين. المحرر يوسف القعيد. المصور رقم ٣٥٨٦ فى ١٩٩٣/٧/٢.

٨٠ – علي عشماوى (مصدر سابق).

٨١ – بدر عقل (مصدر سابق).

٨٢ – شهادة الغزالي. جريدة الحياة فى ٦/٢٣ و ١٩٩٣/٨/١٨.

– شهادة محمود مزورعة. جريدة الشعب فى ١٩٩٣/٧/٦.

«اعتمد الاثنان فى شهادتيهما على كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق وأخذا منه الفتاوى المتشددة وأهملا فتوى الإمام إبراهيم النخعى الذى أفتى باستتابة من يقال بكفره إلى الأبد، ويعنى ذلك أنه ليس هناك حد للكفر، وذلك يعنى أنهما أخذا بالغلواء بصرف النظر عن رأينا نحن بهذا الصدد».

٨٣ – مجلة روز اليوسف ٩٣/٤/١٩. القاهرة.

– جريدة الوفد ٩٣/٤/١٧. القاهرة.

٨٤ – «فى القناة الثالثة فى تليفزيون القاهرة فى الساعة الخامسة مساء فى يوم ٩٢/٩/١١ قال د. عبد الصبور شاهين فى برنامج أسبوعى له: «إن السينما والمسرح والأوبرا والباليه هى فنون ارستقراطية ولا تعنى إلا الفئة المتكسبة منها، ثم هاجم وزارة الثقافة وقال إنها يجب أن تكون للثقافة الحقيقية التى يمكن معرفتها يوم الجمعة فى المساجد حيث يذهب الجميع!!» ولا نضيف.

٨٥ – د. عاصم الدسوقى (مصدر سابق) ص ٧١.

٨٦ – د. هالة مصطفى. الإسلام السياسى فى مصر . ص ١٩١ – ٢٠٢. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. الأهرام القاهرة ١٩٩٢.

٨٧ – فى جريدة الأهرام فى ٩٧/٢/١١ نشر مقالة لرئيس محكمة أمن دولة عن نكاح الشياطين، قال فيه إن الشباب الذين قيل عنهم عبدة الشيطان (القضية لم يوجه فيها اتهام لأحد) هم أبناء الشيطان حيث إن الإنسان أثناء النكاح إن لم يتمتم بعبارات دينية فإن الشيطان يشاركه نكاح زوجته وبالتالى يصبح الأبناء هم أبناء للشيطان!!».

٨٨ – جريدة الوفد ١٠/ ٩٢/٣. القاهرة.

٨٩ – «فى سنة ١٩١٤ حكمت محكمة الاستئناف فى الإسكندرية برفض التفرقة بين زوج اسمه أبوزيد! وبين زوجته بسبب

إنكار الرجل لنبوة آدم، وقال القاضى فى حيثيات الحكم إن الغرب يتقدم لانشغاله بالأمور الجادة بينما نحن نتخلف لانشغالنا بسفاسف الأمور وقشورها» .

٩٠ - كلمة صليب Cross تستعمل فى العديد من اللغات اللاتينية باعتبارها مرادف للتضحية والتكفير.

٩١ - الخاخامات الربابنة هم أول مؤسسة دينية فى اليهودية وهم من قاموا بكتابة التوراة.

٩٢ - المقصود هو الشيخ محمد متولى الشعرواى وكان وزيراً للأوقاف آنذاك.

٩٣ - د. عبد العظيم رمضان (مصدر سابق) ص ٢٨.

٩٤ - المصدر السابق ص ٢٩.

٩٥ - مذكرات هزاع المجالى عن د. وليد الخالدى. السنة الخمسون بعد قرار التقسيم جريدة الحياة اللندنية من ٩٧/١٢/١.

٩٦ - موشيه شاريت (مصدر سابق) ص ١٧٥.

٩٧ - المصدر السابق ص ٣٢٩.

٩٨ - المصدر السابق ص ٣١٨.

٩٩ - المصدر السابق ص ٧٥.

١٠٠ - ستيفن جرين . الانحياز - العلاقات السرية بين أمريكا وإسرائيل. ترجمة د. سهيل ذكار. دار حسان. دمشق

١٠١ - ويلبر كوين ليفلاند. حبال من رمال - فشل أمريكا فى الشرق الأوسط. ترجمة: على حداد. دار المروج بيروت.

١٠٢ - ناحوم جولدمان. التناقض اليهودى . مصلحة الاستعلامات. بدون مترجم. القاهرة

١٠٣ - محمد حسنين هيكل. المفاوضات السرية (مصدر سابق) المقدمة.

١٠٤ - د. وليد الخالدى. السنة الخمسون (مصدر سابق) .

١٠٥ - د. محمود فوزى. «حرب السويس- ١٩٥٦»، ترجمة: د. مختار الجمال. دار الشروق القاهرة.

١٠٦ - مايلز كوبلاند. «لعبة الأمم» ترجمة: مرمان خير. انترناشيونال سنتر. بيروت.

١٠٧ - (المصدر السابق)

١٠٨ - جويل بنن (مصدر سابق) .

١٠٩ - جويل بنن (المصدر السابق).

١١٠ - إحسان عبد القدوس. «الجمعية السرية التى تحكم مصر». روز اليوسف ٢٢ / ٣/ ١٩٦٥.

١١١ - موشيه شاريت (مصدر سابق).

١١٢ - جويل بنن (مصدر سابق).

١١٣ - تقرير لجنة إجرانات المشكلة للتحقيق فى التقصير فى حرب ٧٣ فى إسرائيل.

١١٤ - (المصدر السابق).

١١٥ - محمد حسنين هيكل. أكتوبر ٧٣ - الحرب والسياسة. مركز الأهرام للترجمة والنشر مؤسسة الأهرام - ١٩٩٣.

١١٦ - المصدر السابق.

١١٧ - بنيامين نتنياهو (مصدر سابق) مقدمة الطبعة العبرية.

■■■

الباب الثالث

مؤثرات عربية في إسرائيل

مقدمة

كانت عوامل التأثير والتأثر تفعل فعلها طوال الوقت بين العرب وإسرائيل، وسيان كانت خطوط المواجهة مشتعلة أو هادئة، فقد كانت تلك العوامل نشطة فى الساحات الخلفية، بمبعدة عن خطوط القتال ونتائجها.

ومن البديهى أن هذا المجال لايحتوى فقط على المؤثرات العربية فى إسرائيل؛ وإنما يحوى أيضاً مؤثرات إسرائيلية فى العرب، مع فوارق ناتجة عن اختلاف درجة الانفتاح على المؤثرات الخارجية، والتى تنعكس على معدل ومدى التأثير، ولاشك أن درجة انفتاح إسرائيل أكبر من درجة انفتاح العالم العربى، ولذلك فهى أكثر إرسالاً واستقبالاً فى هذا المجال.

وإذا كانت المؤثرات المتبادلة هى عناصر انعكاسية طارئة، فثمةعناصر تلقائية وبنائية وموروثة هى المشتركات والتى نتجت عن تشابك فى ميادين التاريخ والانثربولوجيا والأساطير والأديان واللغات ومن هنا تتأتى تعقيداتها. ولست أنوى هنا التعرض للمؤثرات الإسرائيلية على العالم العربى ولا للمشتركات، وهذا العنصر الأخير هو ما يحتاج إلى دراسة أخرى ذات جوانب ومستويات متعددة.

إن دراسة عوامل التأثير والتأثر بين العرب وإسرائيل معناه الأول هو النظر إلى الآخر من خارج فوهة البندقية، وهو مايبدو غريباً على نحو ما، ولكنه من الضرورة بمكان،

حيث إنه بمثابة مقدمة وأرضية لتثاقف وتفاعل حضارى ستزداد معدلاته إن شئنا أم أبينا، فهو مرحلة محتومة من مراحل الصراع.

وعوامل التأثير والتأثر هى نتيجة طبيعية ومنطقية، نتجت عن وجود الدول العربية فى جزء من العالم، وفى منطقة جغرافية ممتدة فى قلب العالم القديم، وفى حيز ثقافى وتاريخى واجتماعى واقتصادى وانثروبولوجى متراكم: وجاءت الصهيونية كفكرة ونخبة ومهاجرين محملة بقراءة معادية، وأنساق معرفية، وأهداف مختلفة، نازعت المنطقة أساطيرها وتاريخها وثقافتها وثرواتها وجغرافيتها، بل أيضا سكانها، وكانت امتحاناً تاريخياًحاداً، انتهى بهزيمة قاسية. لقيم ذلك التراكم وثقافته ومعارفه وغاياته ونخبه وأنظمته، وكشفت عن تخلف مجتمعى. ولذلك، سواء كان آجلاً أم عاجلاً؛ فإن المجال سينفتح لقيم وتصورات وقراءات ومعارف أخرى وعصر آخر، ولست أعتقد أننى أبالغ إذا أضفت وعدالة جديدة.

إن الاعتماد على اللغة فى معالجة أخطاء التفكير كان فعالاً حتى الآن فى الاحتفاظ بالأمر الواقع فى العالم العربى، وإبعاد التغيرات عن مجال المدركات المصرية والعربية، ولكن لم تعد هناك أدلة قوية على أن ذلك سيستمر، لأن احتلال المشاعر لمكان العقل أفضى إلى نتائج كارثية.

ومن المفيد أن نركز دراسة المؤثرات على المرحلة الثانية فى الصراع؛ أى منذ إعلان الدولة العبرية فى مساء يوم ١٤ مايو (ايار) سنة ٤٨ وحتى نجاح حزب الليكود تحت قيادة بنيامين نتنياهو فى انتخابات مايو (ايار) سنة ٩٦.

وعند استعراضنا لبعض تلك المؤثرات سواء كانت سلبية أو إيجابية (المقياس من وجهة نظرى هو الابتعاد والاقتراب من مفهوم السلام) فإن كلاهما تكشف عن معاملات واحدة فى تطبيقات متناقضة، وهى تتيح لنا رصد بعض عوامل التداخل بين العرب واسرائيل؛ التى كلما تعددت وتعمقت، ووعيناها فى تعددها وعمقها كلما ازدادت آفاق السلام اتساعاً ورسوخاً. كما أنها يجب أن تصبح مرشداً أساسياً لنا عندما نخوض المرحلة الثالثة التى بدأت فعلاً فى الصراع، وهى فى اعتقادى – وبرغم كل

الغرائز السياسية لدى بنيامين نتنياهو وجوقته من الفاشيين والعنصريين، وبرغم حلفائهم ووكلائهم الأغبياء من العرب خصوم الديموقراطية والتقدم من أبناء «مدرسة الشرق». وبرغم كل ذلك- يجب أن تكون تلك المرحلة هى مرحلة النضال من أجل السلام الديموقراطى.

وبعض هذه المؤثرات هى:

أولا: التداخل السكانى والثقافى.

ثانيا: عبد الناصر والصراع بين قوى الحرب وقوى الحل السلمى فى إسرائيل.

ثالثا: زيارة السادات إلى القدس.

رابعا: غزو لبنان ومجازر صبرا و شاتيلا.

خامسا: الانتفاضة الفلسطينية.

سادسا: عمليات حماس والجهاد.

الفصل الأول
التداخل السكانى والثقافى

ظهرت الأيدلوجية الصيهيونية كأيدلوجية قومية تهدف إلى إنشاء وطن قومى لليهود بهدف حل المشكلة اليهودية، وتحويل المسألة اليهودية إلى موضوع سياسى إيجابى، بدلاً من كون اليهود طرفاً سلبياً لنشاط الآخرين.

وهكذا كانت الديناميكية الصهيونية عبارة عن الهجرة والاستيطان والاندماج لإقامة دولة إسرائيل.

وقد نشأت المشكلة اليهودية نتيجة عدة مقدمات وأسباب:

☐ روح اللاسامية التى سادت فى أوروبا قبل عصر النهضة لأسباب اجتماعية وكنسية، كاثوليكية تحديداً.

☐ فشل تيار التنوير والانخراط فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو مايسمى الهسكلاه، وكان من أبرز قادته الحاخام موشيه مندلسون.

☐ استمرار موجات ما سمى باللاسامية فى عصر الدولة القومية العلمانية فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر بسبب أن الدولة القومية كانت مؤسسة على فكرة تحرر الفرد ونقاء العرق ، ولم تحمل بالتالى فكر تحرر الجماعات الطائفية أو غيرها.

☐ فشلت الحداثة الأوروبية الغربية فى الوصول إلى أوروبا الشرقية، ويمكن القول إن فشل أوروبا الشرقية فى استقبال الحداثة الغربية، وبالتالى استمرار فكر القرون الوسطى

فى الحياة فى شرق أوروبا، وهكذا سادت فى روسيا فكرة الأرض المقدسة للجماعة القومية المؤمنة (أراضى روسيا المقدسة) وهكذا حدث نوع من التطهير المذهبى، تمثل فى طرد اليهود إلى مناطق غرب وجنوب روسيا.

☐ تصاعدت موجات اللاسامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى تحولت إلى المذابح والتنكيل الجماعى فى روسيا القيصرية وبولندا وأوكرانيا ورومانيا والمجر، وهكذا بدأ الهولوكوست اليهودى، واستمر بعد الثورة البلشفية فى روسيا على يد الجيوش البيضاء من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢١.

☐ بعد وصول الحزب النازى إلى الحكم فى ألمانيا سنة ١٩٣٣ تصاعدت موجة اللاسامية ثانية إلى أن وصلت إلى معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعية، أى هولوكوست جديد أو مايسمى «شواح»، وتبع ذلك موجات الهجرة الجماعية من وسط أوروبا اتجته أغلبها إلى الولايات المتحدة.

وهكذا يمكن القول دون تجاوز إن الأيدلوجية الصهيونية بكل ما تحويه من أسس ومقدمات وآليات هى فكر أوروبى حصراً، وإذا شئنا المزيد من الدقة فإن موطنها شرق أوروبا تحديداً، ومن هنا جاءت أغلب الهجرات إلى فلسطين، حيث إن أغلب الهجرات من ألمانيا النازية والنمسا وفرنسا والمناطق المحتلة أثناء حكومة فيشى اتجهت إلى الولايات المتحدة والأرجنتين وكندا.

والمعنى الإضافى لذلك هو أن الأيدلوجية الصهيونية بأسسها: الهولوكوست، والهجرة والاستيطان والاندماج، هى دعوة اشكنازية، اختمرت وتبلورت فى أوساط يهود أوروبا.

وقد كانت نسبة اليهود الاشكناز ومازالت إلى يهود العالم ٩٠٪، وقد كانت هذه هى النسبة فى إسرائيل حتى سنة ١٩٤٩.

ومعنى ذلك أن نسبة السفرديم (الشرقيين)[١] إلى يهود العالم هى ١٠٪ من التعداد العام.

ولم يكن اليهود فى العالم العربى يعانون من اضطهاد دينى محدد، ولكن كان

اضطهادهم يتم ضمن الاضطهاد الموجه إلى كل الأقليات، وفى الكثير من الأحيان كانوا يفلتون من الاضطهاد بين الأقليات بانتمائهم إلى الطبقات العليا، إما بسبب أنشطتهم التجارية أو الإبداعية و إما بسبب اضطلاعهم بوظائف إدارية محددة، كما كان وضعهم فى العراق ومصر فى النصف الثانى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، كما كان لهم باع طويل فى تأسيس الفكر والحركات اليسارية.

وثمة فروق أخرى ثقافية كانت تعمق التفرقة، وهى أن الاشكناز كانوا طائفة يهودية فقط يتحدثون بجوار لغاتهم الأوروبية لغة خاصة هى اليديش. فى حين أن اليهود الشرقيين (السفرديم) أو اليهود العرب تحديداً كانت لهم ثقافتهم ولغتهم العبرية بجوار كونهم يهوداً، وبالإضافة إلى الثقافة العربية التى توجد بينها وبين العبرية مؤثرات ومكونات مشتركة، حتى أن العبرية كانت تكتب بالحروف العربية فى زمن قديم بما فى ذلك الموضوعات الدينية اليهودية، وقد كانت العبرية (اللغة والثقافة) هى أحد مشكلات الصهيونية؛ فالعبرية هى ثقافة منطقة وعصر وأقوام شتي بجانب اليهود، ولذلك فاليهودية والعبرية ليستا متطابقتين، والعبرية (اللغة والثقافة) تزيد من شرقية اليهود بل من عروبتهم فى المنطقة العربية مثلما تؤثر العبرية وتدخل فى تكوين الثقافة العربية.

وباعتبار أن الصهيونية جاءت إلى منطقة تحمل معها ثقافتها الأوروبية فقد كولدت بذلك ثلاثية جدلية لم تحل حتى الآن، بالإضافة إلى الثنائيات المتعددة فى إسرائيل هى ثلاثية (الصهيونية – اليهودية – العبرية) [٢].

ويلاحظ أن مشاركة اليهود العرب فى المؤتمرات الصهيونية كانت متأخرة جداً إلى فترة الأربعينيات، وبعد ثورة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤١ فى العراق، وبعد التحرشات من الجماعات الفاشية فى مصر فى فترة الأربعينيات أيضاً كلما حلت ذكرى وعد بلفور فى ٢ نوفمبر (تشرين ثانى) من كل عام.

وكان عدد الجمعيات اليهودية المشاركة فى المؤتمر الصهيونى الثانى فى بازل سنة ١٨٩٨ من العالم العربى جمعيتين وتحديداً من مصر، فى حين كان العدد الكلى المشارك هو ١١٥٠ جمعية من كل العالم، وكان منهم ٧٦٠ جمعية من ثلاث دول

أوروبية شرقية هم: روسيا والمجر ورومانيا[٣] .

اليهود فى إسرائيل .. تكوين متغير:

يقول د. رشاد الشامى إن نسبة اليهود السفارديين فى إسرائيل سنة ١٩٨٠ كان ٦٠٪ من نسبة اليهود الكلية[٤] ؛ أى أن نسبة الاشكيناز فى نفس السنة كانت ٤٠٪. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن التعداد اليهودى فى إسرائيل هو تكوين متغير. وبالتالى فالنسب غير ثابتة، وحتى منتصف التسعينيات الحالية؛ إلا إنه يمكن القول إنها تتجه إلى الثبات النسبى مستقبلاً، حيث إن احتمال حدوث طفرات تحدث تغييراً جوهرياً فى النسب ضعيفة الاحتمال الآن، وخاصة بعد حدوث موجة المهاجرين الأخيرة من اليهود الروس خلال أواخر الثمانينات وبداية التسعينيات الحالية.

وهكذا يمكن تقدير متوسط هذه النسب حالياً من بين عدة تقديرات (لاتوجد إحصاءات فى إسرائيل توضح تلك المكونات فى التعداد العام لليهود) وهى أن النسبة الاشكنازية الحالية هى ٤٥٪، وبالتالى فالنسبة السفاردية هى ٥٥٪، وإذا وضعنا فى الحسبان أن النسبة الغالبة من السفارديم هى من اليهود العرب، وهكذا يكون الحد الأدنى لهم هو ٤٠٪ فى التعداد اليهودى العام، وبعدد يقرب من ٢ مليون نسمة، ذلك أن التعداد الكلى لإسرائيل هو ٥,٦٠٠,٠٠٠ مليون، وعدد اليهود تقريباً ٤,٦٥٠,٠٠٠ نسمة.

الصهيونية والفاشية العربية .. الهدف المشترك:

لم يكن بوسع الصهيونية بكل ثقلها، وعلى الرغم من اتساع مجال عملها فى أوروبا كلها، وبين ٩٠٪ من يهود العالم أى ٩ أمثال يهود الشرق، وهم ضحايا الهولوكوست وجسم المسالة اليهودية، وعلى مدى زمنى لايقل عن ١٠٠ سنة، لم يكن بوسعها مع كل ذلك أن تنجح فى تهجير أكثر ٢,٢٠٠,٠٠٠ يهودى (بالمقاييس الحالية).

وهكذا نجحت الفاشية العربية أو «مدرسة الشرق» خلال ما لايزيد عن ٢٠ سنة أن تقوم بتهجير حوالى ٩٠٪ من اليهود العرب، ورغماً عنهم فى أغلب الأحوال، اتجه

الفقراء منهم إلى إسرائيل كتحصيل حاصل، وبوسائل مستترة حيناً، وبوسائل قانونية وعلنية حيناً آخر، إلا أنها بكاملها كانت وسائل ترهيب. إن تفسير ذلك يوضح أحد الجوانب المأساوية في الصراع العربي الإسرائيلي. وإذا أضفنا إلى ماسبق أنه يوجد في إسرائيل حوالي مليون عربي فلسطيني تمت مقاطعتهم وتخوينهم، وكل ذنبهم أنهم تمسكوا بوطنهم؛ نستنتج من ذلك أن إسرائيل دولة شرقية بمعنى من المعاني، وفيها جانب عربي غالب بالمعنى الثقافي والاجتماعي للكلمة، حيث لايقل تعداد من لهم أصول وثقافة عربية عن ٥٧٪ من التعداد العام. وهكذا تزداد الصورة مأساوية؛ حيث إنه بجوار استحقاقات الفشل والهزيمة التي بلغتها القوى الفاشية العربية، يتكشف كيف أضمرت في ذهنيتها أبشع الميول اللاإنسانية خلال إدارتها للصراع .

التهجير وسياسة قتل المجتمع:

إذا كانت الفاشية في تصورها العدمي للذات تهدف إلى الاندماج والتلاشي في الزعيم أو المخلص، أو في فكرة الخلاص الواحدة الدينية أو الوطنية أو القومية أو العرقية؛ أو فكرة خليط من كل ذلك، وبالتالي فالآخر الذي لديه ما يمنعه من التلاشي هو عقبة أمام الخلاص، وبالتالي فهو عدو، ومن ثم يجب أن يختفي، وذلك يتوقف على الوسائل. وهكذا في مقابل بضاعة الزيف يبدأ المجتمع في تدمير نفسه.

وبدوره يتطلب مفهوم السيطرة والاستمرار للنظام العسكري تصفية كل بديل سياسي وإجهاض قواه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مهما كانت درجة ارتباطه التاريخية والانثروبولوجية بالمجتمع، وهكذا تمتزج غايات الفاشية مع غايات الطغيان العسكري بسلاسة، وهكذا وُلدت شعبوية يوليو البارزة ونجاحها الأساسي إذ تحولت إلى ثقافة سائدة وأيدلوجية حكم.

وهكذا نتج عن هذا الامتزاج تراكم طبقات جيولوجيا الاستبداد فوق الحياة المصرية، وأصبحت أسيرة سياسات القتل المنظم للمجتمع، مثل: «أول رئيس مصري لمصر» ، و«رئيس مسلم لدولة مسلمة». كما أنتج سياسات مثل: التمصير والتأميم والتنظيم، ثم «تأمين الجبهة الداخلية»، «الحشد والتعبئة»، ولم يستهدف كل ذلك

سوى حرمان البديل السياسى (وهو فى البداية الطبقة الوسطى والفئات الرأسمالية) من قدراته، وبالتالى تدميره وتدمير مشروعه. ولايمكن بحال قبول التوصيف بأن تلك كانت سياسات وطنية؛ فالفشل والهزيمة كانا مصيرها فى الخارج والداخل على حد سواء، وإذا كان يمكن التعلل فى معارك الخارج بأسباب يداخلها الكثير من الزيف، مثل الاستعمار والغرب الامبريالى (تغيرت بدورها إلى ثنائيات أخرى مثل المادية والغرب الكافر) فما هو تعليل هزائم الداخل فى ظل سلطة مركزية قاهرة؟

لقد كان ذلك سبباً ونتيجة فى آن، أديا إلى عمليات تهجير واسعة (مازالت مستمرة مع الأقباط والعلماء، وبعض فئات المبدعين) للمصريين والمتمصرين من اليهود واليونانيين والأرمن والفرنسيين والإيطاليين والشوام والقبارصة والرأسماليين والصحفيين والعائلات السياسية والصناعية والتجارية، ولم يقل تعداد هؤلاء عن ١,٢٠٠,٠٠٠ (بينهم ٨٥ ألف يهودى) كانوا يحوزون قدرات هائلة ونادرة فى مناحى الإنتاج والخبرة والحرفية والإدارة والأنشطة الرأسمالية، وبمستوى ونوعية لايمكن تعويضها، كما أن عدد الأقباط المهاجرين لايقل عن مليون ونصف إضافى، ومن المؤسف أن ذلك تم فى نفس الوقت الذى فتحت فيه إسرائيل وأوربا والولايات المتحدة أبوابها وصدرها للهجرة من الخارج، بما فيها من مصر والعالم العربى، بما يعنى أنها كانت تستقبل قدرات وطاقات بشرية تزيد من قوتها يومياً. ومازالت القوى والأنظمة الفاشية العربية تبدد القدرات البشرية لمجتمعاتها بدوافع ضيقة واستبدادية، ويصبح الحديث بعد ذلك عن تنمية من أى نوع إنما هو بالتأكيد حصاد الهشيم.

فى ذلك السياق تم تهجير اليهود، وإذا كانوا قد تم التنكيل بهم تحت شعار «تأمين الجبهة الداخلية» فى انتظار تحقيق حلم اليقظة المعنون بالمعركة الفاصلة؛ فقد تم ذلك بعديد من السياسات منها المعلن ومنها غير المعلن، وكلاهما يتم بوسائل وأفراد أعدوا بعناية، كى يكونوا تروساً فى آلة الإجرام الأمنية الضخمة المعادية للشعب التى أسستها جمهورية يوليو العسكرية، ومن السياسات غير المعلنة مداهمة زوار الفجر لمنازل العائلات اليهودية، وتخييرهم بين الذهاب إلى السجن أو الذهاب إلى المطار،

وبعد ذلك يتم نهب ممتلكاتهم. أما السياسات المعلنة فيندرج تحتها الاعتقال التحفظى فى أماكن لاإنسانية اشتهرت بها آلة الإجرام [٥]، ثم جاء دور قانون وزير الداخلية رقم ١٨٣ لسنة ٦٤: وطبقاً للمادة ٧ فقرة ثامناً من هذا القانون تم وضع كل اليهود المصريين فى القائمة السوداء، ونص القانون على أن اليهودى لا يستطيع أن يغادر البلاد إلا نهائياً، وبعد التنازل عن الجنسية والإقامة، والحرمان من حق العمل فى المؤسسات العامة، ومعاملة الزوجة أو الزوج الغير يهودى معاملة اليهود [٦]. وقبل ذلك تم استعراض جرائم «مدرسة الشرق» فى حق اليهود وغير اليهود قبل سنة ٥٢.

وهكذا تم اقتطاع قطعة من الجسد المصرى، ووضعت فى فم الصهيونية، دون أن تبذل الأخيرة مجهوداً يذكر.

ومثل ذلك وأكثر أتبع مع يهود العراق، منذ أحداث الفرهود فى سنة ١٩٤١، خلال الحركة الفاشية المسماة ثورة رشيد عالى الكيلانى، ثم قانون إسقاط الجنسية فى ظل حكومة توفيق السويدى، والذى لم ينتج عنه شىء، فبدأت عمليات ترهيب على أيدى قوات الأمن العراقية وعملاء الموساد فى وقت واحد، ثم سلسلة القنابل والتفجيرات فى أماكن تجمع اليهود، وحيث تاه الفاصل ما بين أفعال الحكم العراقى وأفعال الموساد والمنظمات الصهيونية تحت قيادة الإسرائيلى من أصل عراقى موردخاى بن بورات. وتم تأسيس شركة طيران أعلنت فى جنوب أفريقيا لحمل اليهود إلى قبرص فى البداية، وعندما كانت نسبة منهم تهرب إلى دول أخرى بدأت طائرات تلك الشركة التى هى فى الأصل شركة العال تنزل رأساً من بغداد إلى مطار اللد [٧]. ويحدد الكتاب السنوى لإسرائيل سنة ٥٢ عدد المهاجرين العراقيين وهو ١٢٥٨٩٦ فى الفترة من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ ونسبة ١٥٪ منهم من كردستان، وأحد هؤلاء إسحاق موردخاى وزير الدفاع الحالى فى حكومة الليكود، ويلاحظ أن ذلك ليس العدد الكلى فهناك من هُجِّر بعد ذلك، ومنهم من هرب إلى إيران مثل: سامى ميخائيل الروائى، أو إلى تركيا، لكن لكل الظروف العائلية والمعيشية أجبرته على التوجه إلى اسرائيل، أو إلى

غيرها فى الأرجنتين أو الولايات المتحدة. وهكذا اقتُطع قسم من الشعب العراقى أُلقم للصهيونية، دون أن تبذل مجهوداً يذكر.

بعد ذلك ليس بمستغرب بعد أن كان يقال لهم «يهودى» فى العالم العربى؛ أن يقال لهم «مصرى» أو «عراقى» فى إسرائيل، وأصبح حى اليهود العراقيين فى ضاحية رامات جان فى تل أبيب يطلق عليها بغداد.

وعلى نفس المنوال، وربما أسوأ، دارت عمليات تهجير اليهود من اليمن، حيث أصدر الإمام أحمد فتوى تكفير اليهود، وتكفير من يتعامل معهم، وأعلن: «أنهم لم يعودوا فى حمايته كأهل ذمة»، تمهيداً لتهجيرهم ضمن عملية «بساط الريح». وقامت الحكومة الليبية بتهجير يهود ليبيا عنوة سنة ٦٧ إلى إيطاليا بدعوى عدم قدرتها على حمايتهم؛ وتم تهجير يهود الجزائر بعد وصول حكومة فيشى إلى الحكم فى فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد احتلال ألمانيا النازية لفرنسا، ونفس الشىء حدث فى المغرب، وحدث أيضاً بعد الاستقلال.

ودور جعفر النميرى فى تهجير يهود الفلاشا الأثيوبيين بعد استغلال وطأة الجفاف والمجاعة عليهم خلال السبعينيات. وفى سوريا ولبنان قام ماسمى بكتائب الفداء بعمليات تفجير وقتل بعد هزيمة ٤٨ ضد اليهود فى سوريا، وكانوا ميداناً لقياس قوة السياسات القومية للانقلابات العسكرية المستمرة، ثم استعملوا كرهينة من رهائن التسوية السياسية فى النهاية.

ولم يشارك اليهود العرب فى حرب ٤٨[٨] وهم لايشاركون فى الاستيطان للأراضى المحتلة، كما أن محاضر لجان الهدنة فيها من حالات الهرب من صفوف الجيش الإسرائيلى إلى الخطوط العربية التى كان يقوم بها اليهود العرب[٩] مايثير التعجب والمرارة. وذكرى المعبراه (المقر المؤقت للمهاجرين وهو عبارة عن معسكرات من الخيام وبيوت الصفيح) ليست من الذكريات المحببة لليهود العرب.

والأدب الذى يعبر به اليهود العرب عن انتمائهم الأصلى، وازدواجيتهم الثقافية،

مما سبق ذكره يحتاج إلى دراسة أخرى.

وعندما يقول أحد الشعراء اليهود من أصول عربية إنه يحمل تراثاً عربياً وإسلامياً فإن لذلك مغزى. وحدث ولاحرج عن حالة العرب الفلسطينيين الذين تم نسيانهم ومقاطعتهم وتخوينهم، لأنهم لم ينصاعوا للشعار المرفوع فى حرب ٤٨ : «العرض قبل الأرض» ، ولم ينصاعوا أيضاً لإرهاب الصهيونية العنصرى وتمسكوا بوطنهم، ونضالاتهم من أجل ثقافهم، بما فيهم المسيحيون والدروز، تحتاج إلى جيش من الباحثين لحصرها ودراستها.

ليس كل ماسبق هو بكاء على اللبن المسكوب، ولكنه فى حقيقة الأمر محاولة للإمساك بالبدايات الحقيقية للسلام الديموقراطى مثلما كانت هى البدايات الحقيقية للحرب والهزائم.

□□□

الفصل الثاني

عبد الناصر والصراع بين قوى الحرب وقوى الحل السلمى فى إسرائيل

بعد انتصار إسرائيل فى حرب ٤٨ وتوقيع اتفاقيات الهدنة مع دول المواجهة العربية، خلال النصف الأول من سنة ٤٩، وحصولها على اعتراف العرب فى تلك الاتفاقيات، ونتيجة الحرب حصلت على النصف الغربى لمدينة القدس (كانت ذات صفة خاصة، وتحت إدارة لجنة دولية ١٠ سنوات فى قرار التقسيم)، وحصولها على ٢٥٠٠ ميل مرب إضافى، زيادة على حصتها فى قرار التقسيم[١٠]، ثم حصولها على الشرعية الدولية وعضوية الأمم المتحدة. وكان من الطبيعى أن يحدث خلاف بين النخبة الحاكمة، حول التصور لصيغة تلك الدولة، ونوع علاقاتها مع جيرانها العرب.

وانقسمت الآراء إلى تيارين رئيسيين هما:

أولاً: معسكر الحرب الذى كان يرى أن الفرصة سانحة لتأسيس إسرائيل الكبرى وأنه يمكن فرض سيتحول إلى ورطة ووسيلة ضغط على إسرائيل.

وكان يقود هذا المعسكر ديفيد جرين المعروف باسم ديفيد بن جوريون ومعه يمين حزب الماباى الحاكم، ومنهم: بنحاس لافون وزير الدفاع، وموشيه ديان، وجولدا مائير، سون، وشيمون بيريز، وإسحاق رابين ، وبنيامين جبلى، وارئيل شارون.

وكان يشايعه اليمين القومى والأحزاب القومية الدينية.

ثانياً: معسكر الحل السلمى، وكان يرى أن الفرصة تسمح بإجراء تسوية تاريخية بين العرب وإسرائيل، وأنه يمكن بحث مشاكل اللاجئين، وعقد اتفاقات مرور، ومشاريع مياه مشتركة وتنمية قاعدة المصالح الحدودية والإقليمية المشتركة، كبداية للسلام الشامل.

ثم نما ذلك التصور حتى قدم موشيه شاريت زعيم هذا المعسكر برنامجا متكاملا لبدء التفاوض حول السلام الشامل، كما قدم ناحوم جولدمان أحد أعضاء هذا المعسكر برنامجا للتعاون الإقليمى وسنورد البرنامجين خلال سياق استعراضنا لتلك المواقف. وبالإضافة إلى موشيه شاريت وناحوم جولدمان ضم ذلك المعسكر يسار حزب الماباى الحاكم: ومنه: يوسف تكواع وجدعون روفائيل وإلياس ساسون واليعازر ليفنه، وكان يشايعه أحزاب اليسار مثل: المابام والاحزاب الاشتراكية والشيوعية، وحاييم وايزمان رئيس الدولة قبل وفاته.

الصراع داخل الحزب الحاكم:

يمكن اعتبار الصراع بين المعسكرين هو صراع بين الأمن والسلام فى صورة قديمة، ولكن المثير فى الأمر هو أن المعسكرين كانا جناحين فى الحزب الحاكم، وهو الماباى، وكانا أعضاء فى المجموعة الحاكمة أى مجلس الوزراء.

وكانت الهدنة العالمية السائدة بعد الحرب الثانية تعتبر خلفية مناسبة للمعسكر الثانى الذى شرع فى الاتصالات مع بعض القيادات العربية. ومن بينها بعض القيادات السياسية فى مصر مثل: إسماعيل صدقى باشا ود. محمد حسين هيكل باشا قبل قرار التقسيم، ثم أثناء الحرب، ولم يكن الموقف فى الحرب يدعم الشروط المصرية فتوقفت الاتصالات.

ثم اتصل هذا المعسكر مع أحمد عبود باشا رجل الصناعة الأشهر فى مصر آنذاك فى سنة ٥٠ وطلبوا منه التوسط من أجل المرور فى الممرات المائية الدولية؛ فوافق بشرط أن ترسو السفن التجارية المصرية فى كل موانئ إسرائيل (وكان عبود باشا يملك أكبر شركة للنقل البحرى وهى شركة البوسته الخديوية)، وأن تقوم شركة مصر للطيران برحلات غير مقيدة إلى إسرائيل؛ فرفض الإسرائيليون الطلب خوفاً من سيطرة وسائل النقل المصرية، واحتكارها لتجارة إسرائيل، ولكنهم عادوا فاتصلوا به سنة ٥٣ ووافقوا على شروطه، لكنه أوقف الاتصالات وقال: «إن مصر تحكمها عصابة، ونحن لا نعرف إلى إين نحن ذاهبون».(١١)

كان المرور فى الممرات الدولية قد تم النص عليه ضمنا فى اتفاقيات الهدنة بين مصر وإسرائيل فى ٢٤ فبراير (شباط) ٤٩، لكن مصر اعتماداً على نقاط فنية، لم

تنفذ ذلك، حتى صدر قرار من مجلس الأمن فى نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٥١، والذى دعا مصر إلى إلغاء القيود التى فرضتها على حرية الملاحة، لكن مصر كانت تسمح فقط بمرور الشحنات غير الاستراتيجية، وفى نهاية سنة ٥٣ فرضت حظراً شاملاً.

كان شاريت يرى أن مثل تلك الأمور يمكن حلها بالوسائل الدبلوماسية، ولكن لافون وزير الدفاع ومن خلفه كل معسكر الحرب كانوا يؤمنون بأن حل مشاكل إسرائيل لن يتم إلا بالقوة.

موشيه شاريت .. الفرصة الضائعة:

ولد شاريت فى قرية فلسطينية، هى عين سينان قضاء رام الله شمال القدس، وتعلم اللغة العربية، وتربى بين العائلات العربية، ويبدو من مذكراته أنه، تأثر بذلك، وكان يعتقد أنه يعرف العرب بدرجة تجعله أقرب إلى فهمهم.

وقال عنه ناحوم جولدمان: «كان قائدا إسرائيلياً نادراً، لأنه من قلائل كانوا يرون العرب شعباً يساوى الشعب اليهودى، وأن من الممكن التعايش بين الشعبين فى المستقبل كجيران وأصدقاء».

فى سنة ٥٣ وفى انتصار مرحلى أصبح شاريت رئيساً للحكومة ووزيراً للخارجية، و كان مستنداً إلى دعم الحزب والكنيست ، وهكذا استمر فى اتصالاته السرية مع عبد الناصر.

وكان عليه أن يسابق الزمن فى وضع لايحسد عليه، وكان محصوراً بين معسكر الحرب الذى احتل وزارة الدفاع تحركه مؤامرات بن جوريون من مستوطنة «سد بوكر» وبين النظام العسكرى فى مصر المنخرط فى صراع على السلطة، والمزايدة بالتالى على الموقف من إسرائيل، ونفس المزايدة اشتعلت مع حلفاء الأمس، وهم الإخوان المسلمون، الذين اتهموا عبد الناصر بالتفاوض سراً مع إسرائيل. وحول كل ذلك العالم العربى المصاب بجرح نرجسي[١٢] نتيجة هزيمة ٤٨ إلى كتلة غوغائية تطالب بالحرب، تحت شعارات دينية وقومية فاشية، كان ذلك هو الجو العام.

☐ قبل الاحتفال بالذكرى السادسة لإنشاء إسرائيل وقف شاريت أمام الكنيست فى مايو (آيار) سنة ٥٤، وأعلن أنه مستعد للتفاوض فى أى وقت، سواء كان ذلك من أجل حل شامل، أو حل جزئي تمهيداً لحل شامل[١٣] ولكن ذلك لم يؤد لشىء.

□ ولم تكن محاولات شاريت قد انقطعت عن الاتصال المباشر عن طريق السفارة المصرية في باريس، أو عن طريق الوساطات الأمريكية والإنجليزية، ولكن كل ذلك لم يؤد لشيء.

□ بعد توقيع معاهدة الجلاء بين مصر وبريطانيا في أكتوبر (تشرين أول) سنة ٥٤ حمل النائب العمالي البريطاني موريس اورباخ أول مقترحات مكتوبة من موشيه شاريت إلى عبد الناصر، تصلح كبداية لمشروع سلام، وفي الوقت الذي كانت فيه الحدود المصرية الإسرائيلية مسرحاً للعمليات الفدائية المتبادلة، وبشكل شبه يومي، وكانت مصر قد أسرت سفينة يونانية تحمل سلعاً إسرائيلية في طريقها إلى إيلات، وكانت مقترحات شاريت من ٧ بنود:

١ - إيقاف الحملات الإعلامية ضد إسرائيل بسبب فضيحة لافون.

٢ - إطلاق سراح السفينة بات جليم التي كانت متجهة إلى إيلات، وعدم التعرض لها أثناء إكمال مسيرتها.

٣ - السماح بمرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس.

٤ - إيقاف الحملات الإعلامية المضادة والحرب النفسية على الجانبين.

٥ - إيقاف الاعتداءات على الحدود.

٦ - إقامة قنوات اتصال سرية للتوصل إلى الصيغ العملية للعلاقات بين مصر وإسرائيل.

٧ - تبادل وجهات النظر حول مستقبل العلاقات المصرية - الإسرائيلية بصورة سرية.(١٤)

وبينما كان موريس اورباخ في طريقه إلى القاهرة لمقابلة عبد الناصر أعلن موشيه شاريت في مؤتمر صحفي: «إن إسرائيل مستعدة لتوقيع اتفاقيات سلام دائم مع من يشاء من الدول العربية، وإنها مستعدة للمشاركة في تنمية وادى نهر الأردن طبقاً لمشروع لجنة «ماين»، ومستعدة لتعويض اللاجئين الفلسطينيين عن كل ممتلكاتهم وثرواتهم التي تركوها .. أما بشأن قرار الأمم المتحدة الذي ينص على عودة من يريد من اللاجئين (القرار ١٩٤) فإن إسرائيل لايمكنها سوى استيعاب عدد قليل منهم .».

« ... كما أن إسرائيل مستعدة للسماح بخطوط مواصلات برية بين مصر ولبنان، وتقديم تسهيلات مجانية إلى الأردن في ميناء حيفا، وطريق برى بين مصر والأردن عبر صحراء النقب، والسماح للطائرات المدنية العربية بالتحليق في الأجواء الإسرائيلية مجاناً وبدون قيود، ومن أجل الاعتراف بحدود دائمة، فإن إسرائيل على استعداد

وحتى يثبت شاريت أنه قادر على الالتزام بمشاريع السلام تقدم إلى الكنيست فى شهر يناير (كانون ثانى) سنه ٥٥ يطلب تفويضاً رسمياً لمواصلة السعى إلى اتفاقيات سلام بين إسرائيل والعرب، وصوت الكنيست لصالحه ٥٤ صوتا ضد ٩ مع امتناع ٧ عن التصويت.ولم يؤد ذلك لأى نتائج، لأن عبد الناصر لم يرد.

☐ فى ٢٣ يوليو (تموز) سنة ٥٤ تم ضبط شبكة تخريب إسرائيلية فى القاهرة، قامت بإشعال حرائق عدة فى مؤسسات بريطانية وأمريكية ومؤسسات عامة مصرية، وكان لذلك عدة أهداف من بينها الإساءة إلى العلاقات المصرية مع بريطانيا وأمريكا، غير أن الهدف الأول كان تطويق محاولات شاريت للوصول إلى حل سلمى، خاصة أنه قد رافق ذلك عمليات اعتداء حدودية، و أثبتت لجنة التحقيق (اولشن – دورى) أن الأمر كله كان مؤامرة دبرها معسكر الحرب من وراء ظهر شاريت.

☐ بالرغم من ذلك تواصلت محاولات موشيه شاريت مع القاهرة، غير أن إصرار عبد الناصر على الاحتفاظ بالاتصالات فى حدود السرية، حتى إن أحد ضباطه وهو صلاح جوهر فى لجان الهدنة طلب من الضباط الإسرئيليين الحفاظ على سرية الاتصالات بينهم، بعيداً عن الضباط المصريين الآخرين. ثم جاء إعدام المتهمين فى يناير (كانون ثانى) سنة ٥٥، وبالرغم من أن عبد الناصر هو من وقع على الأحكام فإنه أنها أرسل عبر واشنطن رسالة بعدها فى ١٠ فبراير (شباط) يعتذر عن اتمام الاجتماع مع ايجال يادين فى ظل الأوضاع السائدة فى مصر، ومع نياته الطيبة كلها لم يكن فى وسعه أن يتصرف على نحو مختلف، وأنه يريد منهم أن يعلموا أنه مستاء من تنفيذ الشنق، وأن الشنق حدث رغماً عنه.

غير أن شاريت رداً سلبياً على عبد الناصر وقال: «إما إن ظاهره غير باطنه، وإما أنه غير قادر على تنفيذ وعوده، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك، فإنه فى نظرنا ليس أهلاً للتفاوض، وفى مثل هذا الوضع لا نرى فائدة من الذهاب إلى اجتماع يمكن أن يفشل، ويمكن فقط أن يستغل كشهادة حسن سير وسلوك لعبد الناصر، دون أن تتقدم المصالح شبراً واحداً..»(١٦)

□ فى ١٧ فبراير (شباط) سنة ٥٥ تنحى لافون وعاد بن جوريون وزيراً للدفاع.

□ فجر يوم أول مارس (اذار) أى بعد ١١ يوم من عودة بن جوريون إلى الوزارة حدثت غارة غزة، وكان ذلك إيذانا بافول فرصة سلام حقيقية. ذلك أن المسرح لم يكن معداً لها، وكانت الأطراف كلها تتبادل حواراً آخر، حيث إن الجميع كان يحتاج إلى الحرب، ووصلوا جميعاً إلى هدفهم.

□ فى تلك الفترة كتب شاريت فى يومياته الشخصية: «إن شعورى العميق أننى مقبل على درب الآم جديد».[١٧] وهكذا أثبت موشيه شاريت أن محنة الرأى الآخر كانت على الجانب الآخر أيضاً.

□ فى ١٦ يونيو (حزيران) سنة ٥٦ استقال موشيه شاريت من وزارة بن جوريون نتيجة تصويت فى ١١ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٥٥، وهكذا بدأت حقبة جديدة، وما أشبه الليلة بالبارحة.

□□□

الفصل الثالث
زيارة السادات للقدس

لست هنا بصدد التورط فى ثنائية السادات/ عبد الناصر المفتعلة والصورية، وإنما هى لمحاولة رصد آثار فعل سياسى محدد وهو زيارة السادات للقدس فى ١٩ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٧٧. الخارج عن المألوف، طبقاً لسياق الصراع، وطبيعة الأفعال وردود الأفعال التى تحكم الطرف العرب.

☐ قام السادات بمبادرة زيارة القدس بعد أن وصلت المفاوضات المصرية الإسرائيلية إلى طريق مسدود، وكان هدفه المحدد صنع رصيد سياسى داخل إسرائيل، وداخل دوائر الإدارة الأمريكية، ودوائر الضغط اليهودية فى أمريكا وأوروبا، بهدف إخراج المفاوضات من طريقها المسدود، وكانت أوراق الضغط العربية قد وصلت إلى منسوب يجعل المفاوضات غير متكافئة بكل معنى الكلمة، بسبب سوء الأوضاع العسكرية والاقتصادية، وبداية انحسار حقبة الحرب الباردة بعد أن دخلت إلى مرحلة الوفاق، وكانت العلاقات العربية فى حالة من الضعف والتفكك، وكانت الأوضاع الداخلية فى مصر على وشك انفجار اجتماعى بعد أن عبر عن نفسه فى أحداث ١٩/١٨ يناير (كانون ثانى) من نفس العام.

☐ كانت إسرائيل قد دخلت إلى حالة من التململ، فقد استوعب السياسيون والعسكريون درس رغبة العالم فى الحل السياسى لأزمة الشرق الأوسط، وأصبح من الواضح نهاية دور إسرائيل فى الحرب الباردة، وعرفوا أنه لم يعد هناك المزيد من فرص زيادة الدور الإقليمى والدولى بواسطة العمليات الحربية، وأنهم قد وصلوا إلى نهاية انفرادهم ببناء الدولة، وأنه قد حان الوقت أمام المثقفين والقوى الشعبية للمساهمة فى

صياغة الدولة التى لم تكن قد تحددت بنيتها بعد.

☐ جاءت الزيارة كمثير ودعم عربى لكل الاعتبارات الداخلية الإسرائيلية والإقليمية والدولية، وكانت الآثار أشبه بالزلزال وكانت الرسالة واضحة وتلغرافية: إن اكبر بلد عربى، وصاحب أكبر حصة فى الصراع قد نبذ اللجوء إلى الحرب نهائياً ويريد السلام. وكلنا يذكر مظاهر الفرحة العارمة الغير مصدقة التى ظهرت ملامحها على وجوه الإسرائيليين، المسئولون منهم والمواطنون العاديون.

☐ وهكذا انكسرت عقلية الحصار الإسرائيلية طويلة الأمد، وانكسر معها هاجس أن حدود إسرائيل هى حدود الخطر، وأحاط الشك بثقافة قومية الجماعة، وبدأت التباينات الجماعية والفردية التى كانت قد استبعدت طبقاً لمقتضيات الأمن فى الظهور.

وقام المئات من ضباط جيش الدفاع الإسرائيلى بينهم عدة جنرالات؛ بتوقيع بيان رفعوه إلى رئيس الحكومة فى سنة ٧٨ يطالبونه باتخاذ الإجراءات اللازمة تجاه السلام (تكرر نفس الفعل بعد ذلك من حوالى ١٥٠٠ ضابط فى يوم ١٩ يناير (كانون ثانى) سنة ٩٨ مع نتياهو وقدمت له المذكرة فى أمريكا قبل مقابلته كلينتون).

☐ إن العودة إلى تاريخ ولادة حركات السلام، وتصاعد التعبير الثقافى والسياسى العربى والسفاردى، ووضوح التباينات السياسية بشكل عام، يكشف أنها تدور حول تاريخ المبادرة.

☐☐☐

الفصل الرابع
غزو لبنان ومجازر صبرا وشاتيلا

أذكر أنه خلال غزو إسرائيل للبنان فى ٦ يونيو (حزيران) سنة ٨٢، حاولت الأحزاب المصرية «المعارضة» أن تقوم بالاحتجاج على غزو لبنان، بتدبير مسيرة تبدأ من الجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة فى أوائل شهر يوليو (تموز)، وكان عدد من تم حشدهم يربو على ثلاثة آلاف متظاهر، ولم تتمكن المسيرة من التحرك أمتاراً قليلة خارج المسجد، بسبب عنف الأمن وتحذيراته، وحدث اتفاق مع قيادات الأحزاب على أن يركب المتظاهرون أتوبيسات تتوجه إلى قصر عابدين لإظهار احتجاجهم هناك!، لكن الأتوبيسات ذهب كل منها إلى اتجاه مختلف، وهكذا تفرقت المظاهرة. وهكذا كشفت الواقعة عن البؤس والمراوغة فى الحياة السياسية المصرية.

□ فى نفس فترة الغزو والتى امتدت حتى نهاية شهر سبتمبر (ايلول) دعت حركة «السلام الآن» إلى مسيرة احتجاج على الغزو فى تل أبيب، وسار فيها ما بين ٣٠٠ إلى ٣٥٠ ألف متظاهر. ثم حدثت مسيرة مشابهة عند اكتشاف مجازر صبرا وشاتيلا.

□ سافر العديد من الصحفيين الإسرائيليين وأنصار السلام إلى بيروت خلال الغزو، وأعلنوا إداناتهم له، أذكر منهم: الصحفى امنيون كابيلوك ويورى افنيرى، وكنت قد سافرت إلى بيروت ضمن وفد مصرى، وبقيت حتى بعد اكتشاف المجازر، وقابلت فى مخيم صابرا فجر يوم اكتشاف المجزرة ١٧ سبتمبر (ايلول) المعلق العسكرى الإسرائيلى زئيف شيف، وهو أول من أعلن عنها لوسائل الإعلام.(١٨)

□ امتنع أيامها العديد من الضباط والجنود فى جيش الدفاع الإسرائيلى عن تنفيذ الأوامر، وفى مؤتمر صحفى أعلن كولونيل من جيش الدفاع: «إنه لايشرفه عضوية

هذا الجيش» ووصف الحرب بأنها حرب قذرة.

□ وخلال شهر فبراير (شباط) سنة ٨٣ سقط أول ضحايا أنصار السلام بقنابل حركة كاخ العنصرية، أثناء مسيرة احتجاج أمام مكتب رئيس الوزراء، والضحية هو إميل جرانز فيج، إنه أحد الرموز التى ترسم طريق السلام.

□ وتوالت عمليات الضغط، لمايمكن أن نسميه القوة الأخلاقية السياسية التى نتج عنها لجنة تحقيق قضائية أدين أمامها اريبل شارون وزير الدفاع، وجنرال روفائيل ايتان رئيس الأركان فى سنة ٨٣ عن مسئوليتهم فى جرائم صبرا وشاتيلا وغزو لبنان، وشملت الإدانة الأدبية رئيس الوزراء مناحيم بيجين، بل الحكومة كلها أيضا، وكان ذلك بالتأكيد من بين الأسباب التى أدت إلى استقالة حكومة بيجين فى نفس السنة.

□ومن الناحية العسكرية والسياسية تعتبر عملية «سلامة الجليل» ناجحة، من حيث تحقيق النتائج، حيث أخرجت الورقة الفلسطينية من بين أوراق التفاوض السورية، وفى نفس الوقت أبعدت منظمة التحرير عن الخطوط الساخنة، بدرجة جعلت بريجنيسكى مستشار الأمن القومى الأمريكى يقول: «وداعاً منظمة التحرير».

لكنها القوة الأخلاقية السياسية الوليدة التى جعلت كل ذلك يساوى هزيمة.

□□□

الفصل الخامس
الانتفاضة الفلسطينية

لاشك أن الانتفاضة الفلسطينية هى أحد أهم الوقائع التى كشفت عن أساليب كفاحيه شعبية و غير إرهابيه ، و فى وقت كانت فيه منظمة التحرير على شفا حافةالنسيان.

وكان مردودها على الساحة الإسرائيلية الداخلية، والساحة العالمية نقطة فارقة فى القضية الفلسطينية، وتشبه نوعاً ما حالة حركة مقاومة السود فى جنوب افريقيا، فى وقت كانت الأطر السياسية والعسكرية المناضلة ضد سياسة الفصل العنصرى «الابارتهايد» مضعضعة، وقاربت على الاختفاء، وعلى رأسها حزب المؤتمر الوطنى الذى كانت معظم قياداته فى السجون.

لقد أسقطت الانتفاضة الفلسطينية فكرة أن الأردن هو فلسطين، وهى من بعض أفكار اليمين العنصرى فى إسرائيل، وعلى رأسه مجرم الحرب ارييل شارون.

كما أكدت الانتفاضة على وجود المواطنة الفلسطينية وأبرزتها لدى الشعب الإسرائيلى، ولدى الفئات السياسية التى لاذت بالخداع فى إسرائيل، طوال فترة الصراع السابقة، وأسقطت أكذوبة ماكس نورداو الصهيونية «وطن بلاشعب لشعب بلا وطن».

☐ لقد أصيب المواطن الإسرائيلى بالصدمة، وهو يرى جنود جيش الدفاع يواجهون «أطفال الحجارة» بالرصاص، وهو الذى تربى على مقولات مثل «طهارة السلاح» و«الحروب الدفاعية المشروعة»

☐ ولايمكن للمرء إذا تمتع بقدر من الشرف أن ينسى المحامية «ليا تسيميل» التى كانت صوتاً شجاعاً وشريفاً بجوار المتهمين الفلسطينيين فى أحداث الانتفاضة، حتى

سميت محامية الانتفاضة ولا زوجها البروفيسور بارشيفسكى مؤسس مركز المعلومات البديلة فى القدس، وأحد المناضلين من أجل العدالة والسلام.

حقاً إن تلك السلسلة من الشرفاء، والذين سبقتهم من قبل المحامية «فاليسا لانجير» التى وصل بها الأمر إلى تبنى شاب فلسطينى، حتى يفلت من المحاكمة العسكرية، ويتم تقديمه إلى محاكمة مدنية، وقد تأثر المخرج السينمائى اليونانى كوستا جافراس بتلك الواقعة، حتى أنه أبدع فيلم «حنا. ك» تأثرا بها. ولهؤلاء وغيرهم كثير من المواقف ليس هنا مجال سرده، ولكن القوة الرمزية لأناس كهؤلاء هى بالتأكيد سطور حقيقية فى صحائف السلام.

ويمكن رصد آثار الانتفاضة واضحة على الأدب العبرى، وربما كان أوضحها كتاب «ريح أصفر»، وهو مجموعة تقارير ومقالات أدبية عن الانتفاضة[١٩]، ورواية «ابتسامة الجدى» للروائي الإسرائيلى الشهير ديفيد جروسمان، والرواية الأخيرة له يعالج فيها العديد من مظاهر الأدب الشعبى الفلسطينى.

لقد كشفت الانتفاضة الفلسطينية عن قدرات للشعب الفلسطينى لم يكن من الممكن معرفتها، لولا الانتفاضة ومن بينها القدرة على تكوين هياكل شعبية بديلة للتعليم والطب والتمويل فى سرية ،وخلق كوادر ميدانية.

ليس معنى ذلك أن الانتفاضة لم يكن لها وجوه سلبية، فقد حدثت بعض أعمال العنف والتصفيات على نطاق واسع كان دافعها طائفى وعشائرى وثأرى، والتبست بمظهر العمل ضد العملاء، وكاد ذلك أن يهزمها من الداخل وكان من بعض أسبابه تدخل المنظمات الفلسطينية من الخارج كمحاولة لإثبات الوجود، وفى بعض الاحيان لصالح حكومات عربية، وهى آفات فلسطينية مزمنة، غير أن معالجة تلك المظاهر تبعدنا عن هدف الدراسة.

إن أحد أهم أسباب وجود منظمة التحرير على الأراضى الفلسطينية الآن قادمة، من تونس!، يعود إلى الانتفاضة الفلسطينية، التى نبهت جميع الأطراف إلى أن قضية الشرق الأوسط ليست مجرد قضية صراع أنظمة استبدادية مع إسرائيل، بهدف تبرير استمرارها فى الحكم، وإنما هى قضية شعب وقع عليه ظلم تاريخى غير مبرر.

□□□

الفصل السادس
عمليات حماس والجهاد

بالرغم من توفر المبرر الوطنى العادل أمام تنظيم حماس والجهاد إلا أن ذلك لم يمنعهما من الاشتراك مع باقى فصائل الإسلام السياسى المتطرف، فى عدم التمييز بين الخصوم، وفى الأداء السياسى السيىء فى التقدير والتوقيت، وفى نوع ضحاياه، وليس ذلك بغريب لأنهما يشاركان كل الجماعات المتطرفة فى أسس الدوافع السياسية، وهى التعصب وضيق الأفق، وصناعة مزيج زائف ومضلل من المطلق مع اليومى، ومن المجرد مع التفصيلى.

☐ فى ٢٤ يوليو (تموز) وفى ٢١ أغسطس (آب) سنة ٩٥ حدثت عمليتان انتحاريتان فى أتوبيسين فى تل أبيب والقدس. وفى ٢٥ فبراير (شباط) سنة ٩٦ حدثت عمليتان انتحاريتان فى تل أبيب، وفى ٤ مارس (آذار) سنة ٩٦ انفجار انتحارى آخر فى تل أبيب، وكان الضحايا فى كل تلك الحوادث من المدنيين والأطفال والنساء والسياح والعرب، وبالتأكيد كان من بينهم من هم من أنصارالحق الفلسطينى.[٢٠]

☐ فى ٤ نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٩٥ قام شاب يهودى من طلبة جامعة بار إيلان الدينية هو ايجال عامير باغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين، أثناء احتفال إقامته حركة السلام فى ميدان بتل أبيب، ومن المرجح أن الشاب عضو فى تنظيم «ايال» المتطرف.

☐ كان لكل تلك العمليات عدة نتائج صبت فى مجرى واحد، فالفعل الإرهابى الأخير أزال رابين من الساحة السياسية الإسرائيلية، وهو قيادة سياسية وعسكرية لها ثقلها المعنوى فى التاريخ الإسرائيلى، ومن الصعب على شخصية إسرائيلية أخرى فى تلك الساحة السياسية أن تقصيه، أو تنتصر عليه فى معركة انتخابية، وبذلك تعبد نصف الطريق أمام الفاشية الصهيونية التى يمثلها نتنياهو.

وكانت للمجموعة الأولى من عمليات حماس والجهاد نتائج أخرى عبدت النصف الثانى من الطريق، وهو وضع الأمن كأولوية قبل السلام بالنسبة إلى الكتلة المتحركة الحاسمة من الأصوات الانتخابية الإسرائيلية. والتى رجحت كفة اليمين فى المعركة الانتخابية فى مايو (ايار) سنة ٩٦، ولا يمكن لنظرة تتمتع ببعض الموضوعية أن تساوى بين من وقع اتفاقيات أوسلو ووضع السلام كأولوية أولى، وبين من عطل اتفاقيات أوسلو ووضع الأمن، كأولوية أولى.

□ وإذا كان عشرة من الشباب الفلسطينى قد دخلوا إلى الجنة كمايزعم مشايخهم، فإنه فى كل مرة كان الشعب الفلسطينى فى غزة والضفة يدخل إلى جهنم أرضية، أقل ما فيها الجوع والمزيد من الإذلال.

□ يمكن القول إن تاثير عمليات حماس والجهاد على المجتمع الإسرائيلى يشبه إلى حد كبير تأثير جوش امونيم واليمين المتطرف الإسرائيلى العنصرى على المجتمعات العربية، وهذا وجه شبه آخر.

□ يتيح لنا ذلك درساً آخر وهو أن التطرف أعمى لايميز، وبالتالى فهو موجه إلى كل الأطراف؛ فباروخ جولد شتاين، وفريد مان، وموشيه ليفنجر، وايجال عامير، وتنظيمات مثل: «هزيت هوعيون» (كاخ سابقاً) و«ايال» تجمعهم نفس الذهنية مع أحمد الدقامسة وحماس، وجماعات الإرهاب الإسلامى السياسى فى مصر والجزائر والسودان، ومع عصابات أفغانستان ، إنه مشترك قد يثير الدهشة، ولكنه منطقى، وكأنه إعادة إنتاج دائمة ودائبة للحرب إلى الأبد، أو حب الكراهية.

□ وعلينا أن نستوعب مغزى مساعدة إسرائيل لتنظيم حماس عند ولادتها، كى تصبح بديلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال فترة الانتفاضة، إنها طبعة إسرائيلية من دولة العلم والإيمان المصرية.

□□□

هوامش الباب الثالث

١ - السفرديم هو الاسم العبرى ليهود الأندلس بعد أن نكل الفرنج بهم وطردوهم من الأندلس إلى شمال افريقيا وإلى شرق المتوسط.

٢ - بوعز عفرون (مصدر سابق).

٣ - روحى ياسين الخالدى. الحياة اللندنية من ٩٧/٩/٢. وثيقة تنشر للمرة الأولى.

٤ - د. رشاد الشامى. مقدمة الترجمة العربية لرواية فكتوريا تأليف: سامى ميخائيل. ترجمة: سمير نقاش. الدار العربية للنشر. القاهرة. ١٩٩٥.

٥ - عند إجراء مقارنة بين قوانين ولوائح السجون الصادرة قبل سنة ٥٢ بقوانين ولوائح السجون الصادرة فى سنة ٥٨ يتبين بما لايتطرق إليه الشك أحد أسس عصر القهر الذى تأسست عليه جمهورية يوليو العسكرية.

٦ - شحاتة هارون. «يهودى فى القاهرة». بدون ناشر. القاهرة.

٧ - حوار شخصى مع د. عباس شبلاق وهو باحث فلسطينى حاصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد فى موضوع يهودالعراق.

٨ - د. رشاد الشامى (مصدر سابق).

٩ - موشيه شاريت (مصدر سابق).

١٠ - ويلبر كوين ليفلاند. «حبال من رمال - فشل أمريكا فى الشرق الأوسط». ترجمة: على حداد. داو المروج. بيروت.

١١ - موشيه شاريت (مصدر سابق).

١٢ - التعبير للدكتور جورج طرابيشى.

١٣ - ستيفن جرين. «الانحياز - العلاقات السرية بين أمريكا وإسرائيل». ترجمة: د. سهيل زكار. دار حسان. دمشق.

١٤ - (المصدر السابق).

١٥ - ويلبر كوين ليفلاند (مصدر سابق).

١٦ - موشيه شاريت (مصدر سابق) ص ٣٠٩.

١٧ - (المصدر السابق) ص ٣٢٨.

١٨ - كان زئيف شيف هو المراسل العسكرى لراديو جيش الدفاع الإسرائيلى وكان يتحدث على الهواء من داخل مخيمى صبرا وشاتيلا.

١٩ - نشرها الشاعر الفلسطينى محمود درويش مترجمة فى مجلة الكرمل.

٢٠ - كانت شقيقة د. يوسى امتياى من بين ضحايا الأتوبيس الذى انفجر فى رامات جان، وهو من المناصرين للحق الفلسطينى ومن أنصار السلام، وقال فى ندوة فى مركز ابن خلدون فى القاهرة فى ٩٧/١/٢٦ قام المؤلف بإدارتها إن من أول برقيات العزاء التى وصلته كانت من محمد سيد أحمد ود. رفعت السعيد وإنه فى ذلك اليوم وبالرغم من فداحة الخسارة وعمق ألمه أدرك أهمية الإيمان بالسلام.

■■■

الباب الرابع

جذور الصراع وحتمية الهزيمة

الفصل الأول
أزمة العقل العربى

«ماذا يقدر القش أن يقدم لحقول المستقبل؟»
أدونيس[١]

العرب .. كيان مناوئ للحداثة:

منذ القرن الرابع الميلادى وحتى مشارف القرن العشرين (باستثناء مصر التى تخلصت من الحكم العثمانى الفعلى فى مشارف القرن التاسع عشر) حكمت العالم العربى، وبصفة متصلة، ثلاث امبراطوريات عسكرية/ دينية، هى البيزنطية والعربية والعثمانية؛ وقد تأسست جميعها على التجارة، وشرعية السيف والنص المقدس كحقيقة، سياسية، كما تشابهت فى أن مؤسيسها قبائل، وفى نفس الوقت تشابهت فى أنها نوع من العسكرية البرية مالت دائماً إلى الداخل، بعيداً عن السواحل والموانىء، وربما يجيب ذلك على أسئلة حول مسألة الداخل والساحل فى حوض المتوسط.

وقد بدأت تلك الحقب بإعلان المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية الرومانية، والقضاء على مدرسة الإسكندرية للفلسفة الهلينية، بل إحراق معهد الإسكندرية ومكتبته[٢] والقتل البشع للعالمة الرياضية الفيلسوفة هيباتيا[٣]، وهكذا بدأ استعمال الدين كحقيقة سياسية.

وكانت أدوات الإدارة والسيطرة لتلك الامبراطوريات الشرقية هى سلسلة حاكمة أساسها الحصن/ الكنيسة فى الامبراطورية البيزنطية، مثل حصن بابليون فى مصر، وفى ظل الامبراطورية العربية كانت القلعة/ المسجد مثل الفسطاط والقطائع فى مصر، ومثل القصبة (الكاسبا) والقلاع المنتشرة فى المدن العربية فى ظل الامبراطورية العثمانية، وفى القلب منها مسجد القصبة.

وإذا أخذنا مصر كمثال يتبين لنا أن الامبراطوريات الثلاث تحولت فى مصر إلى

استيطان عقائدى مسلح، سرعان ما تحول إلى إقطاع عسكرى متشابه تماماً فى الأساليب والأهداف خلال الحقب الثلاث.

وتشترك الامبراطورية العربية والعثمانية فى أنهما كانتا مسلمتين على المذهب السنى، كما كانت السلطة الزمنية والدينية فى كلتيهما مدمجة فى شخص واحد طبقاً لنظام الخلافة الإسلامية، وهكذا لم يكن ثمة حدود تفصل الدولة عن العقيدة، أو حكم عالم الأجساد عن حكم عالم القلوب(٤).

وإذا سلمنا أن العقل البشرى قد مر بعدة أطوار حتى وصل إلى ماهو عليه الآن وهى كالآتى:

الأسطورة ←—— الدين ←—— الفلسفة ←—— العلم ←—— ؟

مع ملاحظة التداخل النسبى بين تلك الأطوار، والنكوص الذى يطرأ أحياناً تحت ظروف معينة، وذلك يعنى أن العقل العربى ظل رهين الطور الدينى، أى رهين حالة معرفية بدائية، مع النكوص أحياناً إلى الطور الأسطورى، ومع التماسّ أحياناً مع الطور الفلسفى، منتجاً تجارب فلسفية دون أن تكتمل وتصبح مدارس فلسفية. ودون أن يتكون عقلاً فلسفياً. ويعنى ذلك الانحصار فى منطقة المطلق والمجرد والغريزى. الأقرب إلى الثبات الجدارى منه إلى الحركة. ويدور الفكر بمقتضى ذلك فى حدود الإيمان والحلال والحرام، والأبيض والأسود، والرؤى والهواجس، والتمنيات، ويصبح العقل بمقتضى ذلك أيضاً عاجزاً عن التفكير بالنسبى والتفصيلى والتحليلى والتركيبى والنقدى، ولايمنع ذلك – بل يشجع– على البلاغة والشعر، وقد ترك ذلك بصماته على الشريعة والتاريخ الذى أصبح انتقائيا، محوره سيرة البطل الدينى المقاتل، وعلى الاجتماع الذى أصبح أساسه الأنساب التى لاتخلو من تصنيف عنصرى وتراتبى، وليست تسميات الأشراف والنسب إلى البيت العلوى والهاشمى والمذاهب والمدارس الشرعية والطرق الصوفية، سوى قبلية جديدة، لاتعبأ بالسوق والدولة، ونظم وتقدم المجتمع.

وإذا أخذنا مصر مرة ثانية كمثال سنكتشف أنه لم يوجد فى مصر طوال خمسة عشر قرنا من الزمان (وباستثناء الدولة الحديثة الأولى فى عصر محمد على حتى إسماعيل، ثم الدولة الحديثة الثانية من سنة ١٩١٩ حتى ١٩٥٢) سوى فكر لاهوتى مثل: «أثناسيوس» و «انطونيوس» و «باخوميوس» ، وفقه إسلامى مثل: «الليث بن سعد»

وفكر توراتى: مثل «اسعاديا الفيومى» الذى ترجم التوراة إلى العربية.

ولم يكن إحراق التوحيدى لكتبه، ومقتل العديد من المفكرين والحكماء، مثل: شهاب السهروردى، والحلاج، وابن الراوندى، وغيلان الدمشقى، وتكفير ابن رشد وإحراق كتبه، ومصير المعتزلة واخوان الصفاء بالإضافة إلى ماحدث فى العصر الحديث لطه حسين، وعلى عبد الرازق، وابكار السقاف* وفرج فودة، وسعيد العشماوى، وخليل عبد الكريم، ونصر حامد أبوزيد، وسيد القمنى، وحسين مروة، وليلى العثمان فى الكويت؛ لم يكن كل ذلك سوى شاهد على أن العقل العربى لم يلجأ إلى طور الفلسفة، ولم يعترف بها أبداً، ونفس الشيء ينطبق على الفكر الصوفى كنسق معرفى ناقص، حيث كان محاولة للتململ تحت وطأة الفكر الدينى البدوى الصارم، وحيث تم تكفيره فى هذا السياق، ولم تكن علوم الكلام ومحاولات الحكماء سوى دفاع عن الشريعة، وعن الدين، ووضع العلم فى خدمة ذلك، ومحاولة مستحيلة لإخضاع المعرفة للإيمان. ولم ينتج عن كل ذلك سوى محو حرية الفرد لحساب الجماعة الإيمانية، وهذه بدورها هى جماعة الطاعة السياسية للسلطة الشرقية التى مثلت السلطة الزمنية والروحية فى آن واحد.

وهكذا دار الفقه الدينى فى ظل السلطة (ولي الأمر) على الدوام. ولم يكن الجهاد ضد الغازى الخارجى، أو الأقوام التى يراد غزوها، ولم يكن التكفير سوى أداة سياسية باستمرار. وربما لهذا السبب كان لكل طاغية شرقى جماعة وظيفية دينية خاصة به، ولهذا السبب أيضاً كان فى الامبراطورية العربية عدة خلافات عشائرية إسلامية فى وقت واحد، وهى العباسية فى بغداد والأموية فى الأندلس والفاطمية فى مصر. ولقد تصرف طغاة الشرق وكأن الله هو ظل المستبد فى السماء، فى حين توقف طغاة أوروبا فى عصور الظلام عند حدود كونهم ظل الله فى الأرض، وذلك يضيف تفسيرا إضافياً لعلاقة النظم العسكرية فى الشرق الأوسط بالجماعة الوظيفية الدينية فى العصر الحاضر.

ومما يسترعى النظر أن محاولات الولوج إلى الطور الفلسفى أو حتى العلمى تمت

---

* تم حظر كتبها فى الستينيات فى مصر بقرار جمهورى، وهى كاتبة ومفكرة من أصل يمنى، وعاشت فى مصر، ولها مايزيد عن ١٠ كتب فى نقد التاريخ والعقل الدينى الإسلامى.

فى قوميات الأطراف الغير عربية فابن خلدون بربرى، وسيبويه، والفارابى وابن سينا من الفرس، وابن رشد، وابن حزم من الأندلس (حيث كانت اللغة الغالبة هى العبرية)، ونفس الشيء يصدق على فلاسفة الصوفية مثل: جلال الدين الرومى الفارسى ومحي الدين ابن عربى المغربى، كما أن ذلك كان يتم فى عصور الازدهار، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القومية الأساسية فى كل من الامبراطوريات الثلاث لم يمنعها قوامها الفكرى من أن تنقل ثقافات الأطراف والتخوم بين بعضها البعض، بما يشبه كائنات الطبيعة من طيور وكائنات أخرى فى نقل حبوب اللقاح من شجرة إلى شجرة، دون أن تفطن لذلك، ودون أن يكون ذلك له علاقة بأطوارها الحيوية، وبمعنى آخر بينما كان العرب يساهمون فى نقل الفلسفة اليونانية إلى أوروبا، وكان العثمانيون ينقلون ثقافات وسط آسيا إلى أوروبا؛ كان ذلك الدور لا يتناقض مع شدة وطأة تكريس الجماعة الإيمانية أو جماعة الطاعة السياسية، فى مدن وقوميات المركز.

أوروبا وولادة الحداثة:

قبل انتشار المسيحية فى أوربا كانت الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى قدعرفتا وعنهما ورثت فكرة الدولة الجمهورية والمواطنة والديموقراطية، وكانت الدولة قد ظهرت كاحتياج اقتصادى واجتماعى، ومن ثم ولد السياسى، وعندما انتشرت المسيحية على هيئة المذهب الكاثوليكى قامت بذلك مؤسسة مركزية هى كنيسة روما (وهو ماسمح بالتجديد والتمرد الكالفينى واللوثرى فى التخوم)، وشكل ذلك ثالوث الكنيسة –الملك أو الأمير الإقطاعى – فئة النبلاء؛ وكان الصراع بين أطراف الثالوث هو ماكفل الحماية النسبية لحرية الفن والفكر والاكتشافات والهجرة، حيث كان الصراع شبه متكافئ فى أغلب الأحوال. بعد صراع دامٍ من الحروب الدينية، وجمود اللاهوت، وبشاعات محاكم التفتيش، وحيث إن الجماعات الإيمانية لم تكن بالضرورة هى جماعة الطاعة السياسية، بل إنها تناقضت أحياناً.

وهكذا تسبب ذلك فى إعادة وصل ما انقطع من نشاط فلسفى، وأعاد إلى أوروبا منجزات هذا النشاط: وتراث القانون، والمواطنة، والديموقراطية، ومن ثم الدخول فيما

بعد إلى طور العلم، وكانت لذلك ملامح أساسية هى التحول الذى طرأ على معاهد اللاهوت، إذ تحولت إلى جامعات أوروبا الكبرى التى تؤسس لسيادة العقل على سواه مثل السوربون والهارفارد وغيرهما. وفى إنجلترا تم إعلان المجناكارتا فى ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٢١٥ وقانون الحفاظ على الحرية الفردية فى ١٦٧٩، ثم أصدر البرلمان الإنجليزى لائحة الحقوق فى سنة ١٦٨٩، وتم فصل المعرفة عن الإيمان فى المحاورات بين الدومينكان والفرنسيسكان، عبر الاعتراف أن الفرد وحده هو الذى يمكنه الوصول إلى الحقيقة، (وكان ذلك إعلان دانس سكوت وغليوم دوكان)، ويمكنه أن يؤسس نظاماً اجتماعياً شرعياً، وهكذا تم الفصل بين إرادة الله وإرادة الإنسان، ثم جاء دور الكوجيتو الديكارتى، ومهد كل ذلك للعقد الاجتماعى، وإعلان الدستور الأمريكى فى سنة ١٧٨٧ ، والدستور الفرنسى فى سنة ١٧٩١.

لقد حاول الأخلاقيون دائماً وضع هدف أخلاقى للفلسفة؛ وبمعنى أدق، وضع هدف أخلاقى فوق الفلسفة، ولكن الفلسفة لم تتخل عن هدفها الأساسى، وهو خدمة الذات بواسطة المعرفة.

وتداخل مع تلك المسيرة التطور العلمى الذى نتج عن روح الاكتشافات وتطور تقنية السفن: مثل: الشراع اللاتينى والعدسات المقربة، والخرائط، والمدافع، والسكان المركب على الدفة، وكانت مدافع لومبارديا، والسفن، هى وسائل إخراج العرب من الأندلس، وكانت المدفعية، والسفن، والسكك الحديدية، وسائل بريطانية أساسية فى القضاء على الامبراطورية العثمانية، وكان أحد أسباب إعلان الحلفاء للحرب على تركيا خلال الحرب الأولى، هو حصول الأخيرة على طرادين من ألمانيا[٥]، وصاحب ذلك إنشاء مدن الموانئ، وساعد كل ذلك على اكتشاف العوالم الجديدة، وتأسيس الشركات الرأسمالية والولوج إلى عصر التطور الرأسمالى، وتوسيع الأسواق، والدخول إلى مرحلة الاستعمار.

الاستبداد هنا والحداثة هناك:

استولى العثمانيون على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وخرج العرب من الأندلس

سنة ١٤٩٢، وكانت عجلة الحداثة تدور حثيثاً فى أوربا آنذاك، ولكن العرب والأتراك كانوا فى واد آخر، بعد أن اكتسب العقل الدينى لهم مدداً جديداً زاد من من أوار التناقض الدينى مع أوروبا، وهكذا اكتسب الاستبداد الشرقى قوة دفع ومتاريس جديدة ضد الحداثة.

وعندما بدا أن أحد آثار الحداثة هى مضاعفة الإنتاج والقوة بكل أشكالها، داخل نفس الزمن، حاولت الدولة العثمانية أن تحتذى طريق أوروبا، مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب، وهكذا بدأت محاولات الإصلاح منذ سليمان القانونى بإخراج القضاء من أيدى رجال الدين ثم إتباع خطوات إدارية جديدة، مثل: الخط الشريف، والديوان الهمايونى؛ غير أن عصا الترهيب الكبرى جاءت فى يد محمد على حين انتصر إبراهيم باشا فى موقعة نصيبين على الأتراك فى ٢٤ يونيون (حزايران) سنة ١٨٣٩م، وكان ذلك هو السبب فى إنشاء «ياش وكالت» وهى بمثابة تقليد مجلس وزراء فى عصر السلطان محمود الثانى. ثم تشكل مجلس «المبعوثان» وهو بمثابة برلمان صورى كان مختل التوازن بين العرب والأتراك فى سنة ١٩٠٨. غير أن كل ذلك لم ينل من جسد الاستبداد الشرقى ولا مجاله الطبيعى وهو العقل الدينى؛ مما جعل كل إجراءات التحديث بمثابة مساحيق رخيصة على وجه عجوز شمطاء.

ولم تحل نهاية القرن التاسع عشر حتى كان ضباط الجيش التركى قد حملوا معهم من ألمانيا بذرة الفكر القومى العسكرى البسماركى، مما بدا معه أن القومية الطورانية هى حل بديل لانهيار الخلافة، ولم تكن القومية هى الحداثة أبداً، ولكنها كانت الأيدلوجية المناسبة لبقاء الدولة العسكرية، وذهاب الخلافة الإسلامية العثمانية. وهكذا ورث العرب المرض فى صورتيه العثمانيتين وهما القومية العسكرية الانقلابية ومرضهم القديم الذى عاد إليهم أى الخلافة الإسلامية، وهكذا تشكلت أيضاً مدرسة الشرق؛ وهنا أيضاً ندرك مغزى تسمية المؤتمرين العرب فى باريس سنة ١٩١٣ لأنفسهم بالعرب العثمانيين، وليس ذلك بتعسف فقد درس أغلب قادة القومية العربية الفكريين والعسكريين فى كليات استنبول[٦]، وخدموا فى الجيش التركى بما فيهم

أعضاء جمعية العهد، والعربية الفتاة، وحزب الاستقلال، وجمعية الاتحاد، والترقى العربية، وأغلب المشاركين فى المؤتمر السورى فى ٧ مارس (اذار) سنة ١٩٢٠ كانوا من العرب، ومعهم من مصر: الفريق عزيز المصرى، والصاغ محمود لبيب، وكان للاثنين أدوار هامة فى تشكيل ذهنية عصبة انقلاب سنة ٥٢ فى مصر.

مستقبل الحداثة فى العالم العربى:

لست أعتقد أننى أغالى إذا اعتبرت أن مستقبل الحداثة فى العالم العربى، هو الذى يقرر نوع الحل الجذرى للصراع العربى الإسرائيلى.

وقد وفرت لدينا المقدمات السابقة ملامح عدة لازمت العقل العربى كشفت، عن نفسها نتيجة لتحديات الصراع العربى الإسرائيلى، ومن الطبيعى أنها لم تخل من معطيات ناتجة عن المقارنة بين الجانبين، وكان من أسبابها سيطرة التهويمات الأسطورية والدينية على العقل العربى التى حصرته داخل تلال القيل والقال التى تخللتها، وطمرتها أتربة الماضى الذى لم يمض بعضه حتى الآن، ودمغته بوعى زائف انتقائى مخاصم للوثيقة وللحوار، يسبح داخل تخلف مجتمعى حاد، يساهم فى صنعه يوميا تراث طويل من الاستبداد الغزائرى الشرقى لطغاة دون الحد الأدنى للقدرة على القيادة، ويمكن التوقف عند بعض تلك الملامح:

أولا: ربما أصبح لدينا تفسير عن سبب عدم تعرف العرب على حرية الفرد كشرط أساسى لمجتمع إنسانى معاصر، وعدم معرفتهم فكرة الدولة كضرورة حضارية، وإجهاضها دائماً بواسطة إجماع إكراهى وتخيلى وانقسامى، من نوع الوحدة العربية، والمشروع الإسلامى والاشتراكية القومية.

ثانيا: عدم خروج العرب من أنماط اقتصادية ما قبل رأسمالية أقرب إلى دولة وكيف أن الديموقراطية، والمؤسسة، والدستور، والبرلمان، والمجتمع المدنى، وحرية المعرفة والسياسة، والتأريخ والحقيقة، والتطور العلمى، ليست بكاملها صناعة عربية قديمة، ولا معاصرة.

ثالثا: دور تلك الذهنية فى تسمية الحضارة العربية دون كل الحضارات الإنسانية

جمعاء بتسمية دينية هى الحضارة الإسلامية، وتخلط عن سوء طوية بين دين الحضارة وما لم يوجد أبداً وهو حضارة الدين.

رابعا: إطلاق اسم ثورة على انقلابات عسكرية فاشية، مثل: انقلاب رشيد عالى الكيلانى وضباط ما أطلق عليه «المربع العسكرى الذهبى» فى العراق سنة ١٩٤١، وانقلاب يوليو (تموز) سنة ١٩٥٢ فى مصر، وسلسلة انقلابات ضباط القوات الخاصة الفرنسية في سوريا(٧) مثل: سامى الحناوى، وحسنى الزعيم، وأديب الشيشكلى، وهى الانقلابات التى أدى نجاحها إلى إقامة نظم حكم عسكرية ريفية وعشائرية، بحسب مكان حدوثها، وهذا ينم عما هو أخطر وهو سهولة إفساد النخبة المثقفة.

خامسا: العنف والاضطهاد ضد الأقليات العرقية والمذهبية والدينية والقومية فى عمليات طرح دائمة ودائبة من قدرات المجتمع، لصالح العقل الدينى، ولحساب ظاهرة الاستبداد الشرقى القديم / الجديد.

سادسا: شيوع الرفضية(٨) السيكوباتية فى مجال السياسة والفكر السياسى؛ فالعرب يقبلون اليوم مارفضوه بالأمس، وبعد أن تغير الواقع، ويدفعون غداً ثمناً فادحاً لما كان يمكن الحصول عليه بالأمس مجاناً، على منوال الرحلة العبثية بين لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث الشهيرة، وبين السلام كخيار استراتيجى، مما يجرد الموقفين من المصداقية، وقد سبق أن بينا فى فصل «المؤثرات العربية على إسرائيل» سلوك النظام المصرى الناصرى فى رفض الحل السياسى، وبينا أسبابه.

سابعا: التصرف ليس فقط وكان البلاغة الفظية تصلح أخطاء الفكر بل كأنها تحل محل الفعل نفسه، فيتم الركون إلى نحت عبارات رنانة بدون مضمون حقيقى، رداً على تحديات حقيقية، مثل: «عام الحسم»، «مرحلة الردع»، «دول الصمود والتصدى».

وأخيراً يجدل كل ذلك ما يشبه الحقيقة المستقرة عن حتمية الهزيمة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً مالم يحدث تغيير جذرى فى العقل العربى أولاً، ثم فى الواقع العربى ثانيا، تغيير يجعل العالم العربى تربة صالحة لاستقبال الحداثة بكل ثمارها وكل

ضرائبها، بادئين من حقيقة ثابتة أخرى، وهى أن فارق منسوب الحداثة بين العرب وإسرائيل هو اللب الحقيقى لهذا الصراع، والمنطقة الأصلية لحساب لايخل من الانتصارات والهزائم وأهم منها الغايات الإنسانية للمجتمعات، ومن ثم مضمون وقيمة السلام الحقيقى. وأهم مكونات فارق المنسوب الحداثى - فى اعتقادى- الفارق الديموقراطى الخطير، الذى أصبح ينال من وجود المجتمعات العربية، ويخربها داخلياً، ويسىء إليها وإلى مصالحها وحقوقها، فى عالم لم يعد يفهم أو يقبل بشروط من أى نوع على الحريات، ويشيح بوجهه عن الطغاة احتقاراً يوماً بعد يوم، إن أول وأفدح الهزائم العربية هى: العقل الدينى. والطغيان السياسى.

□□□

الفصل الثاني
الصهيونية فى بلاد العرب

بدأ ذلك التحدى منذ اللحظة التى تحولت فيها الأيدلوجية الصهيونية إلى عنصر تجميع لشعوب يهودية مختلفة الثقافات، ومن أصقاع متعددة، وترجمت ذلك إلى «مشروع» له برنامج عمل وفلسفات متعددة، كانت بدايتها العملية فى كتاب من وضع د. ليون بنسكر بعنوان «التحرر الذاتىAuto Emancipation» فى سنة ١٨٨٢ ، ثم كتاب من وضع ماكس نورادو «الأمة اليهودية»، ولكن البرنامج الأكثر دقة وفاعلية واستفادة من الظروف الموضوعية واعتماد على فكر واضح، كان من وضع تيودور جاكوب هرتزل المولود فى ٢ مايو (آيار) سنة ١٨٦٠ والمتوفى فى ٣ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٤ ، وكتبه باللغة الألمانية فى سنة ١٨٩٦ ويحتوى على ٢٣ ألف كلمة، تحت عنوان «الدولة اليهودية Der Judenstaat».

☐ وبمرور الوقت أصبح للمشروع مؤسسات دولة حديثة على النمط الغربى، بدأت بشبه برلمان نيابى دورى الانعقاد سنوياً وهو المؤتمر الصهيونى، وكانت أول جلسة له من ٢٩ أغسطس (آب) سنة ١٨٩٧ حتى ٣١ من نفس الشهر، فى كازينو فى مدينة بازل السويسرية، واعتمد على العديد من الأحزاب والروابط السياسية والنقابات اليهودية والعالمية، والعديد من الجمعيات الشعبية مثل «المكابيين» فى بريطانيا ومصر و «شوفيفى زيون» و «شبيبة الوطن» فى بولندا وجمعية «سنترال» فى رومانيا وعزرا (المعونة) فى برلين و «لياشوب ارتز إسرائيل» (العودة إلى أرض اسرائيل) فى باريس.

☐ وأصبحت لها بعد ذلك مؤسسات تنفيذية مثل المنظمة الصهيونية، ثم الوكالة اليهودية Jewish Agency التى تأسست سنة ٢٢ واعترفت بها بريطانيا سنة ١٩٢٧ ،

ثم «الهستدروت» (الاتحاد العام للعمال اليهود) وتأسس في سنة ١٩٢٠. كما أقيمت مؤسسات اجتماعية وثقافية (الجوينت) ومؤسسات تعليمية مثل «الاتحاد الاسرائيلى العمومى - الاليانس Alliance israelite universelle» والتى وصلت مدارسها فى سنة ١٩٠٨ إلى ١٤٢ مدرسة فيها ٤١ ألف طالب وطالبة(٩). كما تم إنشاء التحنيون (معهد التكنولوجيا) فى سنة ١٩٢٤، والجامعة العبرية فى سنة ١٩٢٥، ومعهد وايزمان سنة ١٩٤٦.* وكان للنشاط المالى والاقتصادى بنوك مثل: البنك اليهودى الاستعمارى (انكلو بالسنتن) والبنك اليهودى المللى، وشركات مثل: شركة الاستعمار اليهودية Jewish colonization Association وسميت اختصاراً بجمعية الايكا.J. C. A.، كما قامت المنظمة الصهيونية بجمع تبرعات من كل يهود العالم، وأرسلتها إلى فلسطين. وعلى سبيل المثال بلغت تبرعات يهود أمريكا من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٤٨ مبلغ ٣٩٦ مليون دولار وهو مبلغ ضخم جداً بقيمة تلك الفترة.

☐ واعتمدت التنمية الاقتصادية على سياسة الإقراض والعمل التعاونى والجماعى، وتم ذلك فى صورة مستعمرات ومزارع جماعية، منها الزراعى الصرف مثل الكولخوزات، والزراعى/ الصناعى مثل الكيبوتزات، ومستعمرات صناعية مثل الموشاف.

*وحتى سنه ١٩١١ كان لهم ٢٠ مستعمرة زراعية مساحتها ٢٣٥و ٤٩١ دونم يضاف إليها ٨ مستعمرات صناعية مساحتها ٤٤,٠٠٠ دونم فتصبح المساحة الكلية فى هذه السنة ٤٩٠،٢٧٩ دونم(١١)، ولكن فى نهاية ١٩٣٣ ارتفعت مساحة الأراضى إلى ١,١١٠,٠٠٠ مليون دونم ووصل عدد المستعمرات الزراعية إلى ٨٣ مستعمرة(١٢).

☐ ومنذ وقت مبكر تدعمت الطبقة الوسطى والمدينة، وأدركوا أهمية الأنشطة التجارية والمؤسساتية. وفى سنة ١٩٣٣ كان عدد سكان المدن اليهود ١٧٥,٠٠٠ نسمة وكان عدد سكان الريف ٦٥,٠٠٠ نسمة، والنسبة بين الريف والمدينة تقترب من الثلث فى حين كانت نسبة السكان العرب بين الريف والمدنية تصل إلى ٩:١(١٣).

☐ تأسست نواة جيش الدفاع فى ٢١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٧، حيث تشكلت

قوات الدفاع الذاتى عن المستوطنات باسم «قوات بارغيورا» تحت قيادة إسرائيل شوشات وديفيد جرين (بن جوريون). وفى سنة ٤٨ كان هذا الجيش يقارب ١٠٠ ألف جندى بين العمليات والاحتياطى[١٤]، وكان منظماً داخل تشكيل هرمى، واحتوى على خبرات عسكرية من كل المدارس العسكرية العالمية؛ فكان إسحاق ساده رئيس أركان الهاجاناة من الجيش القيصرى الروسى، ومستشار بن جوريون للشئون العسكرية الكولونيل ميكى من الجيش الأمريكى، وايجال يادين مدير العمليات فى الهاجاناه (المنظمة العسكرية الصهيونية) (وتأسست فى سنة ١٩٢٠) ثم فى الجيش الإسرائيلى ومعه ايجال الون قائد القوات الضاربة (البالماخ) فى الهاجاناه، وكان الاثنان قد خدما فى القوات البريطانية.

□ وكان لهم طوابع بريد صهيونية ومحاكم فى المستعمرات، وكان ذلك يشكل أحد منابع التمويل سواء من قيمة الطوابع أو غرامات المحاكم، وذلك بالإضافة إلى الرمزية السيادية التى تعبر عنها.

□ تم إحياء اللغة العبرية وذلك كان لهم مارش صهيونى (هاتكوه - الامل) وكان لهم علم.

□ سبق أن أشرت إلى أن أول انتخابات لأول كنيست تمت قبل توقيع اتفاقيات الهدنة فى ٢٥ يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٤٩، وتشكلت أول حكومة وانعقد أول كنيست فى ٨ مارس (اذار) سنة ٤٩، ويلفت النظر أن الصهيونية جلبت معها منذ البداية نظاما ديموقراطيا لصناعة النخبة فى كل المجالات، وكان كل ذلك فى إطار قومى علمانى صرف.

□ وغنى عن الذكر أن الأسس الاجتماعية للاستيطان تمت فى إطار فكر متحرر أوروبى النشأة، تتمتع فيه المرأة بمكانة جعلتها تشارك فى كل مناحى الحياة دون استثناء، بالرغم من الجمود الدينى فى النظر إلى المرأة فى الديانة اليهودية.

□ هكذا جاءت الصهيونية إلى بلاد العرب عبارة عن أيدلوجية خلاصية شعبية (وهنا تكمن دوافعها وجوانبها الإنسانية)، ذات مظهر قومى وأساس أسطورى، جعل من

التوراة سجلاً عقارياً وكتاباً للأعراق (وهنا تكمن أسباب ممارساتها العنصرية وصبغتها البربرية)، وهذا ما جعل لها فصاميتها الخاصة مثل كل البربريات. وسلكت الصهيونية فى التنفيذ مسلكاً علمياً عقلانياً ووسائل حديثة أهمها مؤسسات حديثة وأسلوب ديموقراطى، واستدلت على أهمية احتلال «العمل» قبل احتلال الأرض، وأهمية المزاوجة بين العمل ورأس المال، وقيمة العمل الجماعى، وقبل ذلك قيمة العمل التطوعى؛ وكان ذلك سبب قوتها وانتصارها وتطورها.

وتنبأت الصهيونية بانتصار الغرب وقوة التطور الرأسمالى، بالرغم من نشأتها الشرق أوروبية، فاختارت موقعها ضد القوميات العرقية والدينية، وضد النازية والفاشية والسوفيتية، وهكذا راهنت على معسكر المنتصرين وانتصرت معهم. ومما يؤكد جذرية هذا التوجه فى عقل الصهاينة الأوائل محاولة اليمين الصهيونى المتطرف فى منظمة شتيرن والأرجون التنسيق مع دول المحور، وتمت ترجمة ذلك فيما سمى بمذكرة إبراهام شتيرن حول التعاون النازى الصهيونى فى ١٥ يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٤١، وكان نتيجة ذلك ارتكاب عدة أعمال ضد العرب وضد الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية، وعن طريق ما قيل إنه اختراق من الهاجاناه لمنظمة شتيرن تم تسليم إبراهام شتيرن إلى الإنجليز كى يعدموه فى ١٢ فبراير (شباط) سنة ١٩٤٢، وتغير اسم المنظمة إثر ذلك إلى منظمة «ليحى».

وعندما حدث التناقض بين الجانب «الرسالى» أو الأسطورى و الدولة، اختار القادة جانب الدولة دون تردد، ويعبر عن ذلك أنه حين تم وضع الأولويات فى هجرة اليهود من ألمانيا بين الأصحاء والعجائز اختاروا الشباب والأصحاء[١٥]، وعندما كان على «بن جوريون» أن يختار بين دعم «الييشوف»، أى دعم من استوطنوا بالفعل فى فلسطين وبين الإنفاق على عمليات التهجير من أوروبا، اختار دعم الييشوف[١٦].

□□□

الفصل الثالث
فلسطين

الموقع والفراغ والصراع:

فى المشاهد الختامية لآخر امبراطورية عسكرية دينية أى الامبراطورية العثمانية وخلال مرضها الطويل الذى استغرق مايزيد على قرن ونصف من الزمان، وحتى لقيت حتفها فى الربع الأول من القرن العشرين؛ كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على أرض فلسطين عينة متماثلة من أوضاع المشرق العربى ككل، وكان المرض الطويل لتلك الامبراطورية سبباً فى تطلع قوى عديدة من خارج المنطقة لشغل فراغها، ولم تكن دروس التاريخ والجغرافيا السياسية للمنطقة لتغيب عن بال تلك القوى وعلى رأسها بريطانيا، منذ قطع السلاجقة طرق التجارة بين أوروبا وبين آسيا، ومنذ مبالغة المماليك فى مصر فى تحصيل المكوس على قوافل التجارة عبر مصر، حتى أصبحت التجارة عبر رأس الرجاء الصالح أقل تكلفة، ثم النمو والتطلع الامبراطورى المفاجئ لمشروع محمد على فى شرق المتوسط، ثم التجربة الأخيرة وهى تهديد الأتراك لقناة السويس والاحتلال البريطانى لمصر عبر فلسطين، بل عبورهم إلى غرب القناة أيضا فى سنة ١٩١٥، خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت كل تلك الأحداث تزيد من حساسية المنطقة فى مخططات القوى الاستعمارية، وهو ما جعل بريطانيا وفرنسا تدخلان إلى المشرق العربى لشغل الفراغ الناجم عن سقوط الامبراطورية العثمانية، وفى ثنايا تلك التطلعات الاستعمارية نمت تطلعات من نوع استعمارى آخر كانت مختلفة الدوافع، وبالتالى مختلفة النتائج، وأعنى بها الاستيطان العقائدى السلمى والمسلح لبعض القوى ذات النشأة الأوروبية. ولم يكن الاستيطان الصهيونى اليهودى هو أول استيطان لفلسطين فى العصر الحديث؛ بل سبقه استيطان مسيحى صهيونى من أتباع «كريستوف هوفمان» مؤسس جماعة الهيكل المسيحية الألمانية،

الذين كانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار الأصلى، وأن الوعد الإلهى بأرض الميعاد موجه إليهم دون غيرهم، وأن عليهم الذهاب إلى القدس، وانتظار معركة ارما جيدون، وشرعوا فى الاستيطان سنة، ١٨٦٧ ، وأسسوا مستوطنات صناعية وسياحية وصل عددها إلى سبع مستوطنات حول القدس وحيفا، مهدوا بينها طرقاً، وأقاموا بنية أساسية وخدمات، وسميت بالمستوطنات الألمانية؛ غير أنه لم يكن باستطاعتهم التنافس مع المشروع الصهيونى اليهودى الوافد بدءاً من سنة ١٨٨١[١٧]، بل إن بعض تلك المستوطنات تم بيعها إلى الصهاينة اليهود، لكن نهاية المستوطنات الألمانية لم تتم فى سنة ١٩٤٠ على يد البريطانيين، حينما قاموا بترحيل سكانها الألمان إلى خارج فلسطين، بسبب ولائهم للنازية فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، كما أنه حدثت بعض المحاولات الأقل شأناً، مثل جماعة المورمون الأمريكية من أتباع جولد سميث وموطنهم الأصلى فى ولاية يوتاه ووايومنج وايداهو فى الولايات المتحدة، ولديهم أسطورة صهيونية شبيهة، ولهم بعض المستوطنات المحدودة حالياً فى الأراضى المحتلة.

ومن المحاولات القديمة أيضاً بعض البعثات التبشيرية المسيحية.

وكما قامت بريطانيا بشغل فراغ تركيا فى فلسطين، قام الصهاينة بشغل فراغ بريطانيا حين بدأت الامبراطورية العجوز فى التقلص بعد الحرب العالمية الثانية. ويلفت النظر ذلك التداول لشغل الفراغ، إلى نوعية العقل السياسى والواقع الاجتماعى العربى الذى لم يخرج عن كونه مفعولاً به طوال الوقت.

الداخل الفلسطينى:

أولاً: الاقتصاد: تسببت الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية فى القرم ومنطقة البلقان، ثم تورطها فى الحرب العالمية الأولى؛ فى أنه ما إن حل القرن العشرون حتى كانت الامتيازات الأوروبية قد شملت السكك الحديدية والبريد والموانئ والتجارة فى الأراضى التركية والأراضى التابعة لها بما فيها المشرق العربى، وتسبب ذلك أيضاً فى زيادة الأعباء الضريبية طبقاً لنظام المقاطعجية والمتصرفيات على الأراضى الفلسطينية، حتى أنه كانت هناك ضرائب على كل شجرة زيتون وفواكه وكل نعجة، بالإضافة

إلى تخلف البنية الاقتصادية والإدارية أصلاً. وكانت النتيجة المحتومة هى انهيار اقتصاد المنطقة الزراعى والرعوى والتجارى، وتسبب كل ذلك فى رواج تجارة الأراضى تحت رعاية ومشاركة القناصل الأجانب ووكلائهم، مثل: نائب قنصل البرازيل فى يافا الذى باع مستوطنة قطرة (كديرة)، والكساندر ليتزوفيتش نائب قنصل إنجلترا فى غزة الذى توسط فى بيع مستوطنة جمامة فى بئر سبع من على العطاونة، شيخ قبيلة العطاونة إلى جمعية الايكا[١٨]. وكان «ملغيل برغيم» اليهودى الألمانى هو أول مؤسس لمصرف فى القدس، وأول من تاجر فى الأراضى، بالإضافة إلى المقاولين والتجار اللبنانيين، مثل: مدور وحبيب بسترس ونقولا سرسق، وكذلك إلى تجار حيفا ويافا وعكا: ومن قيل عنهم أفنديات ووجهاء المدن، وكذلك إلى الفلاحين والبدو وقد شارك المتصرفون الاتراك فى ذلك مثل رشيد بك متصرف الرملة الذى باع أرض البلدية[١٩]، بل إن بعض العائلات والزعماء الوطنيين شاركوا فى تجارة الأراضى. كما يذكر كينيث شتاين العشرات منهم فى لائحة إحصائية فى كتاب «مسألة الأرض فى فلسطين» سنة ١٩٨٤، وكما يذكر روحى ياسين الخالدى فى وثيقته الهامة عن أرض مستوطنة عيون قاره (ريشيون ليزيون) التى أقيمت فى سنة ١٨٨١ والتى باعها اسكندر روك.

وغداة حرب سنة ١٩٤٨ كانت الصهيونية قد امتلكت ما بين ٦ ٪ إلى ٧٪ من أراضى فلسطين الكلية، وليست النسبة فقط هى المهمة بل الأهم هو نوعية الأراضى التى كانت من أفضل أراضى فلسطين، كما كان لنوع النشاط الاقتصادى البالغ الكفاءة فى تلك المستوطنات معول كبير فى تمويل ونجاح المشروع الصهيونى، وأخيراً كان توزيع تلك المستوطنات على هيئة حرف H[٢٠]، فى خطة أمن عسكرية دقيقة.

ثانياً: المجتمع والسياسة:

كانت البنية الأساسية للمجتمع الفلسطينى فى نهاية القرن التاسع عشر بنية عشائرية، وكانت فلسطين الهضاب (الداخلية) محاصرة بالبدو وكانت أغلب الوجاهات فيها من أصل بدوى. وكانت العصبية القبلية القديمة بالتالى أهم أسباب

الصراعات الداخلية، وكانت أهم حلقات هذا الصراع سنة ١٨٤٠ فى جبل نابلس وجبل الخليل، حين أخذت شكلاً طائفياً، بسبب كون الغالبية من المسيحيين وكانوا من أصول قيسية[٢١].

أما فلسطين الساحل فقد كانت تحت سيطرة أفنديات المدن، وزعماء الأسر الدينية، وكانت الامتيازات الأوروبية قد أفرزت نتائجها على هيئة وكالات أجنبية ومصارف، وشيئا فشيئاً بدأت الأقليات الدينية فى الاستقرار على الساحل، نتيجة سيطرة الطائفية العشائرية فى الداخل.

وكان لابد للتخلف المجتمعى أن يترك أثره على طريقة النظر إلى الصراع وأسلوب إدارته، فلم يكن هناك سوى الطرح الدينى كزاوية وحيدة للنظر إليه على حساب أى توجه سياسى أو خطة سياسية، وكانت النتيجة هى الارتباك السياسى والفكرى. وكى نسوق مثالاً على ذلك نشير إلى رد الفعل تجاه تصريح بلفور فى ٢ نوفمبر (تشرين ثان) سنة ١٩١٧، فقد قام حاييم وايزمان بزيارة للقدس فى مايو (ايار) سنة ١٩١٨، وألقى خطبة على الزعماء الفلسطينيين بزعامة كامل الحسينى، وقال: «.. إن اليهود يطلبون فرصة التطور القومى الحر فى فلسطين. دون إلحاق ضرر بسكان البلاد، بل لمصلحتهم..» (يلاحظ العبارات المستقاة من تصريح بلفور). ورحب كامل الحسينى بذلك وقال: «لهم مالنا وعليهم ما علينا»! وأضاف: «إن لنا الثقة التامة بإخلاص د.وايزمان. وإنه: «يتطلع إلى تعاون ولائي مع الصهاينة لتطوير فلسطين»[٢٢]. وليت الأمر توقف عند ذلك الحد، بل إن الأمير فيصل بن الشريف حسين عقد فى ٣ يناير (كانون ثانى) سنة ١٩١٩ اتفاقية مع حاييم وايزمان اعترف فيها الجانب العربى بتصريح بلفور؛ وللإنصاف يجب ذكر أن ذلك كان محاولة لعقد صفقة فى مقابل متخيل هو سوريا الكبرى.

ومنذ سنة ١٩٢٠ وحتى سنة ١٩٢٧ عقدت سلسلة مؤتمرات سنوية، تحت اسم المؤتمر الوطنى بزعامة موسى كاظم الحسينى، وكانت تلك المؤتمرات تحتوى على ممثلين من الزعامات الوطنية ومن كل الطوائف، وكانت بداية متواضعة ولكنها

هامة لتعويض البنى التقليدية المتهرئة للمجتمع الفلسطينى، بتأسيس مؤسسة شعبية تقود الصراع، وفى نفس الوقت أشار صك الانتداب البريطانى على فلسطين فى ٢٤ يوليو (تموز) سنة ١٩٢٢ ، فى مادته الرابعة، إلى الموافقة على إنشاء وكالة يهودية تتحدث باسم اليهود مع المندوب السامى، وبعد أن أشار فى مادته الثانية إلى تصريح بلفور إلا أن القيادات الفلسطينية لم تنتبه إلى تلك البداية المعترف بها دولياً للدولة الإسرائيلية، وذلك لأن العقل الدينى الأسطورى استغرقها، وتحت وهم نيابته عن العالم الإسلامى انفرد الحاج أمين الحسينى مفتى القدس بقيادة الصراع منذ سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٣٨ ، ولم يفرق بين الأولويات، وخاض الصراع مع خصومه العشائريين، ومع الإنجليز، ومع الصهاينة فى وقت واحد، بل إنه زاد الطين بلة بالمشاركة فى الصراع العالمى بالرهان الفاشل على النازية الألمانية. وإذا كان هذا هو حال القيادات من عائلة واحدة، فيمكن تخيل الحال بين العائلات المختلفة عائلات، مثل: الدجانى والنشاشيبى ونسيبه، بالإضافة إلى عائلة الحسينى، وكى نعطى مثالاً على ذلك قام أمين الحسينى وأنصاره بالتحضير لمؤتمر إسلامى فى القدس من ٦ إلى ١٦ ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٣١ ، وقام بدعوة العديد من الوفود الإسلامية من الدول الإسلامية، ومثل «مدرسة الشرق» المصرية وفد كبير برئاسة عبد الرحمن عزام، وعبد الحميد سعيد باشا، وصالح حرب، وقام معارضو أمين الحسينى بعقد مؤتمر فى نفس الوقت سموه مؤتمر الأمة الإسلامية، وكان مؤتمرا ضخماً.

وخلال الفترة من سنة ١٩٣٨ وحتى سنة ١٩٤٥ لم تكن فى فلسطين كلها قيادة مسئولة ذات هيكل تنظيمى من أى نوع، لإدارة الصراع فى مرحلة من أخطر مراحله، ذلك لأن المفتى هرب سنة ٣٨ إلى الخارج، ثم ساند انقلاب رشيد عالى الكيلانى، وأصبح مطلوباً، فهرب إلى ألمانيا، ولم يظهر إلا فى سنة ١٩٤٦ كلاجئ سياسى فى مصر.

وهكذا يمكن أن نصل إلى الاستنتاج التراجيدى، وهو أن العرب كان لديهم الوطن، ولأسباب عديدة، سبق شرحها، لم يكن لديهم مجرد تصور لدولة أو لمؤسسات

إدارة من أى نوع، وكانت الصهيونية القادمة من أوروبا لديها مؤسسات دولة حديثة، ولم يكن لديها وطن؛ ولا يحتاج الأمر إلى إضافة أخرى.

الخسائر لا تتوقف:

- **مؤتمر لندن - الكتاب الأبيض:** عندما طرحت بريطانيا فكرة مؤتمر لندن فى ٧ فبراير (شباط) سنة ٣٩ وحضرته ٦ دول عربية، ومنها وفد فلسطين، ومن أعضائه جمال الحسينى، وراغب النشاشيبى، وكان المؤتمر برئاسة نيفل تشمبرلين رئيس الوزراء البريطانى، واستمر المؤتمر حتى ١٧ مارس (آذار) ولم يسفر هذا المؤتمر عن اتفاق بين العرب والوفد الصهيونى؛ ولذلك بريطانيا الكتاب الأبيض، أو كتاب ماكدونالد (وزير المستعمرات)، وكانت الوفود العربية بما فيها الوفد الفلسطينى ميالة لقبول الكتاب، بعد أن وافق عليه مجلس العموم بأغلبية، لكن المفتى أمين الحسينى رفضه وهو فى الخارج، فاضطرت الدول العربية إلى رفضه، وكان مشروع الكتاب الأبيض هو أفضل صيغ الحل طوال تاريخ الصراع.

- **مذبحة دير ياسين:** قامت منظمتا ليحى والارجون زفاى بمذبحة دير ياسين فى ١ إبريل (نيساب) سنة ١٩٤٨، وانتشر نبأ المذبحة، وقيل إن عدد الضحايا ٢٥٠ ضحية، وإن الصهاينة اغتصبوا النساء وشاع شعار «العرض قبل الأرض» وكان عدد الضحايا الحقيقى ١٢٠ ضحية، ولم تحدث حالة اغتصاب واحدة، لكن العرب بالغوا فى الأمر لاجتذاب تعاطف العرب الآخرين، وبالغ الصهانية أيضاً لبث الرعب فى نفوس الفلسطينيين، كى يتركوا أراضيهم وقراهم .. وهو ماحدث[٢٣].

- **تفريغ السكان:** فى يوم ٢٣ إبريل (نيسان) سنة ٤٨ كانت قوات الهاجاناه قد استولت على مدينة حيفا، وكان عدد سكانها من العرب يصل إلى ٧٠ ألف نسمة، وطلب القائد الإنجليزى من الوفد العربى برئاسة فريد السعد عقد هدنة لتأمين السكان، وحاول الوفد مناقشة ذلك مع قائد الحامية العربية يونس نفاع، لكن الأخير رفض نقاش «أمور عسكرية» علناً، وبعد أخذ ورد رفض الوفد العربى عقد الهدنة، باعتبارها اعترافا سياسيا بالصهاينة، وطلب من القائد الإنجليزى الاستمرار فى ترحيل العرب حتى

انخفض العدد إلى ٨ الآف نسمة[٢٤]، وكان العرب قد سيطر عليهم وهم بثته وسائل الإعلام العربية أن الرحيل مؤقت، وأنه سرعان ما سيتدخل العرب الرسميون، وتتم إزالة الكيان الصهيونى، وفى ذلك قدم الجنرال إسماعيل صفوت قائد جيش الإنقاذ ورئيس اللجنة العسكرية الذى عينته الجامعة العربية تقريراً فى ٢٣ مارس (آذار) سنة ٤٨ أصر فيه على: «عدم الاطمئنان إلى ما تذيعه الجرائد العربية من التهريج والبيانات المزوقة»[٢٥].

ليس معنى ذلك أن عرب فلسطين أو المتطوعين العرب من خارج فلسطين، قد تخاذلوا عن تقديم التضحيات، بل على العكس من ذلك لقد بذلوا التضحيات بكل أشكالها، وفى بعض الأحيان على نحو يتجاوز التصديق، ولكن لأن الأزمة كانت أزمة العقل العربى ككل ومأزقاً حضارياً فى نفس الوقت، فإن كل ذلك قد ذهب ادراج الرياح.

– **مشاركة من مدرسة الشرق المصرية**: لم تترك مدرسة الشرق المصرية تيار الخسائر يمر دون أن تشارك فيه، وأثبتت بما لايدع مجالاً للشك أنها ركن ركين فى أزمة العقل العربى، ونسوق موقفين هنا تكفى المقارنة بينهما للتدليل على عمق الأزمة:

– فى ٥ مايو (ايار) سنة ٤٨ أى قبل عشرة أيام من بدء الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل أرسل الجنرال إسماعيل صفوت برسالة إلى جميل مردم بك رئيس وزراء سوريا وعضو اللجنة السياسية الخاصة بفلسطين فى الجامعة العربية، قال فيها: «صبرت أكثر مما يجب أن أصبر وتحملت ما هو فوق طاقتى، وأنذرت بحراجة الموقف، وطلبت بإلحاح الإسراع لمعالجته فلم أجب، فساءت صحتى، وأصبحت غير قادر على الاستمرار فى العمل، وعليه اعتبر نفسى مستقيلاً اعتبارا من هذا اليوم»[٢٦]، كان ذلك يحدث فى دمشق.

وفى القاهرة فى ١٢ مايو (ايار) سنة ٤٨ أى قبل بدء الحرب بثلاثة أيام فقط. وفى اللجنة السرية المشكلة داخل مجلس الشيوخ، قال الفريق حيدر: «إن الجيش

المصرى وحده قادر على دخول تل أبيب» ![27].

دروس الهزيمة:

لم ينتج عن هزيمة ٤٨ماينم عن استيعاب دروس الهزيمة، بل على العكس تماماً، سار العرب فى الاتجاه المعاكس تماماً للعقلانية، وازداد الموقف السياسى العربى تفككاً. وانعكس ذلك بالضرورة تشتتاً وانقسامية على فلسطين؛ إذ لم تكد الهزيمة تصبح واضحة للعيان حتى حاولت مصر وسوريا تأسيس حكومة (عموم فلسطين) فى مؤتمر غزة فى ٢٣ سبتمبر (ايلول) سنة ٤٨ تحت رئاسة أحمد حلمى عبد الباقى، وتشكل مجلس تأسيسى برئاسة المفتى أمين الحسينى. وتجاهلت الخطوة نتائج الهزيمة أولاً، وقرارات المجتمع الدولى وأهمها قرار التقسيم ثانياً، وكون المفتى أمين الحسينى اكتسب رمزية سياسية سلبية ثالثاً نتيجة تعاونه مع النازى، ونتيجة لما يثيره من خلافات عائلية وعشائرية وطائفية، وهكذا قام الأعيان المناوئون له بعقد مؤتمر أريحا فى أول ديسمبر (كانون أول) سنة ٤٨، وبايع المؤتمر الملك عبد الله «ملكا على عموم فلسطين، كمقدمة للوحدة القومية بين العرب» !.

ولم يسر الأمر إلى الأفضل على مستوى الساحة العربية الأوسع، إذ ما لبث الفكر الفاشى القومى والدينى فى التمهيد لسلسلة من الانقلابات العسكرية، بدأت فى سوريا ثم مصر، ثم سرعان ما انتشرت فى بعض بلاد العالم العربى، وهكذا لم يكتف العقل العربى بعجزه عن بناء دولة فى وطن متاح بالفعل، ولم يتفهم سبب قوة المشروع الصهيونى؛ ولم يوجه الأسئلة الحرجة عن أسباب تخلف المجتمع العربى عامة، بل نكص إلى الخلف فى اتجاه النظم الشمولية بكل أشكالها، وأخذ يبدد ما كان متاحاً لديه من مؤسسات الدولة والمجتمع المدنى فى التجربة الليبرالية المصرية، والتجربة الليبرالية المحدودة فى سوريا والعراق. والنتائج معروفة، يمكن تلمسها عبر المقارنة بين الواقع فى إسرائيل الواقع العربى، وهذا مادفع الكاتبة العراقية آمال السعدى إلى أن تكتب عنوانا لمقالة فى جريدة الحياة: «فقدنا الاستعمار ولم نكسب الحرية».

□□□

هوامش الباب الرابع

١ – جريدة الحياة اللندنية. مدارات. ٩٨/٢/١٩.

٢ – لابد أنه توجد علاقة ذات مغزى عميق بين قيام المتعصبين المسيحيين بإحراق معهد الاسكندرية للفلسفة الهلينية ومكتبته بين اتهام عمر بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية.

٣ – تم سحل الفيلسوفة وعالمة الرياضيات هيباتيا مجردة من ملابسها فى شوارع الإسكندرية ثم ذبحت فى كنيسة بتهمة الهرطقة.

٤ – عبد الرحمن الكواكبى. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. محررها الرحالة. ك. الناشر محمد عطيه الكتبى. ١٣/٨ هـ.

٥ – العمليات الحربية فى فلسطين (مصدر سابق).

٦ – باتريك سيل. الصراع على سورية ص ٢٠ ترجمة : سمير عبده – محمود فلاحة. طلاس للدراسات والترجمة دمشق. ١٩٨٣.

٧ – (المصدر السابق) ص ٤٥.

٨ – التعبير لحازم صاغية من كتاب جريدة الحياة.

٩ – روحى ياسين الخالدى (مصدر سابق).

١٠ – د. وليد الخالدى. الصهيونية فى مئة عام. الحياة اللندنية ٩٧/٩/١٠.

١١ – مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩ – ١٩٣٥ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٤.

١٢ – تقرير السلطة الانتدابية سنة ١٩٣٣.

١٣ – (مصدر سابق) Nadine picaudou.

١٤ – ستيفن جرين (مصدر سابق). قدر قوات الهاجاناه ١٠٥ ألف مقاتل.

– محمد حسنين هيكل. المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (مصدر سابق) ص ٢٧٨و ٢٧٩. قدر القوات الإسرائيلية ٩٧,٨٠٠ مقاتل.

١٥ – تقرير لجنة الخلاص التابعة للوكالة اليهودية فى سنة ١٩٤٣.

١٦ – توم سجيف. المليون السابع (ترجمة خاصة).

١٧ – (مصدر سابق Nadine picaudou.

١٨ – روحى ياسين الخالدى (مصدر سابق).

١٩ – (المصدر السابق).

٢٠ – د. ياسين الخالدى (مصدر سابق).

٢١ – (مصدر سابق) Nadine Picaudou.

٢٢ – سليمان موسى. «تاريخ الحركة العربية». ص ٤٢٧، ٤٢٨. الطبعة الثالثة. دار النهار. بيروت.

٢٣ – انطون لاجارديا. ديلى تلجراف ٩٨/٤/٨.

– د. وليد الخالدى (مصدر سابق) فى ٩٧/١٢/٦.

٢٤ – (المصدر السابق) الحياة ٩٧/١٢/٧.

٢٥ – (المصدر السابق).

٢٦ – (المصدر السابق).

٢٧ – د. محمد حسين هيكل باشا (مصدر سابق) ص ٤٢.

■■■



الباب الخامس

آفاق السلام

الفصل الأول
موقف الحكومات العربية
مصر كمثال

سبق أن ذكرت أن الحكومات العربية المنخرطة فى الصراع ليس لديها مشروع سلام، ولا حتى خطاب سلام، وهى تعيش حياة اليوم بيوم، أو تستعين بفنون البقاء الشرقية. إن وضع تلك الحكومات فى عملية السلام أشبه مايكون برجل يتدهور من فوق جبل، ويحاول مصافحة آخر، وهى تعامل شعوبها بعقلية من يريد تجفيف البحر لأنه لايعرف السباحة.

إن الحكومات العربية المنخرطة فى صراع الحرب والسلام لم تعد لديها أرصدة كافية لإحداث تغيير جوهرى، أو صناعة خيارات فى معادلات الحرب والسلام، وهى كما أفرغت التعددية من مضمونها الديموقراطى والإنسانى والثقافى، وكما زيفت نتائج الحروب؛ فلا توجد لدينا أدلة على أن سلوكها سيختلف فى قضية السلام. إن من أسس شرعية الحكم على الحرب يصعب عليه فهم صناعة السلام؛ فما بالنا بالسلام الديموقراطى، وهى على استعداد لدفع الجوانب السلبية فى فاتورة السلام، وهى استحقاقات إسرائيل، أما الجوانب الإيجابية وهى سلام الشعوب وحريتها وتقدمها فهى عاجزة عن تصورها أصلاً، فما بالنا بتحقيقها.

وعليه، فقد سلكت الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية سبيل سلام الضرورة، وحافظت الحكومة المصرية على صيغة ما سمى بالسلام البارد، ذى المظهر الأيديولوجى، ولم تبد سوى استجابة محدودة، ولأسباب سياسية، حول صيغ مثل، التعاون الاقتصادى فى إطار الشرق الأوسط (اقتراح بيريز) أو سوق الشرق الأوسط وشمال إفريقيا M. E. N. A وهو الصيغة الأمريكية،، وليس لديها مجرد تخيل للتعاون البحر متوسطى، وهى فى الأصل خارج كل صيغ التعاون والتنمية الإفريقية (دخلت مصر

منظمة الكوميسا الاقتصادية «منظمة شرق جنوب افريقيا» فى يونيو ١٩٩٨ فقط)، و لم تقدم فى تلك الساحات بدائل من أى نوع، وجمعها العجز مع الدول العربية عن صيغة للحد الأدنى من التعاون الاقتصادى داخل الساحة العربية.

والحكومة المصرية تعامل السلام الرسمى، أو العلاقة الثنائية مع اسرائيل، باعتبارها رهينة أو درع غير بشرى، أو منطقة لرجع صدى علاقتها مع أمريكا، كما أنها تعاملها مرة ثانية كقربان لايحتاج إليه أحد على مذبح علاقاتها العربية المنتجة بشكل محدود، وذات المضامين غير الديموقراطية، ولأن الدنيا تتغير، فإنه ليست من الصدفة أن يصبح ذلك هو نفسه هدف نتنياهو الذى أعلن فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس (آب) سنة ٩٧ فى مؤتمر صحفى، أثناء زيارته لكوريا الجنوبية: «إن أقصى ماتريده إسرائيل من العرب هو السلام «الفاتر» وإنه لم يوجد أبداً شيء اسمه شرق أوسط جديد، وإنه يجب نسيانه»[١]، ثم قال فى حديث آخر: «ليس من شرق أوسط جديد .. إنه المكان الخطر القديم نفسه»، إن قوى الحرب والعنصرية تريد نفس الهدف الذى تسعى إليه السياسات الرسمية المصرية، ذلك لأن السلام «البارد» أو «الفاتر» هو أقرب أنواع السلام إلى الحرب، وإلى التخلص من التزامات تطوير السلام، كما أنه يجرد مصر من فاعليتها كوسيط وعضو فى معسكر السلام، أى أن الطرفين يسعيان إلى حالة اللاحرب واللاسلم، أو ما يمكن أن نسميه الرقص عند الحافة. إن ذلك يذكرنا بالتحالف وذلك لأن حجم الفساد وانخفاض مستوى الأداء، والاعتماد على رجال حكم دون الحد الأدنى، وضغط جماعات المصالح، والجماعات الوظيفية، والمثقفين الرسميين، والعداء للثقافة الحرة وللمثقف المستقل، كل ذلك يمنعهم من تصور مفهوم جديد وحقيقى للسلام وللحرية، وليس الحديث السقيم عن «قيمنا وتقاليدنا» و«هويتنا»، و«الغزو الثقافى»، و«المشروع الحضارى» ، و «مقاومة العولمة» .. ليس كل ذلك سوى الاستمرار فى تصور لذات خارج العصر وخارج الحرية، ولفكر التمترس والانقطاع، ولم يكن رفع شعار «دولة العلم والإيمان» أثناء بدء العملية السلمية سوى مثال صارخ على تلك «الكارنتينا».

وقد تعرضت السياسة المصرية فى القضية الفلسطينية لاختبار قاس خلال

مفاوضات اتفاق الجليل الثلاثية بين مصر وإسرائيل والفلسطينيين، خلال الشهور الأخيرة من سنة ٩٦ وبمشاركة الوسيط الأمريكى «دنيس روس»، حين بدا أن المفاوضات قد فشلت، ولكن تدخل الملك حسين بعد خروج مصر، ونجاح التدخل بتوقيع اتفاق الخليل فى ١٥ يناير (كانون ثانى) سنة ٩٧ عند بوابة اريتز، فظهرت الحكومة المصرية بمظهر من لا يريد السلام، وردد ذلك المفهوم نتنياهو، وبعض الدوائر الإسرائيلية والأمريكية. ومن يومها بدا وكأن رصيد مصر من التأثير على العلاقات بين إسرائيل الأطراف العربية يتناقص بدرجة واضحة.

إن العقلية التى سمحت بإنشاء سفارة وقنصلية فى إسرائيل، ولم تسمح بإنشاء مركز أكاديمى مصرى بإسرائيل هى عقلية مخيفة، وإذا نتج عن هذه العقلية وجود مندوب دبلوماسى يرتكب كل ذلك القدر من الأخطاء لدى الدولة العبرية[٢]. ويدعو ثلاثة آلاف مدعو فى ذكرى انقلاب يوليو، مما آثار السخرية (يذكرنى ذلك بتهنئة بن جوريون بنجاح الانقلاب) فنحن أمام عقلية مأساة تريد أن ترى الدنيا بعيون مطفأة، إنها نفس العقلية الكارثية المهزومة التى صنعت التحالف مع قوى العداء للديموقراطية، ولم تستوعب أبداً الخاصية الثقافية المصرية الحرة، التى صنعت وزنها الثقافى، ومؤثراتها التى شارفت على التلاشى، وتركت خفافيش الظلام كى ترتع فى الحياة والعقل المصرى، ونشرت فكر التطرف والتعصب والعنف، وفرضت الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ لمدة ٤٥ سنة ونيف. إن نظم الحكم العربية تشبه كائنات منقرضة تعيش خارج الزمن.

وإذا انصرفنا إلى الساحة الداخلية لاستكشاف احتمالات العمل المدنى الذى هو أهم أسس السلام الديموقراطى، سنكتشف أن الاحتمالات ضعيفة جداً، نتيجة أهداف التشريعات والسياسات. فالقانون ٣٢ لسنة ٦٤ مثلاً، وهو قانون الجمعيات الأهلية أحد أهم شروطه عدم العمل بالسياسة (من وجهة نظر السلطة طبعاً) وسيطرة البيروقراطية الأمنية والإدارية على العمل التطوعى بهذه الجمعيات، وإذا أضفنا إلى ذلك، قانون الأحزاب والنقابات، وإنشاء الصحف والانتخابات، وقوانين الاعتقال والسجون،

والضوابط القانونية على تحريك الدعوى ضد إرهاب وجرائم الدولة ومواد الدستور؛ سنكتشف من كل ذلك أنها قوانين معادية للعمل المدنى، وهدفها ترسيخ الحكم الشمولى، وتبديد الحوافز السياسية من الجماعة المصرية، وتضييع كل فرصة لتكوين ثقافة مدنية عصرية عقلانية، ومنع إصلاح وتجديد السياسة والمجتمع. وقد كانت أحد أهم نتائج ذلك استفادة الإسلام السياسى، واحتلاله لفراغ الحركة فى المجتمع المصرى.

وإذا كانت الصهيونية قد بدأت احتلال فلسطين باحتلال «العمل» ؛ فالحكومات العربية تتيح لها ثانية احتلال فضاء المعلومات والمعرفة والاتصالات، إنه «العمل» بمعناه المعاصر، والعلاقة الصحية مع العصر، إن ذلك الواقع يضفى المنطق على تساؤل نزار قبانى: «متى يعلنون وفاة العرب ؟»[٣].

□□□

الفصل الثاني

الجامعة العربية وقضية السلام

كان تأسيس الجامعة العربية أحد ساحات الصراع فى مصر بين القوى الليبرالية العلمانية، وبين حلف الشرق، وفى حين كان الملك فاروق، ومعه باقى أركان الحلف، يريدونها جامعة للحركات وللشعوب الإسلامية، حتى تصبح غطاءا مقنعا لإحياء فكرة الخلافة الإسلامية، ومبايعته أميراً للمؤمنين، كما يكشف ذلك حسن يوسف باشا وكيل الديوان الملكى فى كتابه «القصر ودوره فى الحياة السياسية المصرية ١٩٢٢ – ١٩٥٢».

وكان الإنجليز ينظرون إلى الرابطة العربية باعتبارها حلفا يمكن أن ينفذوا سياساتهم من خلاله، وخاصة أنهم خبروا تلك الرابطة وفاعليتها فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، ولم يكن تصور الإنجليز لهذا الحلف يشمل مصر فى البداية بل كان وقفاً على المشرق العربى فقط.

وعمل النحاس باشا على أن يقتصر التمثيل داخل الجامعة على الحكومات العربية فقط، كى يحولها إلى أداة مأمونة الجانب فى يد السياسة المصرية، وكى يفوت الفرصة على طموحات حلف الشرق الخطرة، وهكذا انتصرت فكرة النحاس فى البداية.

وحتى يكتمل تصور النحاس بكامله، كان يريد أن يصبح محمد صلاح الدين أول أمين عام للجامعة وهو من شخصيات الوفد البارزة.(٤)

وتم توقيع بروتوكول الجامعة فى ٧ أكتوبر (تشرين أول) سنة٤٤ ،لكن الملك فاروق، فى تطور دراماتيكى، أقال حكومة الوفد فى اليوم التالى مباشرة.(٥)

وقام أحمد ماهر رئيس الحكومة التى خلفت حكومة الوفد بتحقيق رغبة الملك بتعين عبد الرحمن عزام أميناً عاماً للجامعة. وكان واحداً من أبرز أبناء «مدرسة

الشرق»، وأحد خلصاء أحمد ماهر، وهكذا انقلب السحر على الساحر، وتحولت الجامعة إلى أحد الأدوات الهامة فى تحقيق سياسات «مدرسة الشرق».

لعب عبد الرحمن عزام أخطر الأدوار فى رفض كل فرص العمل السياسى ورفض كل قرارات الأمم المتحدة والمجتمع الدولى الخاصة بفلسطين، اعتماداً على فكرة الحسم العسكرى.

وكان تدخل الجامعة فى فلسطين، وتشكيل جيش الإنقاذ هو أحد ملفات الفشل الصارخ، وأحد مقدمات التورط العربى السلبى واليائس فى حرب ٤٨،(٦) وكان ذلك الفشل كفيلاً بإغلاق الجامعة، أو حتى إعادة تأهيلها، ولكن لأن الموتى يستمرون فى الحياة فى العالم العربى؛ استمرت الجامعة فى الحياة مجرد ساحة لصراع الحكومات العربية، ضد بعضها البعض حيناً، وساحة لتحقيق الأغراض حيناً آخر (انتقلت الجامعة من القاهرة إلى تونس بعد عقد اتفاقيات السلام مع إسرائيل، وتم تغيير الأمين العام المصرى بتونسى، ثم عادت إلى مصر ثانية دون تغيير جوهرى فى سبب الانتقال).

ولم تنشأ أبداً داخل الجامعة أو خارجها فكرة أن تصبح للمؤسسات الشعبية أو لمؤسسات المجتمع المدنى لها فرصة للتمثيل أو التعاون، أو حتى الاتصال داخل هذه الجامعة. وظلت من البداية، وحتى الآن، منظمة للحكومات فقط، وانحازت دائماً للرأى الواحد الرسمى، مثلما كان موقفها فى الأزمة الجزائرية. ولهذا قامت الجامعة على الدوام بدور محامى الشيطان عن الأنظمة العربية التى كانت أو مازالت ترعى الإرهاب وتصدره.

وقامت بدور الشيطان الأخرس أمام بعض الأنظمة التى كانت أو مازالت تغض النظر عن تجارة وتصدير المخدرات.

وفشلت الجامعة فى إقامة محكمة عربية، أو إعلان ميثاق لحقوق الإنسان العربى، ولم يرد فى قرارتها أو توصياتها يوماً سطراً واحداً، عن ذلك ولو ذراً للرماد عن الديموقراطية أو معاناة الشعوب، تحت نير الحكومات العربية.

ودخلت فى عضويتها، دون شروط، دول مازالت تنتشر فيها ظاهرة العبودية، والممارسات العنصرية ضد الأفارقة السود مثل موريتانيا.

ولم تحدث إشارة واحدة للاحتجاج على وجود سجون خاصة فى منازل بعض «الكبار» ، وفى الوزارات المدنية مثل وزارة الإعلام، أو على بحور الدم القبائلية فى اليمن فى سنة ١٩٨٦ ، ١٩٩٤ .

وكانت الجامعة ولاتزال تدخل فى سبات إرادى، حينما كانت بعض الحكومات العربية تقوم بعمليات إبادة همجية، وتهجير قسرى، ضد الأقليات.

وكان من المنطقى، والحال، كذلك أن يتم الإعلان عن تأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان (طبقاً لشروط الأمم المتحدة) ليماسول بقبرص، بعد أن ضاقت العواصم العربية أمامها، وقد انتقلت بعد ذلك إلى القاهرة، دون أن تتمتع حتى الآن باعتراف قانونى من الحكومة المصرية.

ولم يكن من الممكن للجامعة أن تقوم بأى توقع من تلك التوقعات، لأن ذلك كان كفيلاً بإغلاقها، لأن دورها الحكومى «العربى» يتناقض مع تلك التوقعات التى تفرضها حقوق الشعوب والمواثيق والشرعية الدولية.

وفى اعتقادى أن كل ما سبق لاجديد فيه، ولكن أهم ما ينبىء به أنه يفضح نوع مفهوم الحكومات العربية للعلاقات بين شعوبها بعضها البعض، وبين الشعوب الأخرى بصفة عامة، ويبين نوع المنظمات التى نشأت أو التى قد تنشأ مستقبلاً فى ظل الوضع العربى الراهن، وبالرغم من صخب الشعارات طويلة الأمد عن الوحدة العربية وهى من العلاقات الوهمية المميزة لحلف الشرق.

إن الجامعة العربية تم المحافظة عليها، ولأمد طويل، كى تكون مجرد مسخ حكومى، ينتصب فى ميدان التحرير بالقاهرة، يشهد على إفلاس وعقم «مدرسة الشرق» فى عصر المنظمات الديموقراطية والمدنية والتطوعية، وعصر ما بعد الدولة، أى عصر الشعوب.

وهكذا يمكن معرفة الاحتمالات الصفرية لأن تقوم هذه المنظمة، أو أى منظمات عربية «رسمية» أخرى، بدور ما من أجل التعاون والسلام بين الشعوب

العربية، ناهيك عن مابينها وبين إسرائيل.

قد تبدو الصورة قاتمة وهذا صحيح، ولكنها فى مستوى آخر للنظر تتيح عددا من الممكنات، ذلك لأنها تصنع استقطاباً كثيفاً، وارتباطاً متشابكاً، يتزايد يوما بعد يوم، بين: قضايا السلام، والديموقراطية، وحقوق الإنسان والمرأة، والأقليات، والحريات الثقافية والدينية والسياسية والاقتصادية، وتداول المعلومات، وقضايا التنمية (بكل أنواعها) والحداثة، ولاشك أنه مع كل تحرك إيجابى سيتبين ذلك، كما أن أية مكتسبات يتم تحقيقها فى كل قضية من تلك القضايا تنعكس بالضرورة على باقى القضايا فى علاقة طردية، إن جبهة السلام أكبر وأوسع من أن يحاصرها أحد لأنها باتساع المستقبل كله.

□□□

الفصل الثالث
الكيان الوطنى الفلسطينى

اعترف لأسباب عدة، من بينها أسباب عاطفية، أن الكتابة النقدية عن الساحة الفلسطينية عمل صعب بالنسبة لى، وأهم تلك الأسباب أن الفلسطينيين هم الطرف المجنى عليه، وجسد الضحية المتناثر بين داخل إسرائيل، أى عرب ٤٨ والضفة الغربية وقطاع غزة، وبين مخيمات اللاجئين فى العالم العربى، والمهاجرين إلى كل أنحاء العالم دون استثناء تقريباً فى دياسبورا جديدة، وهذه الدياسبورا أو الشتات ليس شتاتاً دينياً ولاسامياً، ولكنه شتات وطنى وثقافى وعائلى، إنه شعب تم تشتيته فى مقابل شعوب مضطهدة فى مناطق أخرى، ومن أقوام آخرين، وضمن تاريخ آخر تم تجميعهم فوق أرضه وعلى أنقاض تراثه وتاريخه، وبعد أن تكالبت عليه أخطاء التاريخ والقوى المحلية والإقليمية والخارجية، وفى غالب الأحيان قوى وقيادات فلسطينية، وهنا يكمن المبرر الموضوعى للنقد، حيث إنه موجه إلى القيادات الحالية تحديداً.

كما أن ماسبق ليس كل شىء، فتلك التفاسير تظل داخل الإطار التقليدى الشائع والصحيح، ولكنه غير كاف لتكوين رؤية نقدية، لأن الحقائق الأكثر عمقاً ومرارة تبقى فى الإطار الأوسع وفى اللحظة التاريخية الأشمل، والتى يمكن إيجازها فى أنه كان هناك فارق جهد ضخم أو تفاوت فى المنسوب الحداثى بين الوضعية العربية ككل خلال مائة عام و الصهيونية.

وبادئ ذى بدء، لابد من القول إنه فى غمار التدهور العربى الذى أفضى إلى الهزيمة الكارثة فى سنة ٦٧ ، التى جعلت الأنظمة العربية الرسمية تقلص علاقاتها بالقضية الفلسطينية فى سياق سلسلة من التصرفات السياسية أوصلتها إلى أن توافق على أنها مجرد مشكلة لاجئين، كما عبر عنها قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. فى غمار

ذلك، من الإنصاف القول إن منظمة التحرير وهياكلها ومنظماتها، وخاصة تنظيمها الأساسي حركة «فتح» قد نجحت فى تحويل القضية الفلسطينية إلى قضية شعب ووطن، ونجحت فى فرض ذلك على الساحة العربية والدولية، وحتى على الساحة الإسرائيلية، ويمكن القول أيضاً إنها بلورت الشخصية الفلسطينية المستقلة سياسياً وثقافياً.

ولكن بقدر ما كان حجم ذلك الإنجاز كبيراً، بقدر ماكانت الأخطاء فادحة، إلى درجة أنها كفيلة أن تجعل ذلك الإنجاز قبض الريح، ناهيك عن استحالة تحقيق المأمول من تلك الرحلة الصعبة، وهو إقامة دولة ديموقراطية حقيقية على وطن سعيد، فما بالنا بالأمنيات، ومنها إقامة دولة واحدة متعددة القوميات، أو كونفدرالية، تجمع إسرائيل وفلسطين وربما الأردن و دول أخرى.

والمظاهر التالية تشير إلى تلك الأخطاء:

☐ منذ البداية تصرفت منظمة التحرير تحت رئاسة عرفات، وكأنها بديل لكل سلطة حلت على أرضها منذ الأردن وحتى لبنان، وكان ذلك كفيلاً ببث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وكانت تحول الصراع إلى صراع عربى/ عربى، وكان الفلسطينيون فى المخيمات يدفعون الثمن فى كل مرة.

☐ منذ كان عرفات يركب سيارته الفولكس فاجن البيتلز فى عمان قبل سنة ٦٧ كانت الأخطاء فكرية فقط، والآن فى نهاية القرن، بعد بناء قصور محمد دحلان وأبو مازن وأم جهاد وغيرهم فى غزة، لم يصبح لدينا فقط أخطاء من كل الأنواع، بل أصبحت لدينا «رمال فساد متحركة أقيمت فوقها دولة» كما كتب باتريك كوبرن فى جريدة الاندبندنت فى ٩٧/٦/١٧ أو «عرفات يحكم بالفساد» كما كتب ديفيد هيرست فى الجارديان فى٩٥/٤/٢٤ وكلاهما من المتعاطفين مع الشعب الفلسطينى كتّاباً وصحفاً.

☐ منذ البداية كان الفساد هو أحد وسائل صناعة العلاقات يوماً بعد يوم فى الأردن وبيروت والقاهرة وتونس، وهو ما انعكس داخل المنظمة، وليست تجارة العملة أو تسليم

المفكر والكادر اليسارى السعودى ناصر السعيد إلى خصومه، أو تحويل الشباب الذى تطوع للقتال من أجل فلسطين إلى مرافقين وسائقين للقيادات وزوجاتهم وعشيقاتهم أحياناً ينتظرون على أبواب محلات التجميل، ونوادى الساونا، وعلب الليل، وشقق القمار، وليت الأمر توقف عند تلك الحدود بل إنها وصلت إلى ثغرات اختراق المخابرات الإسرائيلية لها حتى أن إسحاق شامير قال يوماً: «ونحن أيضاً لدينا فتح!».

□ كانت أسطورة «القيادات التاريخية» هى أحد وسائل التحايل على الضرورة الديموقراطية لحركة ثورية خارج أرضها، وكانت النتيجة هى الجمود الفكرى والتنظيمى الذى تحول إلى ضيق أفق بعد الدخول إلى الأراضى الفلسطينية، علاوة على الممارسات الاستبدادية البشعة لهياكل المنظمة، التى تحولت إلى أجهزة إدارية.

□ بعد اجتياح إسرائيل للبنان فى غزو سنة ٨٢ هرب العديد من القيادات من مواقعهم، وأبرزهم الحاج إسماعيل الذى هرب من قيادة صيدا بالرغم من توفر الرجال والذخيرة والمئونة، وظهر العديد منهم فى دمشق والقاهرة وعمان أثناء الغزو، ولم يحاسب أحد والأسوأ أنهم عادوا إلى مواقع أخرى داخل المنظمة، وكأن شيئاً لم يكن.

□ أثناء مفاوضات واشنطن التى تلت مؤتمر مدريد، والتى كان يقوم بها أعضاء حددتهم منظمة التحرير، وجلهم من قيادات الداخل البارزة ذات الثقل مثل: حيدر عبد الشافى، وحنان عشراوى، وكانت وتيرة التفاوض مقنعة، وتتمتع بإجماع فلسطينى وعربى، تناقلت وكالات الأنباء فجأة خبر مفاوضات أوسلو السرية التى كانت غير رسمية فى البداية، ثم أصبحت هى المفاوضات الرسمية، وكانت الشبهة قوية فى أنها حركة التفاف وإجهاض لقيادات الداخل، استفادت منها إسرائيل بالتأكيد فى تخفيض سقف التفاوض، وكانت النتيجة هى اتفاق اوسلو، الذى هزم نفسه بنفسه لعدم احتواءه على الحد الأدنى من التحديد أو الخطط أو آليات التنفيذ، بالإضافة إلى عدم ذكر كلمة عن حقوق الانسان فى الاتفاق، وعدم استناده إلى الشرعية الدولية وقواعد القانون الدولى، وهكذا لم يكن نتنياهو يحتاج إلى جهد يذكر كى يفرغ الاتفاق عن مضامينه، وما أشبه الليلة بالبارحة عندما تصارعت قيادات جيش التحرير

الجزائرى فى الخارج مع قيادات الثورة الجزائرية فى الداخل، إلى درجة التصفية الجسدية، مثلما تم مع «عبان رمضان» والكولونيل «عمورى»، كما قاموا بتخزين السلاح فى تونس وليبيا، ومنعوه عن الداخل حتى تيسر لهم حسم المعركة على السلطة بعد الاستقلال.

☐ بالرغم من أن دخول المنظمة إلى الأراضى الفلسطينية تم عن طريق حل سياسى (سلمى) إلا أن القيادات والكوادر تتصرف فى مواجهة القيادات والشعب فى الداخل وكأنها جيش تحرير ويتحدثون عن الأراضى «المحررة»، ويمكن سحب ذلك على المجلس التشريعى الذى يحوى العديد من قيادات الداخل المنتخبة انتخاباً حراً، وبالرغم من أن أغلبهم ينتمى إلى فتح، وهذا طبعاً بالإضافة إلى تجاهله ضمن سياق الاستبداد السياسى وكما عبرت عنه استقالة حيدر عبد الشافى(٧).

☐ بعد أن أصبح للسلطة الفلسطينية رأس جسر على التراب الفلسطينى مساحته ٤٢٠ كيلو متر مربع تقريباً إذ بها تحشد !! إحدى عشر جهاز أمن، وتقيم ٢٠ سجناً، ويصبح عدد ضحايا التعذيب فى تلك السجون ١٧ ضحية، آخرهم وليد القواسمه فى أريحا فى أول أغسطس (آب) سنة ٩٨. وخلال ٤ سنوات هى عمر السلطة. وفى حين كان عدد ضحايا التعذيب فى السجون الإسرائيلية ٢٤ ضحيه خلال ٢٧ سنة؛ فذلك معناه -من هذه الزاوية- أن السلطة تتصرف أسوأ من جيش الاحتلال، حتى أن د. إياد السراج النشط من أجل حقوق الإنسان وقد اعتقل قال: «ماحدث فى سجون السلطة لم يحدث فى سجون الاحتلال» وكان د. السراج قد اعتقل ثلاثة مرات، وكان قد صرح لجريدة النيويورك تايمز فى ٩٦/٥/٧: «إنه كان يشعر بالحرية تحت الاحتلال الإسرائيلى أكثر مما يشعر بها تحت حكم السلطة الفلسطينية» وكان ذلك سبب الاعتقال للمرة الثالثة وتم تعذيبة وتلفيق قطعة حشيش له أثناء تفتيش المستشفى التى يشرف عليها فى غزة للطب النفسى (يمكن أن نستنتج ببساطة أين تدرب رجال الأمن الفلسطينيين).

□ سجل تقرير لجنة التحقيق فى جهاز الرقابة فى سبتمبر (أيلول) سنة ٩٧ وقائع فساد شملت كل الجهات الحكومية باستثناء وزارتين، وكان المنتظر أن يؤثر ذلك على التعديل الوزارى فى أول أغسطس (آب) سنة ٩٨، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بل إن العكس هو ماحدث، فقد استقالت بعض القيادات الجيدة مثل: حنان عشراوى، وعبد الجواد صالح الذى قال تعليقاً على الوزارة الجديدة فى ٥ أغسطس (آب) سنة ٩٨[٨]: «إن عرفات يدير مدرسة للفساد».

□ بعد دخول السلطة الفلسطينية أو «التوانسة»، كما يقال عنهم فى غزة، قامت بعمل لايصدق (إلا فى العالم العربى) وهو تعيين قيادات الانتفاضة فى أجهزة الأمن!!.

□ تقوم السلطة بتكريس نوع من التفاوت القانونى والإدارى والحضارى بين غزة والضفة، وهو ما ينبئ عما هو أكثر سوءاً، وأحد الأدلة على ذلك، إنه إذا شرع أحد فى تأسيس شركة فى غزة، فإنه لابد له من الحصول على موافقة وزارة الاقتصاد ووزارة العدل معاً كما فى مصر، ومن خلفهم، طبعاً مثلماً فى مصر أيضاً، تتستر أجهزة الأمن، فى حين أنه فى الضفة الغربية يكفى فقط موافقة وزارة الاقتصاد، وفى غزة أيضاً يتكرس التعليم الدينى الذى يقوم عليه فرع للأزهر فى غزة؛ فى حين يغلب التعليم المدنى على الضفة وهذا لا يمنع كما هو الحال فى كل بنات يوليو السبع من أن الكيان الوطنى الفلسطينى يتحول يوم بعد يوم إلى مكان غير مريح للمسيحيين وللمذاهب والأقليات الأخرى.

□ إذا كان فارق الأداء التفاوضى بين المفاوضين الإسرائيليين والمفاوضين المصريين فى كامب ديفيد كان واضحاً للعيان لصالح الإسرائيليين، فإنه يصبح أمنية فى حالة المفاوض الفلسطينى، وعن ذلك يقول ديفيد جاردنر فى الفاينانشيال تايمز (٩٨/١٠/١٧): «المفاوض الإسرائيلى بلدوزر مضبوط المحركات أما المفاوض الفلسطينى فالارتجال وعدم الاعتناء بالتفاصيل والفشل فى التوحيد بين التكتيك والاستراتيجية، وعرفات ليس لديه دولة ولا مؤسسات فاعلة، وأبقى مقاليد الامور فى

يديه منذ تاسيس المنظمة، وقد ضخمت قدراته على المناورة فى الساحة السياسية العربية التى تتسم بالطغيان والفردية، ضخمت نزعاته الفردية وانعكس ذلك على أسلوبه فى التفاوض مع الاسرائيلين، وهكذا يمكن التنبؤ بمستقبل قضية حلها مرهون بشكل كامل على أساليب التفاوض.

☐ كانت المهمة الأساسية للسلطة الفلسطينية هى إقامة نظام حكم دستورى مدعوم بمؤسسات حقيقية، ودعم لايفتر لمؤسسات المجتمع المدنى، ذلك أن حق إقامة الدولة لا ينفصل عن القدرة على إقامة هذه الدولة، والفشل فى هذه المهمة واضح للعيان، حتى وصل الأمر إلى إقالة رئيس المحكمة العليا «قصى العبادلة» فى فبراير (شباط) سنة ٩٨ والاعتقال المستمر للصحفيين ومصادرة الكتب وتجاهل المجلس التشريعى والتدخل فى النقابات وانتخابات الطلاب، وهو مايدفع إلى التساؤل: هل أجهزة الأمن والسجون ومحاكم أمن الدولة والمشايخ والتليفزيون والمثقفون الرسميون و الفساد، وطاغية شرقى، هو ما سيطلق عليه الدولة الفلسطينية؟ إن ذلك يصنع سلطة اليوم بيوم وسيطرة بيولوجية، ولكنه لايقيم دولة ولا وطنا. لقد أثبت عرفات أن لديه ما هو أكثر من الهوى المصرى(٨).

☐ من بين الموضوعات شبه السرية العديدة على اجندة أجهزة الأمن الفلسطينية، ظاهرة العلاقات بين العديد من الفتيات الفلسطينيات فى الكيان الفلسطينى وبين أفراد وعائلات إسرائيلية (تقدر الجهات أعدادهم بمئة ألف فتاة والبعض يقدره بضعف هذا الرقم)، ولايمكن لعقل علمى، وله غايات موضوعية، أن يعتبر ذلك قضية أمنية فى الأساس، إذ أن ذلك يفاقم الظاهرة ويجعل لها مردودات سلبية أكثر تعقيداً، إن له جانباً امنياً بلا شك، ولكن الجوانب الأهم للظاهرة هى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والثقافية، بالنظر إلى طول فترة الاحتلال، والحصار الاقتصادى، أو وجمود التقاليد وهو مايحدث على الدوام فى كل الظروف المشابهة، ولكنها سيطرة العنف والهاجس الدينى والأمنى فى ظل نظم الحكم الغير ديموقراطية.

□ يكتمل هذا المشهد التعس بصورة رئيس عربى أوحد آخر عجوز ترتعش شفتاه ويداه، ومصاب بالشيخوخة السياسية والجسدية، مثيراً للتساؤل العربى التقليدى البائس: ماذا بعد عرفات؟ ومحاولة الإجابة على هذا السؤال تثير الأسى خاصة وأن كان من بقى من القيادات «التاريخية» لم ينج من تهمة الفساد، وليس استدعاء أبو ماهر من دمشق يعنى تغييراً من أى نوع، فوراء الباب ينتظر رجال السلطة الفعليون وهم قائدا أجهزة الأمن وجلادا الشعب الفلسطينى محمد دحلان فى غزة، وجبريل الرجوب فى الضفة، وخلفهما الثعالب الصغيرة فى اجهزة الامن الاخرى وأمامهما فى الشارع البديل الوحيد للسلطة العسكرية فى «بنات يوليو السبع» وهو الإسلام السياسى، وكأن التاريخ لايتحرك، بعد أن ساهمت السلطة فى دعمه. والتحالف غير المباشر معه، بضرب كل القوى السياسية البديلة، وإحداث فراغ تتقدم لتشغله ببساطة الأيدلوجية البربريةالدينية.

وإذا كانت ثمة كلمة تقال أمام الصورة القائمة، فإنه يجب القول إن ما تحقق حتى الآن على الصعيد الوطنى الفلسطينى ليس قليلاً، وهو جدير بالمحافظة عليه وتوسيعه، وبالقياس إلى التاريخ الفلسطينى أعتقد أن هذا ممكن، لقد قابلت عرفات سنة ٨٢ بعد غزو لبنان، وأثناء حصار بيروت، وكان الرجل متماسكاً ورابط الجأش، وكان قادراً على اتخاذ القرارات الصعبة، وكان أهمها فى ذلك الوقت تغيير وسائل النضال فى مرحلة جديدة، وفى ظل الحلول السلمية، وعندما تعرضت قواعد المنظمة وهياكلها للتهديد فى طرابلس، بعد ذلك، كان قادراً على العودة حيث يكون فى قلب معركة القرار الفلسطينى المستقل. كانت هذه بطولة. ولكن الدولة شئيا آخر، إن إدارة جمهورية الفكهانى* فى بيروت تختلف تماماً عن إدارة دولة. فضلاً عن تأسيسها.

والآن نحن أمام مرحلة جديدة تحتاج إلى العديد من القرارات الصعبة، وتغيير

* حى الفكهانى فى غرب بيروت كان مقراً لإدارات المنظمة فى الفترة من سنة ١٩٧٥ إلى أول سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٨٢ وهو يتوسط أحياء غرب بيروت الشعبية والمخيمات، ولم يكن للحكومة اللبنانية أو القانون اللبنانى أى فاعلية تذكر خلال تلك الفترة.

الوسائل السياسية السلمية باستمرار، ولدى الشعب الفلسطينى ما يكفيه من القادة والمفكرين والحكماء والشرفاء الذين لم يخرجوا أبداً من الساحة، فلديه: ادوارد سعيد. ووليد الخالدى، وهشام شرابى، وفيصل الحسينى، وحيدر عبد الشافى، وباهر المصرى، وعبد الجواد صالح، وحنان عشراوى، وحنا ناصر، وجابى برامكى، وابراهيم ابو لغد، وعلى الجرباوى، ولديهم مؤسسات مستقلة مثل جامعة بيرزيت وجامعة النجاح .وعشرات آخرون فى الخارج والداخل، ولديه أطر منتخبة انتخاباً حراً. إن مرحلة السلام الشائكة الحالية تتطلب دولة فلسطينية ديموقراطية بحق، تصبح جسراً بين قوى السلام الديموقراطى على الجانبين، وجسراً بين العالم العربى وامتداده الثقافى والاجتماعى داخل إسرائيل، سواء كانوا يهوداً أو فلسطينيين، إن هذه هى أكبر خدمة للسلام والتعاون .

والفلسطينيون يحتاجون إلى الكثير من نقد الذات، والايمان بالديموقراطية، والتقدم والسلام، والقدر الأكبر من التسامح والنسيان، كى يتمكنوا من تقديم أعمق مفاهيم السلام وأكثرها مستقبلية، إن ذلك هو الأسلوب المؤثر الآن والقادر على مواجهة قوى التعصب والعنصرية، والحرب التى تحكم إسرائيل الآن، وهو الأسلوب الأمثل لحل مشكل فارق المنسوب الحداثى والتنمية التاريخية والثقافية، وهو نفسه الذى يحقق ركناً أساسيا فى السلام الديموقراطى، وهو انخراط إسرائيل فى المنطقة.

أما عن شعار تحرير فلسطين فهو عبارة عن كلمة كبيرة ومثيرة ولكنها مزيفة، أن استقلال فلسطين هو المطلب الواقعى والواضح الأن.

وعن العلاقة بين الدولة الفلسطينية والمنظمة فهى تثير تساؤلا: فلماذا: لا تظل منظمة التحرير فى الخارج، ويصبح لها قيادة أخرى؟ مستوحية العلاقة بين دولة إسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية، فمازال هناك عدد كبير من الشعب الفلسطينى فى الشتات، لم يعد بعد.

□□□

الفصل الرابع
الساحة الإسرائيلية

أولاً: إسرائيل «الثانية»:

إذا كان ثمة نقد يوجه إلى الصهيونية وأهدافها فإن من أهم مناحى القصور فيها هو مرحلتها الرابعة والأخيرة، أى امتزاج المهاجرين فى إسرائيل أو ما يطلق عليه Melting pot أى بوتقة الصهر، ولاشك أن بعض الثنائيات المتزايدة فى الحياة السياسية والثقافية فى إسرائيل نتاج فشل هذه السياسة، وهو ما أنتج سياسة أخرى تعطى الجماعات والطوائف فى إسرائيل حرياتها الثقافية والدينية والسياسية، فى حدود «مايجمع اليهود»، ولكن ما يجمع اليهود مفهوم غير محدد، بالإضافة إلى كونه متغيراً بالضرورة. وهذا المفهوم، وإن كان قد نتج عنه مجتمع مفتوح على كل التيارات الثقافية والفكرية فى العالم، وهو أحد السمات الهامة للمجتمع الإسرائيلى، فإن أحد جوانبه هو تعميق أزمة قسم هام من هذا المجتمع، وهو القسم الذى يزيد عن نصف إسرائيل، وأعنى به القسم الشرقى فى إسرائيل من اليهود السفارديم والفلسطينيين، وهم من يستقبلون الحداثة بمعدل أبطأ من باقى سكان إسرائيل من اليهود الاشكناز. نتيجة اختلاف الثقافات.

☐ وإذا كانت مرحلة المواجهة العسكرية قد تم توظيفها فى فرض الفكر الصهيونى، وسوسيولوجيا الهولوكوست فى بلد أكثر من نصف سكانه من الشرقيين؛ فإن أحد نتائج ذلك أن إسرائيل أصبحت محكومة بأوليجاركية ثقافية واجتماعية، بالرغم من كونها مجتمعاً مفتوحا وديموقراطيا من الجهة السياسية.

□ الفلسطينيون فى إسرائيل:

كانت الأقلية العربية (عرب ٤٨) محكومة بالقوانين العسكرية حتى سنة ١٩٦٦، ومازالت الأقلية العربية تصل إلى ١٧٪ من سكان إسرائيل، بعد ٥٠ سنة من إنشاء الدولة، عنصراً ضاغطاً فى صياغة هوية الدولة، وليس فى الأفق القريب حل لهذه المشكلة، وقد أصبح لهم بعض الأحزاب والتجمعات السياسية والبلدية والنقابية. وقامت الأقلية العربية بمبادرة لمساندة الفلسطينيين فى الكيان الوطنى بقرار مقاطعة المصنوعات والسلع المنتجة فى المستوطنات.(١٠)

ولم يكد هذا الكتاب يشارف على نهايته حتى كانت جريدة معاريف فى ٩٨/٨/١٦ قد نشرت تقريراً لمجموعة من السياسيين ورجال المخابرات فى إسرائيل، عن خطورة عرب إسرائيل على مستقبل الدولة واستراتيجيتها. وقد علق بار ايلان المتحدث باسم الحكومة فى اليوم التالى: إن هذا التقرير لايعبر عن الرأى الرسمى للحكومة، وإن كنا نشعر بالقلق أمام بعض التصريحات لبعض النواب العرب فى الكنيست».

اليهود العرب والشرقيون:

تم استقبال اليهود الشرقيين بعد هجرتهم أو تهجيرهم إلى إسرائيل، برشهم بالمبيدات الحشرية، ونقلهم بشاحنات المواشى، وتم تسكينهم فى «المعبراه» أى أحياء الإيواء المؤقت من الخيام والصفيح، ولسنين طالت إلى عشره سنوات بالنسبة لبعضهم، وسط الأوحال والبرك، وكانت اضطرابات وادى الصليب فى حيفا فى صيف ١٩٥٩ بزعامة بن هاروش* التى قام بها اليهود الشرقيون، وأخمدت بالقوة المسلحة نتيجة طبيعية للخلل الاجتماعى والاضطهاد اللذين طالا اليهود الشرقيين منذ تأسيس الدولة.

ومازالت قضية اختفاء ٧ آلاف طفل من أبناء اليهود اليمنيين، بعد ولادتهم أو علاجهم، من القضايا المعلقة بدون حل حتى الآن، وقد قيل إنهم تم توزيعهم على

---

* أشرف راضى. «الفجوة». تقديم: د. محجوب عمر. دار البيادر. القاهرة ١٩٨٧.

لأسر الاشكنازية. وكانت الوظيفة الغالبة لليهود العرب والشرقيين وظيفة عمال مهما كانت المؤهلات التى يحملونها، وبسبب ذلك يحملون ضغينة موجهة إلى حزب العمل باعتبار أنه الحزب الحاكم ومؤسس إسرائيل، وهذه الضغينة من أهم الأسباب التى تجعل أغلب أصواتهم الانتخابية تصب فى خانة كتلة الليكود، وأصواتهم عنصر فارق فى الصراع الانتخابى بين الليكود والعمل، وهو ماجعل يهود باراك الزعيم الحالى لحزب العمل يعتذر لهم عن تلك المعاملة، غير أن الأمر لم يخل من بعض التصريحات الحمقاء من أمثال عضو الكنيست الجنرال «اورى اور» عن حزب العمل، الذى صرح لجريدة معاريف الصادرة فى ٩٨/٧/٢٩ ، وهو يوم التصويت فى الكنيست على الانتخابات المبكرة ضد نتنياهو، وكان أول تصويت ينجح ضده، وقال فى التصريح: «إن اليهود الشرقيين ليسوا إسرائيليين، وإن اليهود المغاربة هم أكثر الجماعات تسبباً فى المشاكل» ، وهكذا أعاد الأزمة إلى السطح ثانية، وهو ماجعل نتنياهو يتلقف هذه التصريحات، ويعلق عليها بقوله: «إنها مؤسفة ومؤلمة» ، وقد أكدت هذه الواقعة وجود هذه الأزمة، وأكدت معها حكم الاليجاركية الثقافية والعرقية بل السياسية أيضا.

وقد عانى الفلسطينيون (عرب إسرائيل) واليهود العرب كلاهما، من عدم الاعتراف بثقافهما؛ فالتعليم هو التعليم اليهودى، والتاريخ هو التاريخ من وجهة نظر أوروبية اشكنازية، وقيم المجتمع الثقافية تعرف الثقافة باعتبار أنها مندلسون وتوماس مان وماريا كالاس ويهودى مينوهين ومارسيل بروست وكافكا، أما أم كلثوم ونجيب محفوظ وبدر شاكر السياب ومحمود سعيد فهذه ليست ثقافة، كما أن ثقافة اليهود العرب هى مجرد فولكلور.[١١]

وبالرغم من محاولة الحاخام القلعى تأسيس صهيونية شرقية مؤسسة على الخلاص الطبيعى الذى يؤدى إلى الخلاص المعجزة[١٢]، إلا أنها ظلت داخل حدود الفكر الدينى الجامد غير المؤثر، وهكذا ظلت الصهوينية عند حدود كونها أيدلوجية يهودية أوروبية.

ولم يشارك اليهود العرب فى حرب ٤٨ ، و لايشاركون فى الاستيطان حالياً.

وقد عاش اليهود العرب مضطهدين فى العالم العربى، ليس لأنهم يهود، ولكن

لأنهم أقلية (وفى بعض الأحيان لمجرد كونهم رعايا)، ولكن ذلك لم يحدث فى كل العالم العربى، حيث إنهم فى مصر والعراق والمغرب كانوا أقل الفئات تعرضاً للاضطهاد، وذلك لأنهم فى أغلب الأحوال عاشوا ضمن صفوة المجتمع الفنية والفكرية والاقتصادية والسياسية، وكان لهم باع طويل فى ترويج الفكر اليسارى، وتأسيس الحركات اليسارية، وكذلك الفكر الليبرالى، وكل الاتجاهات الفكرية التى تحقق المساواة بين الأقليات وبين الأغلبية، وعندما تم تهجيرهم لم يحسوا بسهولة أن إسرائيل وطن له.

وكما سبق توضيحه، فإن الأدب العبرى يمتلئ بالأعمال الأدبية لليهود العرب، وعلى نحو يسبق العالم العربى فى حرية التعبير والمستوى النوعى بالتالى، إذا قورن بأعمال الجيل الثانى والثالث فى مجال الأدب الروائى والقصصى، وهى أعمال ذات موضوعات عربية الذاكرة، يمكن أن تعتبر بعدا حقيقياً للثقافة العربية. وإن كانت فى اللغة العبرية.

وقد عاش اليهود الشرقيون تجربة الأندلس مع العرب، وشاركوا فى النهضة، وكانت اللغة العبرية هى احد اللغات المسيطرة على الثقافة فى الأندلس، وقاموا بترجمة ونشر الفكر والفلسفة اليونانية والأندلسية إلى اللغات اللاتينية، ثم اضطهدوا وطردوا مع العرب من الأندلس، بعد دخول الفرنجة، تحت قيادة فرديناند وايزابيلا. وهذا مشترك ثقافى تاريخى هام.

وبالرغم من وجود ثلاثة وزراء من اليهود العرب فى حكومة الليكود، وبالرغم من تعيين قاض فى المحكمة العليا من عرب ٤٨، وتعيين سفير عربى فى فنلندا، وعدة نواب وزراء، إلا أن التهميش الثقافى مازال يشمل العرب واليهود العرب إلى الآن.

الدروز: يشكل الدروز فى إسرائيل امتداداً عربياً آخر، وعددهم حوالى ٧٥ ألف تقريباً، يضاف إليهم ٢٠ ألف من سكان الجولان رفض أغلبهم حمل الجنسية الإسرائيلية، وعدد الدورز الكلى فى العالم العربى يربو على ٢٥٠ ألف نسمة يتوزعون بين لبنان وسوريا وإسرائيل.

ومنذ إنشاء دولة إسرائيل كانت هناك محاولات مستمرة لتحويلهم إلى أقلية وطنية منفصلة عن العرب، وبالتالى فهم مع البدو يؤدون الخدمة العسكرية، وساهم ذلك

فى تولد صراع بين فكرة انتمائهم إلى العالم العربى و انخراطهم فى دولة إسرائيل. وقاد التيار الأول عائلة طريف على حين قادت عائلة خنيفس التيار الثانى، غير أن الفكرة الأولى انتصرت نسبياً. ونسوق هنا واقعة ذات دلالة؛ إذ أصدرت محكمة حيفا حكماً لصالح الشيخ الدرزى جمال معادى ونجله فؤاد من قرية «يركا» فى شمال إسرائيل؛ إذ حكمت بتدوين كلمة عربى بدلاً من كلمة درزى على هوياتهم، ووثائق رسمية أخرى، وكانت تلك معركة قضائية طويلة قادتها العائلة بدعم من جمعية الحقوق المدنية ضد وزارة الداخلية، وكانت كلمة دروز مسجلة فى أوراق الدروز منذ سنة ١٩٥٧.

ولأن الشىء بالشىء يذكر فإنه كان من المؤسف أن تصدر فى مصر كتابات وأقوال تشكك فى وطنية الدروز ككل، خلال محاكمة عزام عزام فى القاهرة سنة ٩٧. إنه فن صناعة الخصوم، ونسيان أبسط المبادئ الإنسانية، والافتقار للحساسية، وتدنى المعرفة بإبعاد الصراع.

ومن الوقائع التى لها دلالة فى هذا السياق ذلك المشهد الذى قام فيه نتنياهو بزيارة السيدة «شرحة مرعى» الدرزية لتقديم العزاء فى مقتل ابنها العقيد نبيه مرعى، أثناء الاشتباكات مع الفلسطينيين، بسبب فتح نفق القدس فى سبتمبر (أيلول) سنة ٩٦، وأمام وكالات الأنباء واجهته السيدة بأنه السبب فى كل ما حدث، وحملته مسئولية الدم الذى سال من الطرفين، وقالت إنه فتح النفق سراً، ولم يستشر أحد، وإنها حزينة على ابنها وعلى من سقط على الجانبيين.

مفهوم السلام الديموقراطى والمساواة داخل إسرائيل: بالرغم من أن إعلان استقلال دولة إسرائيل واضح لا لبس فيه، فى المساواة بين المواطنين، إلا أنه يوجد تمييز فى المواد القانونية، وتوجد درجات فى الجنسية، وهناك فارق بين الحقوق الجماعية والفردية، وكان تعريف إدارة الإحصاء لتقسيم إسرائيل أن يكون سكان إسرائيل يهود وغير يهود ثم أصبح يهوداً وعرب وآخرون، ونفس الشىء فى قانون العودة والجنسية

والبدو، وقانون علم الدولة، وقوانين التعليم التى تفرض تعلم اللغة العبرية على الجميع ولا تفرض اللغة العربية، وتتطرق إلى التاريخ والتراث اليهودى ذى الطرح الغربى، ولا تتطرق إلى التاريخ والتراث اليهودى الشرقى، ولا التاريخ العربى والإسلامى.

ويشمل التمييز أيضاً اليهود فى قضية المساواة، حيث يتمتع اليهود المتدينون بحقوق أكثر من المواطنين العاديين ومن بينها إعفاؤهم من الخدمة الوطنية والمدنية.

وهكذا يتيح لنا الواقع الثقافى والاجتماعى والقانونى داخل إسرائيل الدليل تلو الدليل، على أنها دولة ومجتمع لايزال قيد البحث. والأمر يحتاج إلى نضال ديموقراطى من أجل السلام والمساواة، كى تتم صياغة هوية إسرائيل على أسس ديموقراطية على المدى الطويل، وطبقاً لغايات غير عنصرية.

ثانياً: إسرائيل ما بعد الصهيونية:

منذ ظهور الحركة الصهيونية بعد سنة ١٨٨١ التحق بها العديد من التيارات الفكرية اليهودية المختلفة، بينها الدينية والعلمانية والماركسية والليبرالية، واتفقت كل تلك التيارات على حد أدنى هو الهجرة والاستيطان، وإنشاء الدولة فى فلسطين، وهكذا شاركت كل التيارات فى أكذوبة وطن بلا شعب لشعب بلا وطن، لكن تلك الأيدلوجيات، بالرغم من الاتفاق على إنشاء دولة إسرائيل، قامت بطرح فلسفات عديدة للحركة الصهيونية، نتج عنها الاختلاف فى كل شىء تقريباً بعد ذلك، ومن هذه الفلسفات الصهيونية السياسية، والصهيونية العملية، والصهيونية الاشتراكية والصهيونية التأليفية، والصهيونية الدينية، والصهيونية العامة، والصهيونية الروحية، وعلى سبيل المثال سمي التيار الذى صاغ فلسفة الصهيونية الروحية بتيار الثقافيين الذى قاده احادهاعام (واحد من الناس) واسمه الأصلى اشر زفى جينز نبرج الذى كان يعارض الصهيونية السياسية، ويدعو للتركيز على الصهيونية الثقافية والروحية. وأن تتحول إسرائيل إلى مركز ثقافى وروحى لليهود[١٤]، وهو من قال: «إذا كانت تلك المعاملة

لشركائنا العرب سينتج عنها أن نحرز السلطة فى أرض إسرائيل فى آخر هذا الزمان، فإذا كان هذا هو المسيح، فإننى لا أرغب فى أن أراه قادماً. وقد ترك هذا التيار بصمات هامة على الساحة الفكرية والسياسية فى إسرائيل، وكان من أتباعه: ناحوم جولدمان وحاييم وايزمان ومارتن بوبر، ويبدو أن ممن تأثروا به موشيه شاريت الذى قام بصياغة مشروع للسلام فى وقت مبكر. كما أوضحنا فى هذه الدراسة.

وبعد إعلان الدولة بدأ التباين بين تلك الفلسفات فى الظهور حثيثاً، حيث أعلن ناحوم جولدمان فى ٣١ مايو (ايار) سنة ١٩٥٤ أنه من واجب الدولة الاندماج فى الشرق الأوسط[١٥]. وفى نفس الفترة نشب صراع سياسى بين حزب الماباى الحاكم، وبين حزب حزم المابام الذى شارك فى الحكم أحياناً، حيث طالب الأخير فى الكنيست بإنهاء الحكم العسكرى للحدود، وطالب بفصم عرى العلاقة مع الحركة الصهيونية، حتى تتدعم الديموقراطية[١٦]، وفى نفس الفترة أيضاً ظهر التناقض بين حاخامات الشرق وحاخامات الاشكناز، بسبب سيطرة الاشكناز على الحياة الدينية فى إسرائيل.

وكما سبق وأوضحنا يمكن القول، دون تجاوز، أن الصهيونية كانت بأسسها العامة وهى الهولوكوست والهجرة والاستيطان والاندماج، هى أيدلوجية اشكنازية.

ومثلما كانت الحرب وسيلة محلية استعملتها بعض الأنظمة العربية لدعم السلطة المركزية وتبرير احتواء وتصفية الخصوم السياسيين، والاستمرار فى الحكم، أو تبرير الاستيلاء عليه من قبل عصابات عسكرية وسياسية؛ قامت الصهيونية السياسية على نفس المنوال باستعمال الخطر الخارجى الذى شكلته الحرب، وتم توظيفه فى فرض الفكر الصهيونى وسوسيولوجيا الهولوكوست، وتبرير التوسع، واللجوء إلى شرعية السيف، ونتج عن ذلك سيطرة السياسيين والعسكريين على مقدرات الدولة والانفراد بالقيادة، وكان ذلك أيضاً سبباً مباشراً فى اختفاء الروح الفردية، وبالتالى الصوت الفكرى الثقافى والنقدى، وبعد الانتصار الساحق فى سنة ١٩٦٧ بدأ اليمين الدينى

فى التنامى رغبة فى تبرير التوسع والمشاركة فى صياغة الدولة، وترك ذلك عدد من ردود الأفعال. غير أنه بعد حرب أكتوبر (تشرين أول) سنة ٧٣ والشروع فى التسويات السياسية مع العرب، بدأ التباين العام فى الظهور، وبدأ دور المثقفين يتعزز فى الحياة العامة فى إسرائيل، وبدأت وجهات النظر، النقدية فى الظهور، وبدا وكأن الساحة الإسرائيلية تتشكل من جديد. ويسترعى النظر منذ تلك الفترة أى بين سنة ٦٧، وبين بداية التسويات السياسية فى نهاية السبعينيات، وإلى الآن ظاهرة التحولات الفكرية فى القيادات السياسية والعسكرية، من معسكر الحرب، إلى معسكر المطالبين بالسلام. وقد يكون هناك مبرر للتحولات المبكرة -كما أسلفنا- لكل من موشيه شاريت وناحوم جولد مان وحاييم وايزمان باعتبارهم ينتمون إلى تيار جذرى التوجه إلى المشروع الواسع للتعاون فى الشرق الأوسط كله، ولكن التحولات التى أعنيها، والأكثر جذباً للملاحظة هى تلك التى تشمل شخصيات من الحرس القديم فى معسكر الحرب، مثل ديفيد بن جوريون الذى اعترض على الاحتفاظ بالأراضى التى استولت عليها إسرائيل فى حرب سنة ٦٧، وقد قاطعه زملاؤه فى حزب العمل، ومات فى شبه عزلة فى مستوطنة «سد بوكر» فى سنه ٧٣، وتحوى القائمة أسماء مثل: ايجال يادين قائد الهاجاناه، ثم عزرا فايتسمان رئيس الدولة الحالى، ومؤسس حزب حيروت اليمينى وقائد سلاح الطيران سابقاً، جنرال موردخاى جور القائد السابق لسلاح الطيران، والذى زار الفلسطينيين فى تونس، برغم القانون الذى يمنع ذلك، ويورى افنيرى عضو الهاجاناه، ثم رئيس تحرير الجيروز اليم بوست، والذى زار عرفات تحت الحصار فى بيروت، وجنرال ماتيتاهو بيليد الذى تعلم اللغة العربية حتى مستوى الترجمة لرواية من تأليف حليم بركات، وقام بالمشاركة فى تأسيس القائمة اليهودية العربية للمساواة والسلام، وكذلك جنرال موردخاى باراون الرئيس الحالى لحركة السلام الآن، وابراهام بورج رئيس المنظمة الصهيونية العالمية الحالى، وعضو الكنيست السابق عن حزب العمل، والذى قال فى المؤتمر الذى عقد فى بازل فى ٢٩ أغسطس (آب) سنة ٩٧ بمناسبة مرور مئة عام على الصهيونية: «إن الفكرة التى تحدثت عن مجىء الصهاينة

الأوائل إلى أرض بلا شعب كانت خاطئة، لأنها لم تكن أرضاً خالية، ونجم عن ذلك بعض المظاهر السلبية جداً».

وقد أخذت التحولات تنويعات أخرى «عائلية» مثل زوجة رئيس الأركان فى جيش الدفاع حتى منتصف العام سنة ٩٨ وهو جنرال آمنون شاحاك، وهى صحفية ومن العناصر النشطة فى حركة السلام الآن، وكذلك الروائية يائيل دايان ابنة موشية دايان المناصرة القوية للسلام، والموقعة على إعلان كوبنهاجن، وليارابين أرملة إسحاق رابين، التى اتهمت نتنياهو بالمشاركة فى التمهيد لقتل زوجها، وأعلنت عند نجاح نتنياهو: «إنها تشعر أن عليها أن تجهز حقائبها وتغادر إسرائيل»، وكذلك يوفال رابين، ابنها، الذى أسس حركة للسلام تحت اسم «دور شالوم» أو «جيل كامل من أجل السلام».

وتقديم بعض التفسيرات لتلك التحولات على ما أعتقد أنه عوامل جزئية؛ فمن قال إنها بسبب الانتصارات الساحقة على العرب وزوال الخطر على إسرائيل بالتالى، ومن قال إنه نتيجة رسوخ الدولة وقوتها، والبعض يقول إنهم يتحولون إلى معسكر السلام بعد ترك وظائفهم، وهذا مردود عليه، إذ أنه فى دولة كإسرائيل لا ينتهى دور الفرد بترك وظيفته، إذ أن دوره فى الحياة الحزبية يستمر دون توقف؛ كما أن عزرا فايتسمان مازال يشغل وظيفة رئيس الدولة، ويشتبك فى صراع سياسى مع نتنياهو، حتى إنه وصفه بالمخادع والمعادى للسلام، كما أن رابين اغتيل وهو رئيس للحكومة، وقد قال يوماً: «أنه لن يفرط فى أمن ٩٨٪ من سكان إسرائيل من أجل ٢٪» وكان يقصد المستوطنين. كما أن البيانات التى يوقعها جنرالات عديدون مازالوا فى الخدمة، ومنهم الكولونيل الذى أعلن فى مؤتمر صحفى خلال غزو لبنان فى سنة ٨٢: «إنها حرب قذرة، وإنه يرفض الاشتراك فيها».

إن كل ما سبق يثبت أنها تحولات عميقة، وتحتاج إلى تفسيرات أكثر شمولاً وعمقاً، كى تكون مقنعة، نظراً لأهمية هذا العنصر وأهمية تفسيره.

وفى اعتقادى أن سياق تلك التحولات لا ينفصل عن سياق تنامى دور المثقفين، وتشكل العديد من التيارات النقدية، ولا عن سياق إثارة التساؤلات عن ما بعد الصهيونية؟ وما بعد الحداثة؟ وتأثير المتغيرات فى الدور الأمريكى على إسرائيل؟ وهل إسرائيل دولة يهودية؟ أم دولة كل اليهود؟ وهل هى دولة قومية يهودية؟ أم هى مركز روحى وثقافى لليهود؟ أم هى دولة لكل رعاياها؟ وقبل طرح تلك التساؤلات هناك تساؤلات أقدم عن .. من هو اليهودى؟ وما هى حدود الدولة؟ وإمكانية وضع دستور من عدمه؟

إن مجرد طرح هذه الأسئلة يعبر عن مأزق وجودى، إن تلك الحيرة لايمكن أن تكون لدولة طبيعية، إن الوطن دائماً يوجد أولاً ثم يصبح دولة من أى نوع، ولكن فى حالة إسرائيل، وجدت مؤسسات الدولة وإرادة الاجتماع فى الخارج، ثم قامت الدولة والإرادة بإنشاء الوطن، وكانت الصهيونية هى عنصر الربط بين مؤسسات الدولة والدياسبورا، وعندما تأسست الدولة لم تكن الصهيونية وحدها هى التى أقامت إسرائيل بل ساعد فى ذلك العديد من الظروف الموضوعية؛ إذ لم تكن الصهيونية أبداً عقيدة الأغلبية، وكانت على الدوام عقيدة الأقلية، وقد أصبحت أشبه بقوقع غادره ساكنوه، أى أصبحت خارج الخدمة، ولكنها مازالت قائمة وموحية للبعض إلى حد ما.

ومنذ ذلك الحين أصيبت إسرائيل بالفصام، فهى من جانب دولة رسالية أو دولة/ وظيفية، ومن جانب آخر هى مجتمع متأمرك يتمثل الولايات المتحدة فى كل قيمه. إن الصهيونية تساهم فى استمرار هذا المأزق، وكلما ازدادت قوة فئة فى إسرائيل، كلما حاولت أن تسبغ الدولة المهمة التى تراها، إن هنالك صراعاً على شغل ذلك الفراغ أى مهمة الدولة، ولا توجد دولة فى العالم باستثناء إسرائيل تتغير التصورات لوظائفها، وتتلون بهذا الطيف كله، إن الدول لها وظائف عديدة محددة بحدود الوطن، ومن هنا تنشأ كل مسئولياتها، وسبب تلك الأزمة هى الأيدلوجيا، ولأن الأيدلوجيا ماتت بالفراغ، بالرغم من كونها مازالت قائمة كالقوقع، فإن الورثة كثيرون، وهم من

الطموحين لإعادة الرونق والحياة لتلك القوقعة الجافة الفارغة.

إن التحولات الحادة فى جيل المؤسسين لدولة إسرائيل من الإيمان بالحرب إلى صناعة السلام، وتحبيذ الحل السلمى فى اسوأ الأحوال، يدل على أن الحرس القديم كان يعرف ذلك المأزق، ووصلوا إلى اقتناع أن حل مشكلة إسرائيل تلك ومعها مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى لن تحل بالحرب، وإنه طالما هناك تفاوت حضارى مع المحيط العربى، فإن التناقض السياسى سوف يتزايد، وعليه فإن على إسرائيل الانخراط فى المنطقة من أجل تطويرها، وتقليل التناقض معها، بعد التسوية الجغرافية، وأن على إسرائيل أن تكف عن البحث عن مهام مقدسة، فالبحث عن مهمة مقدسة يساوى البحث عن جريمة، وليس ذلك هو الخطر بحد ذاته، ولكنه يؤدى إلى وقوع إسرائيل فى أيدى معادية للسمة الغربية والحديثة فى نظام الدولة.

وعلى الجانب المقابل يقف أنصار التوسع والعنصرية؛ أولئك الذين يصطنعون مهمة ألهية لإسرائيل، وكى تصبح للهلاوس قوة الحقيقة لابد من تكريس العزلة، وتوهم القوة الإيمانية، إنهم القتلة والعنصريون الجدد الذين أسندوا لأنفسهم وَهْم الدفاع عن الله، إن ضحايا هؤلاء ليسوا فقط العرب واليهود الشرقيين من مواطنى إسرائيل والأراضى المحتلة؛ بل إن ضحاياهم أيضاً أنصار السلام والديموقراطية العلمانيين، وهم فاشيون بدون قضية، فهم أبناء بروكلين، ومهاجرون إلى الاستيطان المكيف، ولا علاقة لهم بالهولوكوست ولابااللاسامية، إنهم مهووسون فحسب، وهم لن ينتجوا سوى كاهانا وليفنجر وجولد شتاين وفريدمان وبنحاس فالرستين* واهارون دومب** ورحبعام رئيفى، *** إنهم قلة، ولكن الانتهازية السياسية لأشخاص طموحين إلى تجديد الصهيونية وبعثها إلى الحياة من أمثال نتنياهو الذى سمى نفسه بنيامين صهيون نتنياهو(١٧). ويتحدث عن الارتباط الروحى بالحجارة(١٨)، وبالتحالف

* رئيس مجلس المستوطنين.

** سكرتير مجلس المستوطنين.

*** زعيم حزب موليدت اليمينى المتطرف وجنرال سابق فى الجيش.

الموضوعى الغير مباشر مع الفاشية العربية – القومية والدينية– تجعل لهم فاعلية قوية. إن ذلك الصراع الداخلى فى جانبه المجرد بين أنصار سلام القهر الأقرب إلى الحرب والعزلة وانصار الامتزاج، والمسافة بينهما شاسعة، وتحتمل وجود كتلة كبيرة متذبذبة بين المفهومين.

وإذا كان ذلك شبه استعراض لساحة الفكر السياسى، فى ظل مفهوم السلام، فقد سبق استعراض محدود للساحة الثقافية والإبداعية فى البند الرابع من الفصل الثالث (أزمة الرأى السائد)، وهو ما يتيح لنا الوصول إلى نقطة بداية لتصنيف القوى السياسية والثقافية فى إسرائيل من منظور السلام الشامل والتعاون، وهى كالآتى:

أولا: مشروع اليمين القومى والدينى.

ثانيا: قوى الحل السلمى.

ثالثا: أنصار السلام.

أولاً: مشروع اليمين القومى والدينى:

وهو التحالف الحاكم منذ منتصف سنة ٩٦ تحت قيادة بنيامين نتنياهو وكتلة الليكود، وهو ما يعتبر مرحلة جديدة فى الصراع العربى الإسرائيلى، حيث يقوم هذا التحالف بإعادة طرح للصراع تحت شعار كودى مزدوج – سبق تفسيره – هو الأمن مقابل السلام، متضمناً جرد حساب المراحل السابقة ومحاولة لتجديد الصهيونية، وذلك فى ظل تغيرات دولية جذرية، وتغيرات إقليمية متعددة، شملت العلاقات العربية الإسرائيلية، وتغيرات نوعية على الساحة الإسرائيلية، بالإضافة إلى زيادة التباين بين قدرات الأطراف لصالح إسرائيل وفى كل جوانب الصراع بما فيها الجوانب الحضارية، وهو ما يفرض تغييرات جذرية فى وسائل الصراع فلا توجد بوادر تشير إلى قدرة الأطراف العربية الرسمية على الأخذ بها.

ويعتمد هذا التحالف على قاعدة انتخابية مشكلة من الفقراء واليهود الشرقيين

والروس والمستوطنين، وجزء يسير من الأقلية العربية، وقسم من الأصوات المتذبذبة المهمومة بالأمن، ويعتمد هذا التحالف على مساندة قوية من قوى الضغط اليهودية فى أمريكا.

وقد استفاد التحالف الحاكم فى معركته الانتخابية من تصرفات القوى العربية ذات الطرح الدينى الراديكالى، وهو مايمكننا من تلمس المشترك الموضوعى بين أهداف الأيدلوجيين العرب و أهداف نظرائهم فى معسكر الصهيونية الجديدة.

ومشروع اليمين الحاكم هو مشروع توسع عنصرى، يمكن أن يلجأ إلى رفع حدة الصراع، حتى لو أدى ذلك إلى الحرب. ومفهوم السلام بالنسبة لهذا المعسكر هو سلام السيطرة، وعلاقة حافة الهاوية، وما شرحة نتنياهو بوضوح فى كتابه: «مكان بين الأمم»، وقد نجح فى إيقاف المسيرة السلمية، وجعل مفهوم السلام يتآكل بعدة وسائل من بينها إثارة قضية الديموقراطية فى العالم العربى، وربطها بقضية الإرهاب إن هذا التحالف هو خير دليل على التحول التراجيدى لبعض اليهود من ضحايا إلى طغاة، دون المرور بمرحلة العدالة والمساواة، وهو ما يحدث فى التاريخ عندما يحمل المجنى عليه سمات جلاده.

ويعمل هذا المعسكر على زيادة عزلة إسرائيل عن جيرانها، ويرى أن إسرائيل قد صنعت قوتها الروحية والاستراتيجية، ونالت مكانتها فى العالم، وهى فى عزلة عن العرب، وأن الانفتاح عليهم سيتسبب فى ضعف إسرائيل، حيث ستضطر إلى التنازل عن أراضٍ هامة لأمنها ومواردها ومستقبلها السكانى. كما أن الانفتاح الاقتصادى على العرب سينتج عنه تحول صناعة إسرائيل من الصناعة العلمية إلى الصناعة التجارية، حيث إن صناعتها العلمية ليست مما يستهلكه العرب أو ينتجونه، وهى صناعة مربحة ومستقبلية، لا يستهلكها إلا من ينتجها، وترتكز على المعلومات والاتصالات، وتعتبر الصين والهند وأوروبا أهم عملاء إسرائيل فى هذا المجال، ولذلك تحدث نتنياهو عن السلام «الفاتر»، ولم يبد اهتماماً بما سمى عملية التطبيع، إنه مندوب بالمبيعات السابق

الذى لايعرف سوى الولاء العملى لبضاعته[١٤].

ولاشك أن لتلك السياسة نتائج سلبية قصيرة ومتوسطة المدى، من أهمها على الساحة الإسرائيلية زيادة الثنائيات الصراعية داخل المجتمع، وخاصة بين المتدينين والعلمانيين، نتيجة تزايد الامتيازات للمتدينين الأرثوزوكس، ومن أهم تلك النتائج على الساحة الخارجية زيادة مشاركة القوى الإقليمية مثل إيران فى الصراع، وتقليل شروط الأنظمة العربية للتعاون مع تلك القوى، وليس حزب الله وأوضاع الجنوب اللبنانى سوى حالة تجريبية لذلك، يمكن أن يتسع مستقبلا، وهو ماينذر بزيادة تعقيد أوضاع المنطقة المعقدة أصلاً بما فيه الكفاية. وعود على بدء تصبح أحد النتائج المباشرة لتلك الأوضاع تقديم تكأة جديدة/ قديمة للتأجيل المطول لقضية الديموقواطية والتنمية، وحقوق الإنسان فى الساحة العربية، وتزايد الاحتقان السياسى والاجتماعى بالتالى، مما ينتج عنه الزج بالمنطقة إلى الفوضى والإرهاب.

والحوار مع هذا المعسكر شبه مستحيل، وإن كان من الممكن أن يتم مع بعض القوى فى هذا التكتل، ممن يوافق على الانسحاب من الأراضى العربية، مثل حزب شاس الدينى، وحزب جيشر اليمنى، كما أن بعض الوزراء يوافق على الانسحاب، واستئناف مسيرة السلام، مثل إسحاق موردخاى وزير الدفاع، وهو من أصل عراقى كردى.

ثانياً: قوى الحل السلمى:

هذه القوى تعمل تحت قيادة حزب العمل المعارض، وتحت قيادة شيمون بيريز سابقاً، وايهود باراك حالياً، وينضوى تحت لواء هذا المعسكر بعض أحزاب اليسار وبعض الكتل العربية والهستدروت، وفى بعض الأحيان يجتذب أحزاباً دينية مثل «شاس»، وقاعدته الانتخابية عمالية ومن سكان الكيبوتزات وبعض رجال الأعمال والصناعة، والقسم الأكبر من السكان العرب، والقسم الأكبر من سكان المدن من الاشكيناز، ويوجد بعض التنسيق بين هذه القوى قوى، السلام.

وحزب العمل هو القوة السياسية الرئيسية التى قامت بإنشاء إسرائيل، وحكمت حكماً مستمراً حتى منتصف السبعينيات، وهذا المعسكر لا يرفض المكاسب «السهلة» من العالم العربى، ويقوم بالاستيطان الهادئ، ولكنه يدرك فى نفس الوقت مأزق الدولة القومية فى ظل العولمة، والتداخل الثقافى، وتآكل الجغرافيا التقليدية والسياسية، وتشكل الجغرافيا الاقتصادية، ولذلك فهو أول من ردد فكرة ما بعد الصهيونية، وبالرغم من ذلك، تظل تلك المفاهيم غير قادرة -حتى الآن- على بلورة طرح سياسى، يرجح كفتها على كفة اليمين فى الساحة الإسرائيلية، وتظل أقرب إلى الفلسفة السياسية، منها إلى العمل السياسى الشعبى.

ومفهوم السلام لدى هذا المعسكر يعبر عن نفسه فى فكرة الشرق أوسطية، ومبدعها هو شيمون بيريز حكيم هذا المعسكر، وشرحها بوضوح فى كتابه «الشرق الأوسط الجديد»، حيث يعتقد أن حل التناقضات السياسية مع العرب بواسطة نمو قاعدة المصالح، وزيادة قوة قاعدة التعاون والتطور الاقتصادى، ويشبه العلاقة بين إسرائيل والعرب بالعلاقة بين الحلفاء وألمانيا بعد الحرب الثانية. وهو يعتقد أن السلام يمكن أن يساعد على التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى العالم العربى (قبل أن يساعد على تنمية الديموقراطية)[٢٠]. وهو يشارك الحكومات العربية منحى تأجيل الديموقراطية على هذا الأساس، ويتمتع هذا المشروع بدعم أمريكى وأوروبى واسع، كما أن بعض الدوائر العربية لم تخف قبولها لهذه الفكرة، ويثبت ذلك من المشاركة العربية الواسعة فى المؤتمرات الاقتصادية فى المغرب وعمان والقاهرة. وفى اعتقادى أن الأزمة الآسيوية فى دول شرق آسيا تهدم نظرية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى تسبق التنمية السياسية من جذورها، وتثبت أنها نظرية عفا عليها الزمن.

والحوار مع قوى الحل السلمى هو حوار أساسى، بالرغم من ضياع هذه الفرصة أثناء وجوده فى الحكم، حيث كان الحوار معه يعنى التأثير فى أكثر من نصف الكتلة الانتخابية فى إسرائيل.

ثالثاً: انصار السلام:

وهم من يوافقون على عودة كافة الأراضى العربية المحتلة، وعلى إقامة الدولة الفلسطينية، وأن تظل القدس عاصمة لشعبين، والأغلبية منهم توافق على أن تصبح عاصمة لبلدين.

وهم اقرب إلى أن يكونوا قوة أخلاقية سياسية داخلية، ويأتى فى صدارتها حركة السلام الآن (شالوم عخشاف)، وجناح اليسار فى حزب العمل، وحزب ميريتس (نشاط) وحداش، والأحزاب العربية، ومعهم ما لايقل عن ٢٧ حركة سلام مثل الجماعة النسائية «الإنسان رفيق الإنسان» التى أسستها السيدة/ نزهة قصاب عضو الكنيست سابقاً فى سنة ١٩٨٧ من اليهوديات العربيات وتتمتع برعاية رئيس الدولة عزرا فايتسمان، وتنظيم «نسوة متشحات بالسواد»، و «الأمهات الأربع» التى أسستها السيدة/ راحيل بن دور ومعها الصحفى شاؤول صدقة، و«كفى للاحتلال» و «أمهات ضد الصمت» و «جيل كامل من أجل السلام»، ولجان الحوار اليهودى / العربى، وجمعية الصداقة البرلمانية مع المجلس التشريعى الفلسطينى التى دعا إليها ديدى تسوكر من ميريتس فى يونيو (حزيران) سنة ٩٦ أى بعد نجاح نتنياهو، وجماعة «بتسليم» لحقوق الإنسان وغيرهم كثيرون.

وهذه التنظيمات والحركات والأحزاب مجتمعة، لها تأثيرها القوى حتى إنهم حشدوا ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص لإحياء ذكرى رابين فى نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ٩٧، وفى نفس الميدان الذى حدث فيه الاغتيال، ولكن هذه القوى لايجمعها إطار محدد باستثناء مبادئ السلام والمساواة.

وأعتقد أن انفتاح قوى السلام والديموقراطية فى العالم العربى على هذه القوى، يزيد من قوتها، ويؤسس إطاراً واتفاقاً للحد الأدنى فيما بينها.

ومن الضرورى ذكر أن حركة السلام الآن كانت أقوى بكثير منذ غزو لبنان سنة

٨٢ وإلى وقت قريب، حيث إن الضعف قد اعتراها نتيجة عدم دعم العرب لها، ونتيجة اقتصارها على عضوية الاشكناز، واتخاذهم موقفاً اتسم بالتردد أمام الانتفاضة، وأعتقد أن التنسيق والتعاون معها سيعيد إليها بعض القوة.

ويجب أن أوضح أن تعبير القوة الأخلاقية السياسية هو التعبير المناسب -فى اعتقادى- حيث إن الشخصيات العلمية، والمبدعة، والقانونية تلعب دوراً كبيراً فى حيوية هذا المعسكر من أمثال: البروفيسورات إسرائيل شاحاك وليبوفيتش شراشفسكى والصحفيون امنون كابيلوك* الذى كتب تحقيقاً صحفياً جريئاً عن مجزرة صبرا وشاتيلا، وكتاباً تحليليا هاماً عن اغتيال رابين، وأورى افنيرى عضو الكنيست السابق ورئيس تحرير«هاعولام هازيه» (هذا العالم» سابقاً ومؤسس «كتلة السلام»، والروائيون عاموس عوز الذى قال عن المستوطنين: «إنهم حزب الله يهودى»[٢١]. واليف بيت يهو شواع، وديفيد جروسمان، وعاموس كينان، ومئير شاليف، وشولاميت هارايفن، وسامى ميخائيل، وسمير نقاش، ويورام كانيوك، والشعراء ناتان زاخ، وروني سوميخ، والمحاميتان فاليسا لا نجر التى قيل عنها محامية المقاومة، والمحامية الثانية لياتسيميل تلك الجميلة التى قيل عنها محامية الانتفاضة، والجنرال ماتى بيليد (سبق تعريفه)، د. يوسى اميتاى (حائز على رسالة الدكتوراه فى تاريخ اليسار المصرى)، والصحفيون اهارون بارنيير ويورام بينور (القناة الثانية فى التليفزيون الإسرائيلى) ومناحم هدار مخرج فيلم عرب ٤٨، وبوعز عفرون مؤلف كتاب الحساب القومى (كان فى السابق من أعضاء عصابة ليحى)، والمغنى افيف جيفن الذى غنى من أجل السلام فى الاحتفال الذى اغتيل فيه رابين، وكذلك فى إحياء ذكراه، والمغنية حافا البرشتاين التى غنت لأطفال الحجارة، والمصورة فاردا بولاك، وداليا لانداو (عرضت على الأسرة الفلسطينية المالكة الأصلية للمنزل الذى تقيم فيه وهى عائلة فانوس أن تعود إلى منزلها أو إقامة مشروع لخدمة الأطفال العرب) وسالى ريشف أحد مؤسسى حركة السلام الآن، والمناضلة تكفاليفى، والمخرجة السينمائية سيمون بيتون من جماعة الماتزين التى دبرت الحوار

* والده هو من ترجم كتاب الايام لطه حسين إلى اللغة العبرية اربعينيات فى هذا القرن، وكانت الترجمة تبصرف.

الفلسطينى الإسرائيلى السرى، قبل وبعد غزو لبنان سنة ٨٢ وشارلى بيتون مؤسس حركة ٨٥، وشلومو الباز مؤسس جماعة الشرق من أجل السلام، وشهيد السلام إميل جرينز فايج الذى اغتالته حركة كاخ بقنبلة فى سنة ٨٣ أثناء مظاهرة أمام منزل بيجين، احتجاجاً على احتلال جنوب لبنان)، وكذلك بعض الأكاديميين من أعضاء جماعة المؤرخين الجدد من أمثال توم سيجف وبنى موريس وافى شلايم، والبروفيسور ساسون، سوميخ، وايمانويل ماركس، وشمعون شامير، والصحفية رونيت بركوفيتش (أعدت سلسلة أفلام تسجيلية تليفزيونية بمناسبة مرور خمسين سنة على إنشاء إسرائيل، حاولت فيها ذكر الحقائق، وتلقت عدة تهديدات بالقتل) والشاعر موريس شماس المصرى الأصل وعضو حركة السلام الآن (كتب قصائد شعر فى عبد الوهاب وداوود حسنى وصبرا وشاتيلا والانتفاضة واميل جرانز فيج وأنور السادات) ولطيف دورى (مؤسس حركة الحوار الإسرائيلى / الفلسطينى).

إن هؤلاء الذين ذكرتهم على سبيل المثال، وغيرهم من الرموز لهم قوة لا تحسب بعدد كراسى الكنيست، لأنها بمثابة قوة الضمير الأخلاقى الثقافى السياسى فى المجتمع الإسرائيلى، وإذا أضفنا إليهم قاعدة واسعة من اليهود العرب، الذين يمكن اعتبارهم امتداداً عربياً داخل إسرائيل مثلما كانوا امتدادا يهودياً داخل العالم العربى)، وكذلك عرب إسرائيل، ومنهم الدروز ومعهم الشركس والأرمن والتركمان والسريان والسامريين، ذوى الثقافة الشرقية، إذا أضفنا كل هؤلاء يتبين لنا أن الخريطة الثقافية هى خريطة مختلفة عن الخريطة الجغراسياسية، لاتقل فاعلية عنها، إن لم تزد، بشرط أن يتم الحوار على هذا الأساس، وبغرض الوصول إلى تسوية ثقافية تاريخية تقلل من التناقص السياسى، وتزيد من فرص السلام الديموقراطى العادل والشامل.

□□□

الفصل الخامس

نقد إعلان كوبنهاجن

ربما يكون من التكرار أن أذكر أننى وافقت على إعلان كوبنهاجن من حيث المبدأ، وأعرف أن أحد عيوب العمل الفكرى والسياسى فى بلادنا أنه يعانى من معاول هدم التراكم بصفة دائمة، وباسم المثاليات، ولحساب المجرد أو المطلق، والبدء دائماً من الصفر، وبالتالى إعادة تكرار الأخطاء. هذا بالإضافة إلى عيوب أخرى لا مجال هنا لاستعراضها.

وعليه أوضح أن محاولتى النقدية لإعلان كوبنهاجن، هى من باب الحرص على الاستفادة من نتائجه، والبناء عليها من أجل إعلاء مبدأ الحوار والسلام الديموقراطى، وحتى يتوفر لنا المصل المضاد لتلك السلبيات مستقبلاً، والتى يبدو أننا سنعانى منها طويلاً.

☐ وفى اعتقادى أنه بالرغم من أن أغلب سجال خصوم وأنصار الإعلان قد انصب على مضمون الإعلان، فإنه أقل عناصر الإعلان أهمية؛ حيث إنه مجرد صيغ عامة يمكن تعديلها أو الإضافة إليها بل إلغاؤها، وهى فى كل الأحوال غير ملزمة قانونياً وليست لها آلية تنفيذ، أو وسيلة واضحة فى محاسبة الأطراف عند الخروج عليها.

☐ إن الحجة التى ساقها البعض عن أن الإعلان شكل عقبة أمام المفاوض العربى حجة واهية، بدليل موافقة ياسر عرفات وعمرو موسى الفورية والمساندة ليلة التوقيع على الإعلان، وموافقة د. رضا شحاته سفير مصر فى روسيا فى حوار أجراه معه أحمد نافع فى جريدة الأهرام.

ثم تصريح الرئيس مبارك الذى حمل مواقفة واضحة فى عيد الإعلاميين فى ٣١ مايو (آيار) سنة ٩٧.

☐ تكمن أهمية الإعلان - كما سبق وأوضحت فى مقدمة الدراسة - فى كونه عملاً فكريا وسياسياً بلور الرأى الآخر فى قضية الحوار مع الساحة الإسرائيلية، ولهذا السبب نتجت عنه أهم إيجابياته، وهى الفرز الذى نتج عنه، ولهذا السبب أيضاً استحقت المجموعة التحية، لأنهم طرقوا أرضاً جديدة فى الصراع ذات إمكانيات بكر، ولم يطرقها أحد قبلهم سوى الفلسطينيين (بحكم واقع الحال)، وبذلك «علقوا الجرس» بشجاعة وبرغم المخاطر، وهى كثيرة ومؤلمة فى ساحة تتسم بالخشونة والعنف، واستعمال أية أسلحة، دون أن تأبه بحدود الأخلاق والذوق والقانون.

☐ **وإذا كان ثمة سلبيات من وجهة نظرى فهى:**

١ - لم تبدأ المجموعة أثناء إعلانها المبادرة، وأثناء دفاعها، عنها أية استفادة، أو تأصيل لهذا الاتجاه من أدبيات وتاريخ أنصار السلام فى مصر والعالم العربى، منذ بداية الصراع.

٢ - لم تكن للمجموعة رؤية نقدية متكاملة لطريقة إدارة الصراع - إلا فيما ندر- لخمسة عقود، وفى ظنى أن ذلك كان من الصعوبة بمكان إذ أنه جزء من محنة الرأى الآخر، ومع ذلك فقد ساهم فى نقص الحجة، وقد انصب النقد الذى وجهوه إلى حجج خصومهم، وهذا طبيعى، ولكنه غير كاف.

٣ - إذا كان الفرز هو أهم إيجابيات ونتائج المبادرة، فإنه يُفضى إلى أحد سلبياتها، حيث إن الفرز نتج بعد المبادرة، وبالتالى كان على مجموعة الإعلان أن تتنبأ بذلك، وتعمل على إحداث الفرز قبل الإعلان بالحوار حول المبادرة ككل، مع الساحة المصرية ثم العربية، وخاصة أنه قد حدث حوار طويل على صفحات الأهرام، وفى صفحة الحوار القومى تحديداً، ولكن حول الأفكار وليس حول المبادئ والإجراءات، وكان ذلك كفيلاً بتأسيس تيار وإطار لأنصار السلام قبل الولوج إلى

المبادرة، وكان ذلك كفيلاً بأن يقلب النتائج رأساً على عقب، وخاصة أنه لم يكن لهم إطار محدد يتحركون باسمه، ولم تزد صفتهم عن كونهم مجموعة من المثقفين من أنصار السلام، بعكس الوفد الإسرائيلى الذى كان يمثل أطراً واضحة وقوى راسخة، أعرف أن ذلك أيضاً جزء من أزمة العمل المدنى فى مصر وصعوبة بناء مؤسسات المجتمع المدنى، ولكنه ساهم فى إضعاف موقف مجموعة الإعلان.

٤ - تقود الملاحظة السابقة إلى سؤال حرج : لماذا انحصرت عمليات التحضير للإعلان من اتصالات ومحادثات وحتى الأسبوع الأخير قبل الإعلان فى ٣٠ يناير (كانون ثانى) سنة ٩٧ فى داخل مؤسسة الأهرام؟

هل نتج ذلك عن عدم الثقة فى وجود تيار من أنصار السلام بين المصريين؟ بالتأكيد كانت المجموعة تثق فى وجود هذا التيار، والدليل هوموافقة بعض من سافروا فى اللحظات الأخيرة، ومن خارج الأهرام.

ومن الغريب ان انحصار التحضير فى داخل مؤسسة الأهرام، كان السبب فى ارتفاع أصوات احتجاج مبكرة فى صفحات الأهرام[٢٢]. وقبل التوقيع على الإعلان، وبعض الأصوات كانت لأسباب أيدلوجية، ولكن بعضها الآخر أخذ شكل تصفية الحسابات، ومنها ما كان الدافع إليه هو الغيرة المهنية، أى أن الداء كان فى زجاجة الدواء.

٥ - وما سبق يفضى إلى سؤال أكثر حرجاً، هو: هل كان عدم مخاطبة التيار الأوسع المناصر للحوار وللسلام فى الساحة المصرية من شروط القيام بالمبادرة؟

فى اعتقادى أن هذا وارد، وهذا يعنى أن مجموعة الإعلان قد خضعت لضغوط حكومية حتى لا تفتح باب الحوار على مصراعيه (ولوحدث ذلك لكانت فيه قوتها الحقيقية، كما دلت عليها عملية الفرز) ولسبب مهم أن تاريخ السلطة فى مصر منذ انقلاب يوليو (تموز) سنة ٥٢ وحتى الآن، هو تاريخ احتواء وتحجيم الرأى الآخر،

ولذلك شكلت الدعوة التى وجهتها وزارة الخارجية الدانماركية مأزقاً للحكومة المصرية، إذ أنه لايمكن لها أن ترفض دعوة لتأسيس إطار سلام شعبى بين العرب وإسرائيل، وفى نفس الوقت، ولأسباب معروفة، لايمكن أن تقبل، وتم حل المأزق بحل بيروقراطى، بحصر العملية داخل مؤسسة عامة شبه حكومية، وبذلك تحل السلطة (أو هكذا تخيلت) مأزقها الصغير ومأزقها الأكبر، وهو الازدواج الذى شكلته الدعوة بجوار موافقتها على طروحات مثقفيها الرسميين حول التطبيع التى سبق مناقشتها على صفحات هذه الدراسة، كما أن الإعلان وبشكله الذى تم به جعل الحكومة المصرية تتخيل أنه طريق ذو اتجاه واحد، يمكنها تحويله إلى ورقة ضغط على نتنياهو داخل إسرائيل، دون أن يكون لها أى آثار جانبية، أو تناقض مع مفهومها للسلام،وبذلك جاء الحل هكذا للحصول على العنب دون قتل الناطور.

٦ – مازال مفهوم السلام والحوار مفاهيم غامضة وغير محددة، وكان المفروض على مجموعة الإعلان أن تجلى مفهوم الحوار إلا أنها زادته غموضاً، وكما لم تتشكل كتيار فى الداخل، أخطأت أيضاً فى فجائية تعاملها مع الساحة الإسرائيلية، إذ أن ماحدث هو الاتصال مع جبهة عريضة، وطبقاً لأفكار الخارجية الدانماركية ومستشاريها، كذلك كانت الشخصية الإسرائيلية التى قامت بإدارة الاتصالات شخصية غير معروفة بانتمائها إلى معسكر السلام الإسرائيلى، وهو ديفيد كمحى، وهذا ما جعل الإعلان يبدو وكأنه التفاف حول قوى السلام واليسار الإسرائيلى، وهذا ما سبب اعتراض بعضهم على ذلك الإعلان؛ وكان من المفروض فرز القوى الإسرائيلية بين أنصار التوسع والعنصرية، وأنصار الحل السياسى، وأنصار السلام، وصناعة رأس جسر مع القوى الثالثة للحوار مع القوة الثانية من أجل حصار القوة الأولى، كما يقال فى المثل الأوروبى.

غير أنه بالرغم من كل ما سبق؛ ونتيجة ثقتى فى مجموعة الإعلان، أثق أن الأمر سيخرج عن دائرة الاحتواء والتحجيم آجلا أو عاجلاً، لأن تلك هى طبيعة الأشياء،

هذا إذا كان تيار أنصار السلام الديموقراطى تيارا حقيقيا، وأنا أثق وأعرف نتيجة ممارسة طويلة نسبياً أنه تيار حقيقى قوى ومتنام بالرغم من محنته، باعتباره الرأى الآخر.

إن إعلان جمعية القاهرة للسلام، هو بلاشك خطوة إيجابية لكل الأطراف، بما فيها الحكومة المصرية، ولكنها خطوة صغيرة إذ إنه لاتوجد ضمانات على الإطلاق تمنع الحكومة المصرية من الكف عن محاولات الاحتواء والتحجيم كعادتها. وكانت بربارا بلنت مراسلة إذاعة .B.B.C فى القاهرة قد قالت فى ٩٨/٦/٨ معلقة على صدور بيان مشترك فى مؤتمر صحفى لحركة السلام الآن وجمعية القاهرة للسلام المصرية:

«إن جمعية السلام المصرية على علاقة وثيقة بالسلطات المصرية، ذلك أن هذه السلطات تعتبر أن هذا التحرك هو أحد وسائل الضغط على نتنياهو، كما أن الرسميين المصريين مثل: عمرو موسى وأسامه الباز، قد استقبلوا وفد حركة السلام برئاسة جنرال موردخاى بارأون بحفاوة» .

غير أن حركة القاهرة للسلام، بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة، يمكن أن تتيح إعادة تأهيل إعلان كوبنهاجن، وتتيح تأسيس تيار للسلام الديموقراطى، حتى يكون هناك معنى لتضحيات المناضلين من المصريين والعرب والإسرائيليين من أنصار السلام، على درب الآلام، ولن يصبح لكل ذلك معنى مالم نستقبل رسالتهم ونؤمن بها، حتى تفضى إلى الأمن والسلام العادل والشامل لكل الأطراف.

□□□

الفصل السادس

مشروع برلمان للسلام الديموقراطى

ورقة للحوار

تفتقر قضية الشرق الأوسط بشكل واضح إلى وجود قوة أخلاقية ثقافية سياسية تصنع حضوراً دائماً للشعوب – من داخل المنطقة– بجوار حلقات الأحداث المتدفقة وبقوة طوال تاريخ الصراع. ولسنا هنا بصدد بحث الأسباب، كما أن عدم وجود هذه القوة فى وقت المواجهات العسكرية ليس شاغلنا الآن، ولكن عدم وجودها الآن، فى ظل تعقيدات متزايدة، وغموض مفاهيم الحوار والسلام؛ فضلاً عن كونها مفاهيم متحركة وغير ثابتة، وتتغير بتغير الأطراف، وتتعدد بتعددهم. كل ذلك دل أكثر من أى وقت مضى، على الحاجة الماسة إلى وجود تلك القوة، حيث تناقش داخلها وبحرية تلك المفاهيم، بهدف تحديدها، وجعلها ضمن الذهنية العامة لشعوب المنطقة والعالم بالإضافة إلى ذهنية صناع القرار حتى مستوى الضغط إن أمكن.

وإذا كانت الحرب أخطر من أن تترك للعسكريين، فإن السلام أهم من أن يترك للحكومات، كما أن كارثة عدم تمييز الصديق لا تقل فداحة عن كارثة عدم تمييز العدو.

لقد قامت القوى الأخلاقية السياسية بدور فعال فى حرب فيتنام، وخلال معركة الاستقلال فى الجزائر، وفى الصراع ضد نظام الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا، وإذا أخذنا أقرب هذه القضايا، وهى قضية جنوب إفريقيا؛ سنجد أنه خلال السنوات الأخيرة، قبل سقوط النظام العنصرى، كانت القيادات والكوادر الوسطى فى حزب المؤتمر الوطنى فى السجون، وكانت القواعد العسكرية مدمرة بالكامل سواء داخل

جنوب أفريقيا أو فى بلاد الجوار، ولكن خلال تاريخ الصراع كانت القوة السياسية الأخلاقية قد تشكلت فى أوساط البيض والسود، وبعض بلاد أفريقيا وأوروبا وكندا وأمريكا، بما كان كافياً للوصول إلى نهاية للنظام العنصرى.

إن تحقيق السلام الديموقراطى العادل والشامل بين العرب وإسرائيل، هو هدف صعب، ولكنه ليس مستحيلاً، ومن أسباب صعوبته أن الأطراف ساهمت سواء بقصد أو بدون قصد، فى حصره داخل التسوية الجغرافية السياسية، فى حين أن الصراع معقد بدرجة تتجاوز ذلك بكثير، فلايمكن تصور السلام الحقيقى دون تسوية تاريخية وثقافية، ودون الإطلاع على «ألم» كل طرف لدى الأطراف الأخرى. كما أنه بجوار المصالح المشتركة فى التسويات والتعاون، هناك مشتركات لابد من تنميتها، وهنا لابد من التنويه على أن صفحات الدراسة السابقة تتضمن الكثير من التمهيد لهذا الاقتراح.

وبالتأكيد فإن مفهوما كهذا يعنى حصار القوى المعادية للسلام، سواء كانت قوى الحرب والعنصرية والتوسع أو كانت قوى العداء للديموقراطية.

وفى اعتقادى - كما سبق التوضيح - أن أحد الملامح الأساسية فى معارك الحرب والسلام حتى الآن يكمن فى تغييب أصحاب المصالح الحقيقيين. والقوى الشعبية الديموقراطية، وأنصار التقدم والسلام، عن تلك المعارك. وهم من اصطلحنا على تسميتهم بأنصار الرأى الآخر، خاصة على الجانب العربى.

ولاشك أن معركة السلام، بهذا المعنى، أخطر وأصعب من معركة الحرب، ونحن حينئذ بحاجة إلى أكثر من عدم دفن الرؤوس فى الرمال (لست من المعتقدين أن النعام يفعل ذلك) إذ نحتاج إلى ما يشبه التسوية التاريخية مع أنفسنا أولاً، كى يصبح لدينا تصور صحيح، وباعتبار أن ما سيأتى هو الأهم، والأكثر جدارة بالعمل من أجله، والمسئولية عنه.

وإذا لم نتجاهل الواقع، أعتقد أن السلام الحالى (الناقص والرسمى) هو فرصة لا يجب أن تضيع اعتمادا على أنه يجب الكفاح من أجل تطويره إلى سلام كامل. وربما

كان هذا هو المقصود من العبارة الشهيرة: «إن أسوأ سلام هو أفضل من أى حرب» خاصة إذا كانت هزائم الحرب ماثلة للعيان، وخاصة إذا كان لدينا تراث من التسويات التى تمت، واتفاقيات للتسوية تم توقيعها ولم تنفذ، واتفاقيات للتسوية لم يتم توقيعها.

إطار عمل:

يهدف إطار العمل، واقترح تسميته ببرلمان السلام الديموقراطى فى الشرق الأوسط، إلى أن يكون إطاراً للتعاون بين قوى أنصار السلام الديموقراطى على الجانبين الإسرائيلى والعربى فى مصر وفلسطين والأردن ولبنان وسوريا ومن ينضم من باقى العالم العربى، ومن القوى المحبة للسلام فى باقى دول العالم.

يضمن هذا الإطار حرية الحركة لهذه القوى، بما لايجعلها تحت سيطرة أى من الأطراف الرسمية، وتعمل على تشكيل قوة أخلاقية سياسية ثقافية تعمل على إعادة تحديد الخريطة الثقافية للمنطقة، كأحد وسائل تخفيف التناقض السياسى بين الأطراف. وهكذا يمكن اختيار القوى التى يتفق موقفها، فيما يتعلق ببيان الحد الأدنى للتحالف معها من بين هذه القواعد، بهدف التمهيد للحوار مع قوى الحل السلمى لزيادة المشتركات معها وتطويرها، وبهدف تطويق كل محاولات هدم السلام، وتفويت فرص وامكانيات التعاون المستقبلية، وكل محاولات التهرب من تنفيذ الاتفاقيات، وكذلك حصار الإرهاب والتطرف بكل أنواعه، سواء كان من أفراد أو دول. ويعمل هذا البرلمان مع كل الأطراف لتيسير حصول الشعب الفلسطينى على حق تقرير المصير، وأقامة دولته المستقلة على الأرض التى تم احتلالها بعد سنة ٦٧، وعلى أن تصبح القدس عاصمة لبلدين، وقبل ذلك لشعبين، وبحث قضية اللاجئين، وحق العودة أو التعويض عن طريق تنفيذ القرار ١٩٤، والانسحاب من الأراضى العربية المحتلة فى سوريا ولبنان. وحصول المجتمع والدولة الإسرائيلية على الأمن، والاعتراف الكامل، والعلاقات الطبيعية مع «كل» العالم العربى.

ويعمل البرلمان على تنمية المشتركات الثقافية بين دول المنطقة لرسم خريطة

ثقافية جديدة تغذى قوة الضمير وتخدم السلام، حتى لو اقتضى الأمر عودة الجنسية لكل اليهود الذين تم تهجيرهم من العالم العربى، باعتبار أنهم جسد مشترك، وأن يحمل عرب إسرائيل جنسية مزدوجة مع الدولة الفلسطينية. وهذا كله على سبيل تخيل آفاق للسلام الديموقراطى.

على أن أحد الأهداف المهمة هو انخراط إسرائيل فى المنطقة، عن طريق الانفتاح والتعاون والمصالح المشتركة، ونزع أسلحة الدمار الشامل من كل الأطراف، وإخلاء المنطقة منها، وبحث تخفيض الأسلحة التقليدية بين كل الأطراف، بما فيها الأطراف الإقليمية. كما يعمل البرلمان على كشف كل عمليات الاعتداء على حريات الشعوب والأفراد.

واقترح أن تكون الوسائل التنفيذية كالآتى:

١ – برلمان السلام الديموقراطى هو أول محفل شعبى حقيقى فى منطقة الشرق الأوسط، ويجب الحفاظ على الصيغة الديموقراطية فى تأسيسه، ويتم اختيار لجنته التحضيرية بعد التوصل إلى اتفاق الحد الأدنى، ويصبح هو نفسه بيان تأسيسه.

٢ – تجتمع قوى السلام داخل هذا البرلمان بقواعد التصويت، وإعطاء الكلمة، طبقاً لقواعد التصويت المرعية فى المؤسسات المشابهة.

٣ – يكون هذا البرلمان فى مكان يتيح حرية الحركة لأعضائه، ويفضل أن يكون فى بيت الشرق فى القدس، وإذا لم يتيسر ذلك يمكن أن يقام فى رام الله.

٤ – يكون أعضاء البرلمان من النشطين فى حركات وروابط السلام، وممن لهم نشاط عملى أو فكرى فى تشجيع الحوار، وبشرط الاعتماد على المثقفين والشخصيات المستقلة، التى لا تعمل بوظائف رسمية أو حكومية، ويستثني من ذلك الأكاديميين والباحثين الأكاديميون والباحثون، وجزء أساسى من العضوية للمبدعين والفنانين، الذين ثبت أنهم من أنصار السلام على الجانبين، ويتم الاتفاق على نسب التمثيل فى بيان التأسيس.

٥ – يمكن العمل على أن تشمل البرلمان حماية دولية عن طريق الأمم المتحدة، وبرلمان الاتحاد الأوروبى، والمؤسسات الشعبية، فى بلاد العالم المؤثرة.

٦ – يمكن أن تدار حسابات هذا البرلمان عن طريق إدارة من إدارات الأمم المتحدة، أو مؤسسة دولية أخرى، ويمكن أن يتلقى تبرعات علنية باسمه.

٧ – يكون لهذا البرلمان نشرة دورية باللغة الإنجليزية ترجم إلى اللغة العربية والعبرية، وإلى لغات أخرى إن أمكن.

٨ – يجتمع البرلمان اجتماعا دوريا شهريا أو موسميا، على أن يدعى للاجتماع فور حدوث طارئ، يؤثر على مسيرة السلام، أو يمس حقوق تعبير هذه القوى.

٩ – تصدر بيانات البرلمان فى مؤتمر صحفى، وعن طريق لجنة، يتم تحديدها فى بيان التأسيس.

١٠ – يصدر البرلمان سنوياً صحيفة بيضاء وأخرى سوداء، تتضمن الأولى أسماء من قاموا بأعمال تخدم السلام سواء فى المنطقة أو خارجها، والعكس بالنسبة للثانية.

١١ – تقام سنوياً مناسبة لإحياء ذكرى ضحايا السلام، وأنصار السلام الذين لم يعودوا على قيد الحياة، ويتم تحديد اليوم بالاتفاق بين الأطراف.

١٢ – يعتبر عضواً فخرياً كل الشخصيات التى ساهمت فى إرساء أسس السلام من خارج المنطقة، وأن تتشكل منهم لجنة حكماء، ويمكن أن تضاف إليهم شخصيات عالمية ذات وزن، مرشحة للعب دور فى خدمة السلام الديموقراطى فى المنطقة، وخدمة السلام العالمى.

١٣ – توضع ضمن وثائق المجلس كل مواثيق وإعلانات حقوق الإنسان والمرأة والطفل والبيئة وأسرى الحرب، وكل ما يخدم الاتجاه إلى السلام الإقليمى والعالمى.

١٤ – توضع فى ملفات البرلمان كل المعاهدات والاتفاقيات ومشاريع الاتفاقيات الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط.

١٥ – يسمح للهيئات الشعبية والديموقراطية من كافة أنحاء العالم بالتمثيل

والحضور كمراقبين، دون حق التصويت.

١٦ – يتم اختيار قضية سنوية (أو عدة قضايا) للتركيز عليها، مثل الإفراج عن المعتقلين والمساجين الفلسطينيين، أو الإفراج عن «فانونو»، وإعادة الاعتبار لأنصار السلام القدامى، أو مصادرة الأراضى .

١٧ – تتشكل داخل البرلمان لجنة للحقيقة (سياسية وقانونية) متنوعة التشكيل، ويمكن أن تقوم بتكليف أعضاء البرلمان للتحقيق الشعبى، فى وقائع تمس أهداف البرلمان، فى أى من البلاد المعنية بالصراع.

١٨ – لابد أن يتضمن بيان التأسيس إدانة واضحة لأحداث الهولوكوست والشواح التى تعرض لها اليهود، وفى نفس الوقت إدانة واضحة لعمليات إرهاب الدولة التى ارتكبتها أطراف صهيونية أو دولة إسرائيل مثل: قبية ودير ياسين وكفر قاسم وقانا، واغتيال اللورد موين والكونت برنادوت، وغير ذلك من أعمال الإرهاب.

١٩ – يمكن إصدار مجلة أو كتاب موسمى أو شهرى، كعمل من أعمال التحضير يتضمن الكتابات السابقة والحالية والمستقبلية، لكل من عبر عن أفكار تخدم السلام فى الدول المعنية، ويمكن الاتفاق على صدوره بالعربية والعبرية ولغات أخرى إن أمكن بين مؤسسات خاصة أو شعبية.

القاهرة

أكتوبر (تشرين اول) ١٩٩٨

■■■

هوامش الباب الخامس

١ – معاريف ٢٨ / ٩٧/٨ . إسرائيل.

٢ – روز اليوسف ٢٠ / ٩٧/١٠ العدد ٣٦١٩ . القاهرة.

٣ – الحياة ٩٤/١٠/٢٨ . لندن.

٤ – جميل عارف «شاهد على مولد الجامعة العربية» . الدولية للإعلام والنشر . ص ٦٥ . القاهرة. ١٩٩٥ .

٥ – (المصدر السابق) ص ٦٥ .

٦ – د. وليد الخالدى (مصدر سابق) .

٧ – الحياة ٢٠ / ١٠ / ٩٧ . لندن.

٨ – وكالات الأنباء. الأسبوع الأول من أغسطس (آب) سنة ١٩٨٨ .

٩ – يردد ياسر عرفات كثيراً انه مصرى الهوى.

١٠ – التايمز البريطانية ٩٨/٦/٦ .

١١ – حوار خاص مع د. يوسى اميتاى فى يناير (كانون ثانى) سنه ١٩٩٧ .

١٢ – بوعز عفرون. الحساب القومى (مصدر سابق) ص ٢٢ .

١٣ – الحياة ٩٥/١١/٢٩ . لندن.

١٤ – اليعازر شفيد. أهداف الصهيونية اليوم. ملف مئة عام على الصهيونية. موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على شبكة الانترنت.

١٥ – موشيه شاريت (مصدر سابق) ص ٢٠٩ .

١٦ – المصدر السابق ص ١٠٤ .

١٧ – قناة التليفزيون الفضائية الإسرائيلية الأولى فى ٩٨/٤/٣٠ .

١٨ – مقابلة فى جريدة هاأرتس ٩٦/١١/٢٢ .

١٩ – كان بنيامين نتنياهو يعمل مندوب للمبيعات فى شركة «ريم» للموبيليا والديكور قبل أن يعمل بالسياسة.

٢٠ – شيمون بيريز. الشرق الأوسط الجديد (مصدر سابق) .

٢١ – الجارديان البريطانية ١٠ /٨٩/٣ .

٢٢ – مقالة صلاح الدين حافظ فى الأهرام فى الأسبوع الأخير من يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٩٧ وقبل التوقيع على إعلان كوبنهاجن.

■■■

مراجع عامة
لم تذكر فى الهوامش

أولاً: فى اللغة العربية:

١- أحمد حمروش. «شهود ثورة يوليو». مكتبة مدبولى. القاهرة.

٢ - أحمد حمروش. «قصة ثورة يوليو». جـ١. مكتبة مدبولى. القاهرة.

٣ - أحمد لطفى السيد. قصة حياتى. دار الهلال. القاهرة. ١٩٨٢

٤ - د. إدوارد سعيد. «غزة - أريحا». تقديم: محمد حسنين هيكل. دار المستقبل العربى. القاهرة. ١٩٩٤.

٥ - إسحاق بارموشيه. «مصر فى قلبى». دائرة الثقافة العربية - وزارة المعارف والثقافة. إسرائيل.

٦ - اسماعيل صدقى باشا. مذكراتى. تحقيق: سامى أبو النور. صفحات من تاريخ مصر رقم ١٧. مكتبة مدبولى القاهرة. ١٩٩٦.

٧ - أمين المهدى. الجزائر بين العسكريين والأصوليين، الدار العربية للنشر. القاهرة. ١٩٩٢.

٨ - أمين هويدى. «مع عبد الناصر» دار الوحدة. بيروت.

٩ - د. أنور عبد الملك. «مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون». دار الطليعة. بيروت.

١٠ - د. جمال العطيفى. «الطريق إلى الديموقراطية». دار المعارف. القاهرة. ١٩٧٨.

١١ - جورج سعادة. «مبادئ الحزب القومى السورى الاجتماعى». بيروت. ١٩٣٥.

١٢ - جورج سعادة. «نشوء الأمم». بيروت. ١٩٣٨.

١٣ - حسن البنا. «مذكرات الدعوة والداعية». دار الشهاب. القاهرة.

١٤ - حسن طلعت. «فى خدمة الامن السياسى» - مايو ١٩٣٦ - مايو ١٩٧١». الوطن العربى. بيروت

١٥ - حسن العشماوى. الإخوان والثورة. روز اليوسف. القاهرة. ١٩٧٨.

١٦ - حلمى سلام. «أنا وثوار يوليو». دار ثابت. القاهرة.

١٧ - خليل عبد الكريم. «نعم لتطبيق الشريعة لا للحكم». كتاب الأهالى. القاهرة. ١٩٨٧.

١٨ - د. خيرية قاسمية. «الحكومة العربية فى دمشق».

١٩- د. خيرية قاسمية. «الحكومة العربية فى دمشق».١٩ - د. خيرية قاسمية. « مذكرات محسن البرازى (١٩٤٧ - ١٩٤٩). ارواد للنشر ونالتوزيع. بيروت. ١٩٩٤

٢٠ - د. زبيدة عطا. «الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى». الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة. ١٩٩١.

٢١ - زكريا سليمان بيومى. الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية فى الحياة السياسية المعاصرة (١٩٢٨ - ١٩٤٨). مكتبة وهبة. القاهرة. ١٩٧٨

٢٢ - ساطع الحصرى. «حول القومية العربية». دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٦١.

٢٣- ساطع الحصرى، «العروبة بين دعاتها ومعارضيها». دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥١.

٢٤ - د. سعد الدين إبراهيم. «الملل والنحل والأعراق - هموم الأقليات فى الوطن العربى». مركز ابن خلدون (طبعة ثانية) القاهرة. ١٩٩٤.

٢٥ - سعد زهران. «فى أصول السياسة المصرية». دارالمستقبل العربى. القاهرة. ١٩٨٥.

٢٦- سلامه موسى. حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ. دار الهلال. القاهرة. ١٩٢٧.

٢٧ - سناء المصرى «هوامش الفتح العربى لمصر» - حكايات الدخول». دار سيناء للنشر. القاهرة. ١٩٩٦.

٢٨ - سيد سابق. «فقه السنة» - ٣ أجزاء. دار الفتح. القاهرة. ١٩٩٧

٢٩- صلاح نصر. «الحرب النفسية - معركة الكلمة والمعتقد» و المعتقد. دار القاهرة للطباعة والنشر (الجزء الأول) القاهرة.

٣٠ - صلاح نصر. «عملاء الخيانة وحديث الإفك». الوطن العربى. بيروت.

٣١ - طارق البشرى. «الديموقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - ١٩٧٠». الأبحاث العربية. بيروت. ١٩٨٧

٣٢ -د. طه حسين. مستقبل الثقافة فى مصر دار المعارف. القاهرة.

٣٣- عادل حموده. «عبد الناصر - الحروب الخفية مع المخابرات الأمريكية». الدار العربية للنشر. القاهرة. ١٩٨٩.

٣٤ - عبد الله بن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها. تقديم وتحقيق: محمد صبيح. دار التعاون. القاهرة.

٣٥ - عبد الله العلايلى. «دستور العرب القومى». دار الجديد. بيروت ١٩٩٦.

٣٦- عبد الرحمن الجبرتى. «مظهر التقديس فى خروج دولة الفرنسيس». الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

٣٧ - عبد الرحمن الرافعى. «مصر المجاهدة فى العصر الحديث». الطبعة الثالثة. دار الهلال. القاهرة.

٣٨ - د عبد العظيم رمضان. «تحطيم الآلهة». مكتبة مدبولى. القاهرة.(جزءان) .١٩٨٤

٣٩ - د. عبد العظيم رمضان. «الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ - ١٩٣٩). العربية للدرسات والنشر بيروت. ١٩٧٩.

٤٠ - د. عبد العظيم رمضان. «العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩). سلسلة تاريخ المصريين. الهيئة المصرية للكتاب. ١٩٩٢

٤١ - د. عبد العظيم رمضان. «الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة يوليو». مكتبة مدبولى. القاهرة. ١٩٨١.

٤٢- د. عبد العظيم رمضان. «المواجهة المصرية الإسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ - ١٩٧٩). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٦

٤٣ - د. عبد العظيم رمضان. «تحطيم الآلهة». مكتبة مدبولى. القاهرة. جزءان) . ١٩٨٤

٤٤ - عبد الفتاح أبو الفضل. «كنت نائباً لمدير المخابرات». دار الحرية للنشر. كتاب الحرية رقم ١١. القاهرة.

٤٥ - عبد المتعال الصعيدى. «فى ميدان الاجتهاد». جمعية الثقافة الإسلامية. القاهرة . ١٩٤٩ .

٤٦ - د. فؤاد زكريا. «الصحوة الاسلامية فى ميزان العقل». دار التنوير. بيروت. ١٩٨٥ .

٤٧ - د. فؤاد زكريا. «كم عمر الغضب؟» دار القاهرة. القاهرة.

٤٨ - لجنة من القوات المسلحة المصرية. «وثائق حرب فلسطين». تقديم: رفعت سيد أحمد. مكتبة مدبولى. القاهرة.

٤٩ - لطفى الحفار. «مذكراته - حياته - عصره (١٨٨٥ - ١٩٦٨) إعداد: سلمى الحفار الكزبرى. دار الريس. بيروت.

٥٠- د. لويس عوض. «أقنعة الناصرية السبعة». دار القضايا. بيروت.

٥١ - محمد إبراهيم كامل. «السلام الضائع فى كامب ديفيد». كتاب الأهالى رقم ١٢ . ١٩٨٧ .

٥٢- د. محمد أبو غدير. «القصة العبرية وأوضاع اليهود فى فلسطين فى فترة الهجرة الثانية». جامعة الأزهر- فرع البنات القاهرة. ١٩٨٧ .

٥٣ - محمد حسنين هيكل. «بين الصحافة والسياسة». شركة المطبوعات. بيروت.

٥٤ - محمد حسنين هيكل. «حكاية العرب والسوفيت»- النسخة العربية. شركة الخليج. الكويت.

٥٥ - محمد حسنين هيكل. «سنوات الغليان». الأهرام. القاهرة. ١٩٨٨ .

٥٦ - محمد حسنين هيكل. «لمصر - لا لعبد الناصر». شركة المطبوعات. بيروت.

٥٧ - محمد حسنين هيكل «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الكتاب الثانى». دارالشروق. الطبعة الرابعة. القاهرة. ١٩٩٦

٥٨ - محمد حسنين هيكل. «ملفات السويس». مؤسسة الأهرام. القاهرة.

٥٩ - محمد نجيب (رئيس الجمهورية السابق). مصير مصر (كتاب تمت مصادرته سنة ١٩٥٥). دار ديوان للطباعة والنشر. القاهرة. ١٩٩٥ .

٦٠ - الصاغ محمود لبيب. «مذكرات» تقديم: لواء صالح حرب (وزير الحربية سابقاً). بدون ناشر. القاهرة.

٦١- د. مكى الطيب شبيكه. «بريطانيا وثورة ١٩ المصرية». معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة

الدول العربية ١٩٧٦ .

٦٢ – نبيل عبد الفتاح. «عقل الأزمة». سيشات للدراسات والنشر. القاهرة. ١٩٩٣ .

٦٣ – (نبيل عبد الفتاح، وآخرون) . «تقرير الحالة الدينية فى مصر» مركز الدراسات بالأهرام.١٩٩٥ .

٦٤– يوحنا النيقوسى. «تاريخ العالم القديم ودخول العربى مصر». إعداد: بشوى عبد المسيح. مكتب النسر للطباعة. القاهرة. ١٩٩٦ .

ثانياً: كتب مترجمة:

١ – مذكرات بن جوريون. ترجمة: سمير جبور مراجعة: صبرى جريس مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت . ١٩٩٣

٢ – جيل بيرو. «هنرى كورييل رجل من نسيج خاص». ترجمة لطيف فرج. القاهرة دار الثقافة الجديدة. ١٩٨٨ .

٣ – لمن ترسم الحدود. مجموعة من القصص العبرية. ترجمة: سليمان ناطور. اتحاد الكتاب الفلسطينيين. القدس. ١٩٩٦ .

٤ – جسر من الكلمات. انطولوجيا من الأدب العبرى. معهد ترجمة الأدب العبرى. ١٩٩٥ .

٥ – صيد الغزال. ١٢ قصة من الأدب العبرى. أعدها: انطون شماس. جامعة تل ابيب. ١٩٨٤ .

٦ – «اسس التوتاليتارية». حنه ارندت. ترجمة: انطوان أبوزيد. دار الساقى. بيروت، لندن. ١٩٩٣

٧ – «حرب فلسطين (١٩٤٧ – ١٩٤٨) – الرواية الرسمية الإسرائيلية». ترجمة: أحمد خليفة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت.

٨ – الاخوان المسلمون. مكتبة مدبولى. ريتشارد متيشل. القاهرة. ١٩٧٧ .

٩ – «العلاقات الديلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط (١٧٨٤ – ١٩٧٥)». توماس أ. بريسون. دار طلاس. دمشق.

١٠– كوبن باون وبيترمونى. «من الحرب الباردة إلى الوفاق» ترجمة: صادق عودة. دار الشروق. عمان.

١١ – عاموس عوز «حنه وميخائيل». ترجمة: عن العبرية رفعت فوده. الدار العربية للنشر. القاهرة.

١٢ – شاؤول فريد لاندر. «مستقبل إسرائيل». مصلحة الاستعلامات. القاهرة.

١٣ – مناجم بيجين. «التمرد – مذكرات» مصلحة الاستعلامات . القاهرة.

١٤ – جولدا مائير. «مذكرات». مصلحة الاستعلامات . القاهرة.

١٥ – مجموعة صحفيين. «التقصير» . مصلحة الاستعلامات . القاهرة.

١٦ – جاكوب لانداو. تاريخ الأحزاب والحياة البرلمانية فى مصر. ترجمة: سامى الليثى. المؤسسة العربية للدراسات. بيروت. ١٩٧٤ .

١٧ – برتراند بادى. «الدولتان». ترجمة: نخلة فريفر. المركز الثقافى العربى. بيروت. ١٩٩٦

ترجمات خاصة عن اللغة العبرية (قصص وروايات):

٥ – روث الموج. «جذور الهواء». ترجمة: د. محمد أبو غدير.

٤ – ديفيد جروسمان. «التوازن الداخلى». ترجمة د. أحمد عبد اللطيف حماد.

١ – أليف بيت يهو شواع. «فى مواجهة الغابات». ترجمة د. رشاد الشامى.

٢ – أليف بيت يهو شواع. «صيف ٧٠» ترجمة: د. رشاد الشامى.

٣ – جابريلا نيوتن. «موتسارت لم يكن يهودياً». ترجمة: د. أحمد عبد اللطيف حماد.

كتب اللغة الانجليزية:

1 - Israel Gershoni. Redefining the Egyptian Nation (1930 - 1945) Camgridge. 1995

2 - André Aciman. Out of Egypt. Riverhead Books New york. 1995.

3 - The Penguin Book of Hebrew verse. Edited And Translated By T. Carmi. first published. 1981.

4 - Samir Al - khalil. Republic of fear. Hutchinson Radius 1989.

5 - A. I. Dawisha. Egypt in the arab world - the Elements of the forigen policy. Macmillan press. London. 1974.

6 - Samuel p. Huntington. The Clash of civilizatioms and the Remaking of world order. Simon and Schuster. New york 1996.

7 - Morrece Berger. Islam in Egypt Today. Cambridge university press. 1970

8 Albert Hourani. Arabic thought in the liberal age. oxford university press. London. 1962.

9 - P. vatikiotis. The Modern History of Egypt. weidenfeld and Nicolson. London. 1969.

رابعاً: وثائق دوريات عربية:

١ – أعداد متفرقة من جريدة النور. القاهرة.

٢ – أعداد متفرقة من جريدة المصرى القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٣ – أعداد متفرقة من جريدة الأساس. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٤ – أعداد متفرقة من مجلة الوسط. لندن.

٥ – أعداد متفرقة من مجلة الرسالة. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٦ – أعداد متفرقة من مجلة المقتطف. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٧ – أعداد متفرقة من مجلة المقطم. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٨ – أعداد متفرقة من مجلة الملايين. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

٩ – أعداد متفرقة من مجلة الكاتب. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

١٠ – أعداد متفرقة من مجلة الطليعة. القاهرة. (توقفت عن الصدور).

١١– أعداد متفرقة من مجلة العربى . الكويت.

١٢ – أعداد متفرقة من مجلة الكرمل الفلسطينية. بيروت.

١٣ – مجلة الإسلام والتصوف أعداد سنوات ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١. القاهرة.

١٤ – مجلة الوقائع المصرية. القاهرة.

١٥ – مجلة الأزهر. تصدر عن الأزهر. القاهرة.

١٦ – قوانين الأزهر منذ القانون الأول (قانون امتحان التدريس – قانون الشيخ المهدى) ١٨٧٢ نهره ٢٤ وحتى القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١.

١٧ – محاضر جلسات مجلس الأزهر الأعلى من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٨.

١٨ – تقارير لجنة إصلاح الأزهر «المعمور» سنة ١٩١٠.

١٩ – مجلة الدراسات الشرقية. قسم اللغات الشرقية . جامعة القاهرة. من فبراير (شباط) ١٩٩٣ إلى يناير (كانون ثانى) ١٩٩٤.

٢٠ – مجلة رسالة المشرق. السنة الأولى والثانية. قسم اللغات الشرقية. جامعة القاهرة.

٢١ – خطب جمال عبد الناصر. الجزءان السادس والسابع. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الأهرام القاهرة ١٩٧٢.

٢٢ – مجلة صهيون . رئيس التحرير. أيوب فرح. العدد ٨،٧ فى يوليو (تموز)، أغسطس (آب) سنة ١٩٤٩ القاهرة. (توقفت).

٢٣ – مجلة النذير. العدد الأول. القاهرة. ١٩٣٩.

خامساً: وثائق ودوريات غير عربية:

١ – مجلة المشاهد السياسى. B. B. C لندن (اللغة العربية).

٢ – مجلة مشارف. تصدر فى إسرائيل باللغة العربية. من العدد الأول إلى العدد ١٥ رئيس التحرير المؤسس: إميل حبيبى.

٣ – د. ساسون سوميخ. مجموعة دراسات باللغة العربية والإنجليزية عن نجيب محفوظ ويوسف إدريس. إسرائيل.

٤ – تقارير سنوية لسلطات الانتداب البريطانية على فلسطين من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٦.

٥ – تقارير ودراسات من مركز «جافى» للدراسات الاستراتيجية. إسرائيل.

٦ – أعداد متفرقة من جريدة يدعوت احرونوت (قديمة وحديثة). اسرائيل.

٧– أعداد متفرقة من جريدة دافار . إسرائيل.

٧- أعداد متفرقة من جريدة دافار . إسرائيل.

٨- أعداد متفرقة من جريدة عال هامشمار. إسرائيل.

٩ - تقارير لجان الهدنة العربية/ الإسرائيلية المشكلة طبقاً لاتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ تحت اشراف الأمم المتحدة.

١٠ - قرارات وتوصيات المؤتمرات الصهيونية من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٩٧ (بالعبرية والإنجليزية)

١١ - وثائق مختلفة من الأرشيف الصهيونى فى إسرائيل.

١٢- مواقع إسرائيلية وبريطانية وأمريكية على شبكة الانترنت.

١٣ - جريدة الفايناشيال تايمز. لندن (أعداد متفرقة).

١٤ - مجلة الايكونومست تايمز . لندن (أعداد متفرقة).

١٥ - جريدة الواشنطن بوست. الولايات المتحدة (أعداد متفرقة).

١٦ - جريدة النيويورك تايمز. الولايات المتحدة. (أعداد متفرقة)

١٧ - جريدة الهيرالد تريبيون. الولايات المتحدة. (أعداد متفرقة)

١٨ - مجلة نيوزويك. الولايات المتحدة . (أعداد متفرقة)

١٩ مجلة تايم. الولايات المتحدة. (أعداد متفرقة)

■■■

الفهرس

■■■

قريباً

١ - بعد أن قدمنا رواية القرن العشرين

« عوليس »

تأليف

جيمس جويس

نقدم رائعته الأخيرة .. رواية البشرية :

« فينجانز ويك »

ترجمة وشرح وتعليق د. طه محمود طه

٢ – «موسوعة جيمس چويس»

في طبعة منقحة وموسعة

تأليف: د. طه محمود طه

---

٣ – كتاب: تجارب علمية حقيقية – رجل مات مرتين وعاد إلى الحياة» – ماذا شاهد؟

دانيون برنكلي تقديم: **د. رايموند مودي**

ترجمة: **رشا حلمي** صياغة: **سمر إبراهيم**

٤ – كتاب: «سلمان رشدى والآيات الشيطانية»

مضمون الرواية – رؤية نقدية لها – السياق السياسي للتكفير وفتوي الخميني – حوار مع سلمان رشدي لأول مرة.

تأليف: **عادل درويش** - **د. عماد عبد الرازق**

٥ – رواية: «موتسارت لم يكن يهودياً»

تأليف: **جابرئيلا فيجور روتم**

ترجمها عن العبرية: **د. أحمد حماد.**

٦– كتاب: «زواج المتعة» – طبعة ثانية فاخرة

تأليف

د. فرج فودة

تقديم **د. أحمد صبحي منصور**

الصراع العربى الإسرائيلى

أزمة الديمقراطية والسلام

.. «إن الأسئلة الحرجة لابد أن تمتد لتشمل كل أوجه حياة العرب بعد فشل المشروع العربى؛ أمام تفوق وانتصار المشروع الصهيونى.

إن الطغيان وجمهوريات الخوف والعداء للحريات والحداثة والمساواة وانخفاض مستوي النخب الحاكمة إلي مادون الحد الأدني، كان كل ذلك هو الهزيمة الاصلية والأولي للمواطن العربي.

كان ذلك جزء من قراءة أخري. وهدف هذا الكتاب هو محاولة تقديم قراءة أخري لهذا الصراع..»

من مقدمة المؤلف